

حسن تفسير القرآن الكريم في تاريخ الله
بفضله عز وجل

معجم المصطلحات في تفسير القرآن

لجزء الثاني عشر

مفاهيم قرآنية

المرجع الديني للمسلمين

الشيخ صالح آل أبي

أسواق الفقه والأصول والتفسير والأخلاق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله الطيبين ، الحمد لله الذي جعل القرآن كنزاً سماوياً ينهل منه الناس في الليل والنهار العلوم، ويأخذون منه الأحكام ويصدرون عنه ويتزودون للدنيا والآخرة من غير أن ينقص من ذخائره شئ، وهو من خصائص موجودات الجنة كما في قوله تعالى في ثمار الجنة ﴿لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾^(١)، فلا ينقصها قطف المؤمنين لها، وليست ممنوعة عن أهل الجنان، وكذا كلام الله وآيات القرآن فليست ممنوعة عن أحد من العالمين فهي كالكلأ والماء فالناس فيها شرع سواء ببركة رسالة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهو من عمومات قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٢).

لقد تفضل الله سبحانه وجعل علوم القرآن متشعبة ومتعددة ، ودرره متصلة تنبسط على آياته وكلماته وحروفه كمصداق للإعجاز الذاتي ، وما يترشح عنه من الإعجاز الغيري، وعلومه وما يستنبط منه من العلوم والقوانين في إتساع وإنشطار دائم ، وتتداخل مع علم التفسير ليكون من عمومات قاعدة إذا اجتمعوا إفترقا وإذا إفترقا اجتمعوا، إذ تتجلى الآيات الباهرات في كل علم من علوم القرآن لما فيها من المطالب الربانية وكنوز المعرفة، ويدرك الإنسان ذكراً كان أو

(١) سورة الواقعة ٣٣.

(٢) سورة الأنبياء ١٠٧.

أنثى الحاجة إلى إستقراء الضوابط الكلية من مسائلها، ويتضمن هذا الجزء وهو التاسع عشر من معالم الإيمان سياحة عقلية ونقلية في عدة موضوعات في علوم القرآن، منها إعجاز القرآن ذلك البحر الزاخر من العلوم الذي لا تنقضي مصاديقه فهي في تجدد مستمر. وتضمن الجزء مقدمات في التفسير منها تحقيق في علم الحديث وبعض المباحث الأصولية وقراءة في فلسفة الصيام، وبحثاً كلامياً في الإسراء والمسائل المستقراة منه وعلم تقسيم آيات الكتاب إلى مكّي ومدني ، قال تعالى ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾^(١).

إعجاز القرآن

هذا العنوان المبارك سور جامع ومسألة سيالة في جميع آيات القرآن، وينحل ويتفرع بعدد آيات القرآن البالغة ٦٢٣٦ آية، وعدد كلماته البالغة ٧٧٤٣٠، بالإضافة إلى اللامتناهي من الإعجاز في نظم آيات القرآن والصلة والتداخل الموضوعي والحكمي بينها، وتفسير وتأکید بعضها لبعض^(١).

فصحيح ان الكلمة بذاتها من المفردات وليس من المركبات وفق الإصطلاح اللغوي إلا أن اعجازها يكمن في كونها كلام الله عز وجل وبذا تختلف بجهة الصدور وما في قراءتها من الأجر والثواب، وهي معجزة بلحاظ المعنى السياقي للآية ودلالات اختيارها دون غيرها، فمع وجود الترادف وكثرة أفرادها في اللغة العربية فإنه لا يمكن إستبدال كلمة قرآنية بمرادفها من الكلمات الأخرى.

والإعجاز ملازم للقرآن منذ بداية نزوله يجري معه ويصاحبه من غير إنفكاك في بعض أفراد الزمان أو المكان، كما أنه من العلوم التوليدية التي تتفرع عنها عدة علوم وأبواب وشعب بحسب الجهة والإختصاص والأمور المستحدثة ومنها العلوم والصناعات الحديثة.

وإعجاز القرآن نعمة على الناس جميعاً وخير محض، ومن عمومات قوله تعالى ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾^(٢).

وهو علم يحتاج إليه الناس في كل زمان وان كانت هذه الحاجة من الكلي المشكك لأنها على مراتب متفاوتة وبحسب الزمان والمكان

(١) صدرت إلى الآن ثمانية أجزاء من هذا التفسير في صلة آية ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾

بالآيات السابقة لها.

(٢) سورة إبراهيم ٣٤.

والحيثية والجهة.

وفي زمان العولة والفضائيات يحتاج الناس جميعاً إلى علم إعجاز القرآن مجلته القديمة وبمباني جديدة مناسبة، فالمسلم يتخذه سلاحاً وآية وآلة للدعوة، وغير المسلم يفتقر إليه كعون وطريق للهداية والرشاد. وبين الفريقين عموم وخصوص من وجه، فمادة الالتقاء ان القرآن يبعث في نفوس الجميع الحكمة وأنوار الهداية ويساعد في تهذيبها، ومادة الإفتراق أن المسلم يتخذه سلاحاً مركباً للإحتراز والدعوة وهو حجة له، وغير المسلم يحتاج لتلقي المعارف الإلهية وليصبح حجة عليه، وعلى الناس بواسطته.

وإعجاز القرآن من العلوم التي بحث فيها العلماء وكتبوا فيه منهم الواسطي المتوفي سنة ٣٠٦ هجرية، وأبو عيسى الرمانى ت ٣٨٢، والقاضي ابو بكر الباقلاني ت ٤٠٣، وهو مطبوع وممدوح، والفخر الرازي ت ٦٠٦.

والبحوث في إعجاز القرآن قاصرة عن بلوغ كنهه لا لتقصير من الباحثين بل لوجود المانع الذاتي فنحن عاجزون عن معرفة وجوه إعجاز القرآن فهو كلام الله الذي جعله حجة رسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، قال تعالى ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾^(١)، ولتعدد مضامين آيات القرآن، والتي تتغشى الوقائع والحوادث من وجوه:

الأول: الإخبار التاريخي في قصص الأمم السالفة ، قال تعالى ﴿نَحْنُ نُقْصِّصُ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾^(٢).

(١) سورة الروم ٥٨.

(٢) سورة يوسف ٣.

الثاني: ورود المغيبات في القرآن، لذا جاء في بداية القرآن وصف المسلمين بأنهم متقون لأنهم يحملون صفات عقائدية حميدة منها أنهم يؤمنون بالغيب ، قال تعالى ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾^(١).

الثالث: ذكر معارك الإسلام الأولى على نحو البيان والتفصيل الذي يتضمن البرهان على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وغلبة المسلمين وهم قلة على الكفار وعددهم كثير وكذا عدتهم ، ونزول الملائكة لنصرة المؤمنين ، قال تعالى ﴿يَمْدُكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ﴾^(٢).

والمعجزة هي الأمر الخارق للعادة المقرون بالتحدي السالم عن المعارضة، ولا بد ان ينكشف للأبصار والبصائر من غير لبس بانه يفوق قدرة البشر ويخترق الأسباب الطبيعية والظاهرية، ويجعل الأعناق تشرب إلى عالم ما وراء الطبيعية وإلى الغيب وبديع صنع تعالى طوعاً او قهراً.

وإقتران المعجزة بالتحدي نوع دعوة الى الله عز وجل، ودليل على الصانع ووجوب العبادة فهي تتحدى الجاحدين، والذين يدعون الربوبية والذين ينكرون النبوات والرسالة السماوية.

ويطرد التحدي في المعجزة الإلهية الحسد من النفوس، ويحول دون الضغائن ويصرف الناس عن الكيد والبطش بالرسول، لذا تجد فرعون يبقى متحيراً مرتبكاً أمام موسى عليه السلام والآيات التي جاء بها من عند الله.

(١) سورة البقرة ٢-٣.

(٢) سورة آل عمران ١٢٤.

وعندما يرى إستجابة السحرة له فانه يتوعدهم ويهددهم ولم يتعرض إلى موسى عليه السلام فالمعجزة حجاب ورحمة وعون وهي سلاح نوعي عام للنبي وأتباعه، فالإنسان مطلقاً ينشغل بالمعجزة وما فيها من التحدي ويتلقاها بعين البحث والتحقيق والإستنتاج.

ولابد ان تؤثر المعجزة في كل إنسان ولكن مقدار التأثير متفاوت وعلى مراتب فقد يحصل معها اليقين والتسليم، وقد يحصل الإيمان بها ولكن بمرتبة ودرجة أدنى من درجة اليقين ولكنه كاف للتسليم والإقرار بها.

وقد يدرك الإنسان أنها معجزة خصوصاً وأنها ظاهرة للجميع وهذا الإدراك قد لا يرقى إلى ترتب الأثر في النفس والإنصياع لما يصاحبها ويأتي به النبي والرسول سواء لقصور في ذات الإدراك أو لوجود الموانع في النفس من طغيان الشهوة وسيطرة الكدورات الظلمانية ونحوها.

ولكن الحجة شاملة للجميع، من آمن ومن لم يؤمن، ومن خصائص المعجزة أنها لا تتوجه إلى فريق من الناس دون غيرهم، فهي رسالة وبرهان يحمل صفة العموم وخارجة بالتخصص عن قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "إنا معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم"^(١).

وهي بالأصل مناسبة لجميع المدارك لأن الإعجاز ظاهر بالفطرة والبيان المانع من الإشتباه، لأن المعجزة تأتي متحدية لجميع العقول، والإفهام للصغار والكبار والذكور والإناث، وفيها عون على فضح الجاحد، وغلق للأسماع بوجهه فتراه لا يجد أذنأ صاغية بل تراه في قرارة نفسه لا يغبطها ويشعر بالحسرة على الجحود والإنكار، وبذا

تتحقق وظائف عرضية للإعجاز فهو تنبيه وحرز وتصد لأهل العناد وأقطاب الضلالة، وفي التنزيل ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لَأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾^(١) وليس من حد لصيغ الإنذار في القرآن، ويمكن تقسيمها إلى أقسام:

الأول: الإنذار المستقراً من اللفظ القرآني، ومن منافع الإعجاز البلاغي في القرآن أن الإنذارات الواردة فيه تنفذ إلى شغاف القلوب، وترسخ في الوجود الذهني، لتكون صاحباً كريماً يلح على الإنسان بإجتنب الضلالة والفواحش.

الثاني: موضوعية الإنذار القرآني بلحاظ نزوله من عند الله عز وجل.

الثالث: تعيين مواضيع الإنذار القرآني، والزجر عن الكفر والجحود وفعل السيئات، والتخويف من العقاب الأخروي، وما ينتظر الفاسقين والظالمين.

الرابع: مجيء البشارة مع الإنذار، لبيان إمكان التوبة والصلاح، والثواب العظيم الذي يفوز به المؤمنون.

الخامس: توكيد اللطف الإلهي بالناس جميعاً بنزول القرآن، وكل إنذار في القرآن هو رحمة وفضل من عند الله عز وجل.

وتأتي سلامة المعجزة عن المعارضة على نحو العموم الإستغراقي والمجموعي، فلو اجتمع الناس على أن يعارضوا المعجزة لما استطاعوا مما يدل على إنفراد المعجزة بخصوصية غير موجودة على الأرض فهي سماوية المضمون، أرضية المكان والمستقر، وفي سلامتها عن المعارضة تخفيف عن الناس وحث على التعجيل بالإيمان، وتيسير لطرقة، وإزالة

للموانع الذاتية والخارجية.

لقد إقتضت الحكمة الإلهية أن تكون الموجودات على أحسن وجه وأتم كمال، ومن أهم أفرادها الإنسان الذي شرفه الله تعالى بالخلافة في الأرض فلا بد أن تكون مسؤوليته ووظيفته في نظام العالم وسلامته هي الأكبر، وفرائد الكمال لا تنتظم إلا بالعبادة فجاءت المعجزة مدخلا ومقدمة وفضلاً منه تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(١).

إنها مدد إلهي ليكون العالم خالياً من الشرور والمفاسد، لذا فإن المعجزة باقية في الأرض لأن وظائفها مستديمة والبقاء لا ينطبق إلا على المعجزة العقلية فهو لا يشمل المعجزة الحسية التي تقتصر في الغالب على من رآها أو سمعها أو الشهادة على الشهادة أي المقربين ممن رآها سواء القرب العرضي أو الطولي أي الموجود من أهل بلد المعجزة والقرب منهم أو أبنائهم الذين يأتون بعدهم.

وقد ذهبت بعض المذاهب الفاسدة إلى أمور:

الأول: القول بمبدأين مؤثرين في العالم وهما:

الأول: مبدأ الخير.

الثاني: مبدأ الشر.

ومن إعجاز القرآن نفي هذه المذاهب، سواء بمنطوق الآيات، ومجيئها بالنص على بطلانها ولزوم الإنقياد لله عز وجل، أو بالمفهوم والإخبار عن إنعدام الشريك، قال تعالى ﴿لَهُ مُقَالِدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٢).

وكل آية في القرآن تدل على التوحيد ووجوب عبادة الله عز وجل،

(١) سورة الذاريات ٥٦ .

(٢) سورة الشورى ١٢ .

قال سبحانه ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾^(١).

الثاني: منهم من ذهب إلى القول بأن وجود الشر يدل على عدم التدبير من الحليم العالم ، وهذا القول نوع كفر وضلالة ، وفيه خطأ في المبنى وتجراً أساسه العجز عن فقه فلسفة الإبتلاء في الحياة الدنيا.

الثالث: قال بعض الفلاسفة بأن الله عز وجل خلق العالم ثم تخلى عنه.

فجاءت المعجزة لتبطل هذه الأقوال الثلاثة وتدل على أن الله عز وجل لم يتخل عن العالم وأنه يتعاهده بالحفظ والرحمة ، وأن المعجزة حرب على الشرور وطريق للقضاء عليها ، وبما يؤدي إلى الصلاح والثواب فإن الآية تجعل كل إنسان يميز بين الحق والباطل ، وبين الخير والشر لأنها عبارة عن قواعد إيمانية ثابتة لا يطرأ عليها الشك ، ولا يتسرب إليها الوهم ، وتمتلك القوة التي تزبح الغشاوة عن الأبصار والبصائر ، وتدعو إلى الله عز وجل كما ان المعجزة ظاهرة تتصف بالتفرع والإنشطار والتشعب وتخلق ملكة نفسية ثابتة بآيات الله عز وجل الكونية .

وبذا تكون للمعجزة وظائف غيرية ، وهي التصدي للمقالات الباطلة وكشف زيف الآراء العقيمة وفضح أصحابها .
ويمكن تقسيم إعجاز القرآن تقسيماً عقلياً إستقرائياً إلى ثلاثة أقسام:

الأول: الإعجاز الذاتي: ويعني ان القرآن بذاته معجز يخبر بآياته عن إعجازه ويمتلك الأهلية لإثبات هذا الإعجاز قبل ان تصل النوبة إلى توكيده بالشواهد والمصاديق الخارجية ، والإستعانة بمجهود

الأنبياء والصحابة والأئمة والمؤمنين وعلماء التفسير والتأويل، وتلك من خصائص المعجزة لأنها تنزل متكاملة الذات والمضمون.

وصحيح أن الكمال لله وحده فهو واجب الوجود الذي لا يحتاج أبداً وأن كلام الله ليس ذات الله عز وجل إلا أنه سبحانه جعل كلامه ومعجزته الخالدة غنياً عن غيره، لا يحتاج إلا إليه سبحانه والوسائط رحمة وفضل من الله وفي ذلك تخفيف ورحمة للمؤمنين، فلا يصل الجهاد إلى درجة إثبات المعجزة بل هي ثابتة بذاتها.

وقد نزل القرآن وسط قريش وبين القبائل العربية، وكانوا أهل فصاحة وبلغوا أعلى مراتب البلاغة، والتي تجلت في فرائد من الشعر تتصف بالتكامل البلاغي، واجتماع المعاني، وجزالة الألفاظ، وكانوا ينجذبون إلى القصائد والخطب البليغة، ويحفظونها عن ظهر قلب.

فلما جاء القرآن أقرؤا بإعجازه لما عندهم من الخزين والتراث الذي إتخذوا منه موضوعاً للمقارنة، وأدركوا من خلاله أن القرآن كلام الله.

قال تعالى ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾^(١)، وفيه نفي للشك بالقرآن على نحو الإطلاق، وإنعدام التهمة في نزوله، مما يعني أن الذين يظهرون الشك والريب في القرآن يعلمون في قرارة أنفسهم أنهم ضالون، وأنهم لم يتدبروا مفاهيم القرآن ومعانيها القدسية، ودلالات آياته التي تدل على نزوله من عند الله .

لذا إمتلأت نفوس الكفار بالخوف والرعب يوم بدر وسعى بعض كبار قريش لإجتناّب القتال ، ولكن أبا جهل أصر على القتال فكان من بين القتلى يومئذ

ويأتين الجهاد والسعي المتواصل من المؤمنين لأموالهم ومنافعهم: الأول: بيان معجزة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وإظهارها.

الثاني: الحجة على الناس.

الثالث: الأجر والثواب للذين يصدقون بنبوته.

الرابع: رسوخ الإيمان وإحياء السنة.

الخامس: ذكر المعجزة وعدم الغفلة عنها سلاح لإماتة الباطل وواقية من الشر وأهله.

وهذا الشطر من الإعجاز نابض بالحياة وكنوزه مفتوحة، كلما أخذنا من خزائن علومه وأسراره نشعر بان الباقي منها أكثر وكأنه يحثنا على النهل المتصل.

ومن إعجاز القرآن الذاتي ما فيه من علوم البلاغة واللغة ، التي جاءت بلغة التحدي والبرهان على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وأدركت العرب أن القرآن كلام الله المعجز. وفيه المغيبات وقصص الأنبياء والوحي وعجز الناس عن الإتيان بها وقصورهم عن الإحاطة بمفاهيمها ، قال تعالى ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَنْكَ مِثْلَ غَائِبِينَ﴾^(١).

الثاني : الإعجاز الغيري: وهو إعجاز الآيات الذي يتعلق بمواضيع ومصاديق خارجية قال تعالى ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾^(٢)، فمن إعجاز القرآن أنه يأخذ بأيدي الناس إلى منازل الإيمان، ثم يصعد بهم للإرتقاء وبلوغ الدرجات الرفيعة من التقوى

(١) سورة الأسراء ٨٩.

(٢) سورة البقرة ٢.

والفلاح ومسائل هذا الوجه من الإعجاز القرآني متجددة ما حل الجديدان الليل والنهار.

ومن الإعجاز الغيري ما أحدثه القرآن في السياسة والاقتصاد والتركيبات الاجتماعية ، وما أسسه من القواعد الثابتة في المعتقدات والفلسفة الإلهية وتعاهده للمجتمعات والأخلاق الحميدة وغيرها من الوجوه التي سيأتي التعرض لها مفصلاً في تفسير آيات القرآن.

الثالث : الإعجاز الجامع للذاتي والغيري : أي الفرد الذي يتضمن الإعجاز الذاتي والغيري فيكون الموضوع الواحد جامعاً للإعجازين ولو تأملت كل وجه من وجوه القسمين المتقدمين لرأيتهم مركباً أيضاً. ولكن هذا الإعجاز يصلح أن يكون قسماً لهما ، وله قواعده وأحكامه ، ولا يتعارض هذا التقسيم مع قواعد القسمة من الفصل والتباين وعدم التداخل بين الأقسام، لترشح مضامين إعجازية إضافية ودلالات باهرات من الجمع بين الإعجاز الذاتي والغيري ، وبهذا التقسيم تفتح علينا أبواب من العلم والدراسات القرآنية والعلوم المتعلقة في ميادين الحياة المختلفة ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿عَلَّمَ

الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾^(١) .

وعلم القرآن من اللامتناهي لأنها توليدية، كل علم يفتح ألف باب من العلم، وكل آية تدعو إلى الاستنباط والاستنتاج والسعي في مسالك العلم، وهو من مقدمات وعمومات قوله تعالى ﴿لِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢)، ومن عز المؤمنين إرتقاؤهم في ميادين العلم بالإقتباس من آيات القرآن، وإتخاذها سلاحاً في أمور الدين والدنيا.

(١) سورة العلق ٥.

(٢) سورة المنافقون ٨.

وهذا التقسيم لا يكون على سبيل الختم والحصر بل أن كل قسم من هذه الأقسام الثلاثة ينشطر إلى عدة أقسام وفروع بحسب اللحاظ والجهة والمتعلق.

ومن الإعجاز أن القرآن خالٍ من لفظ المعجزة والإعجاز كما أنه خالٍ من لفظ السيف في الوقت الذي سميت آية منه بآية السيف وقالوا إنها ناسخة لأكثر من مائة آية وإن لم نوافقهم على هذا القول ونسخ أكثر تلك الآيات بها.

ولم يذكر لفظ المعجزة في القرآن لأن كل آية منه معجزة بذاتها وعلم متكامل، ونهر متدفق من الأحكام ثم إن الإعجاز يرد في القرآن بألفاظ مختلفة تتضمن أموراً:

الأول : تحدي الكفار والمنافقين.

الثاني : إقامة الحجة والبرهان على صدق بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثالث : تأكيد تفضيل المسلمين، وقوله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ

لِلنَّاسِ﴾^(١) التي جاءت خطاباً لهم على نحو التعيين.

الرابع : إظهار الآيات وإثبات الخصوصية والمضامين التي ينفرد بها من وجوه العلم والكمالات والأسرار الملكوتية والصبغة السماوية. ونسبة القرآن إلى الباري عز وجل كلاماً ورسولاً وهادياً ورحمة مستديمة، فكل آية منه تحدٍ وإظهار للإعجاز في باب البلاغة والفصاحة بل والأعم منهما، ولعله من أسباب عدم ذكر الإعجاز في القرآن صريحاً.

لأن كل آية مدرسة في الإعجاز تنزيلاً ووحياً وبلاغة ودلالة قال

تعالى ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾^(١)، ومنهم من إحتج بهذه الآية قال الزمخشري: بهذه الآية من لا يرى الاجتهاد للأنبياء ، ويجب بأن الله تعالى إذا سوغ لهم الاجتهاد ، كان الاجتهاد وما يستند إليه كله وحياً لا نطقاً عن الهوى^(٢).

والخلاف صغروي بعد الإتفاق على الكبرى ، وهي أن كلام الأنبياء وحي.

والإعجاز القرآني أعم من أن ينحصر بموضوع معين، فقد حصره كثير من العلماء بباب دون آخر من وجوه العلم وجاء من بعدهم من يميل إلى هذا القول أو ذاك أو يكتفي بعرض الأقوال وبيان حجة ودليل كل منها، والحق أن كل واحد منها قاصر عن الإحاطة بوجوه الإعجاز القرآني.

ما ذكر في إعجاز القرآن

يتفق المسلمون جميعاً على إعجاز القرآن ولكنهم اختلفوا في موضوعه إذ أنه نزل للعرب أولاً وهم الفصحاء فكان حجة عليهم ودعوة لهم للإسلام لما يتصف به من الفصاحة والبلاغة، ووجوه الإعجاز هي:

الأول : الفصاحة والسلامة من العيوب، قاله الرازي.

الثاني : التأليف الخاص به، قاله الزملكاني.

الثالث : إخباره عن المغيبات قال تعالى ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ

إِلَيْكَ﴾^(٣).

(١) سورة النجم ٣-٤.

(٢) الكشاف ٦/٤٣٧.

(٣) سورة آل عمران ٤٤.

الرابع : حسن التأليف بأن إعتدلت مفرداته تركيباً ووزناً.

الخامس : نظمه وصحة معانيه وتوالي فصاحة ألفاظه.

والذي نذهب اليه هو صدق إجتماع هذه الوجوه في إعجاز القرآن بالإضافة إلى وجوه أخرى للإعجاز قد تفوقها موضوعاً وكماً وكيفاً، ومنها ما لم يتم إدراكه ومعرفته، فمن الأولى عدم حصر إعجاز القرآن في مورد أو نوع واحد أو أقسام ووجوه محدودة، بل يجب ان يبقى مفتوحاً تضاف إليه أبواب وعلوم جديدة لم يشر إليها المتقدمون أو أشاروا إليها ولكن ليس في مورد الإعجاز، أو ذكرت بإيجاز، وزمان العولمة يستلزم البيان والتفصيل.

مع السعي لإكتشاف وجوه جديدة للإعجاز من خلال العلوم المستحدثة والوقائع والأحداث التي تأتي مطابقة لعلوم القرآن أو تكون برهاناً ودليلاً على إعجازه.

إن إعجاز القرآن من أشرف العلوم وهو مدخل للإيمان والإقرار بنزوله من عند الله، ودعوة متجددة للإسلام أي نحتاج إلى تنقيح وتوسيع هذا العلم لنشر الإسلام وهو من عمومات قوله تعالى ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ ^(١) خصوصاً وقد ورد في تفسير هذه الآية أن الحكمة النبوة، والموعظة الحسنة القرآن.

وإجماع المسلمين على أن القرآن معجز ببلاغته لأنه نزل للعرب إبتداءً وبين ظهرانيتهم، ولكنه عالمي الرسالة فذكر العرب ووجه الإعجاز الخاص بهم جاء من باب المثال وليس الحصر، والحاجة الملحة الآنية وليس الأمر الوحيد الثابت.

فالذي نجهله من إعجاز القرآن أكثر من الذي نعلمه، وعقول البشر

لا ترقى إلى إدراك معشار إعجازه كموضوع وحكم ومصاديق،
والمواضيع التي ذكرت لإعجازه متعددة في كنهها وأبعادها وحقيقتها،
والإجماع على أن الفصاحة من إعجاز القرآن، ومن المباحث المتجددة
مدى ومنتهى فصاحته وبلاغته. ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(١).

وعلماء التفسير وعلى تعاقب الأجيال يشنون على تفسير الزمخشري
لما أظهره من بلاغة القرآن والحق معهم، ولكن الذي بينه منها قليل
جداً وإن كان جهداً مباركاً، وكان الأجدر بمن جاء من بعده ممن يشني
عليه أن يجتهد، ويسعى ويبين المزيد من علوم البلاغة للقرآن، ويستظهر
جوانب جديدة في فصاحة وبلاغة القرآن ويضيف لبنة لصرح إعجاز
القرآن، لأنه علم واسع ينبسط على كل كلمات القرآن وما لها من
المعاني والدلالات.

ولا يمكن إستقراء العلوم البلاغية من غير إختصاص وإحاطة بعلوم
البلاغة في اللغة العربية وإستحداث دراسات مقارنة في ذات اللغة
العربية وبينها وبين اللغات الأخرى، وأثر البلاغة في النفوس ووقعها
على الأسماع وفي ذات الكلام ومعانيه، وما يتفرع عن البلاغة القرآنية
من العلوم والأحكام والدلالات.

لذا نقترح تأسيس كلية خاصة بالبلاغة في بعض الجامعات في
الأمصار العربية والإسلامية، وهذا التأسيس وحده ثورة في علوم اللغة
من وجوه:

الأول: ما يحتاج من مناهج الدراسة ومستلزمات العمل اليومي.
الثاني: كونه مدرسة وإنتقالاً نوعياً في عالم البلاغة ومدخلًا
للإبداع، وسبباً للإختصاص.

الثالث: إنه مناسبة لإعطاء مضامينه وقواعده الإستقلال والبحوث والدراسات الخاصة.

الرابع: تتاح معه الفرصة لوضع وتثبيت مصطلحات هذا العلم، وتدوين مواضعه، وبيان تأريخه الذي يكشف عن إنبثاقه من خزائن القرآن .

الخامس : إنه شاهد على سعي العلماء في إظهار كنوز القرآن وإعلاء كلمة التوحيد، وتوكيد صدق نزول القرآن من عند الله، قال تعالى ﴿وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾^(١).

السادس: إحراز الأجر والثواب لما فيه من الدفاع عن القرآن وإستنباط المسائل منه.

السابع : تنمية ملكة الفقهارة والفصاحة عند المسلمين.

وفي إعجاز القرآن مسائل ووجوه منها:

١- القول بأن إعجاز القرآن في بلاغته يملئ علينا إستظهار فنون البلاغة وإشاعة علومها وتأسيس قواعدها وإستنباط الضوابط والأحكام منها والسعي في دراستها وإستنتاج الحكم والعبر منها أي نحن بحاجة إلى تأسيس علم جديد للبلاغة ليكون هذا التأسيس مدخلاً للبحث في علوم القرآن البلاغية وما يتفرع عنها خصوصاً مع توظيف مستحدثات المسائل، والقدرات النوعية وتبادل الخبرات والمعلومات.

٢- القرآن هدى وداع إلى الله عز وجل، أي يستطيع القرآن وحده أن يهدي الناس للإسلام، وهذا من أسرار وحكمة بقائه محفوظاً من عند الله تعالى ، وقريباً من الناس جميعاً.

٣- يستطيع القرآن أن يهدي الناس إلى سبيل السلام وطرق الهداية، فالدعوة إلى الله عز وجل باقية حتماً وبوسائط سماوية

وملكوتية.

٤- تصديق العرب بالقرآن والنبوة شاهد على إعجاز القرآن، فوظائف الإعجاز أعم زماناً ومكاناً وأشخاصاً، فتحديه قائم في كل زمان ومكان ومتوجه إلى كل جماعة وفرد وإن تباينت الجهات ويتجلى بالخطاب القرآني المستديم لأهل الشك والريب ، قال تعالى ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ﴾^(١) وفيه نكتة عقائدية، وهي الحث على الوقوف عند كل سورة بالذات لمعرفة ما لها من الخصوصية ومعاني الإعجاز.

٥- تحدي القرآن ذو عدة شعب وله وجوه مختلفة وهو في كل الأحوال رحمة للناس، وموضوع للهداية وإستنباط العلوم وإتخاذ العبر فلم يتوجه التحدي إلى أعداء الدين وأهل الضلالة وحدهم بل توجه أيضاً إلى المؤمنين ولكن بصفة المؤازر والوزير الذي يشد العضد، والبرهان المبارك الذي يرسخ الإيمان وينقل الإنسان إلى درجات اليقين.

٦- لقد تغشى إعجاز القرآن أفراد الزمان المتباينة والحال والمكان وكل ينظر إلى المعجزة من خلال واقعة أو بلحاظ أيام التنزيل ومجتمع مكة والمدينة وهو أمر صحيح إلا أن الإعجاز أعم زماناً ومكاناً وموضوعاً.

٧- إن القرآن يمنع طرو الملل على قارئه، ويدفع السأم عن سامعه، وإن تكررت القراءة والسماع، وتلك خصوصية ينفرد بها القرآن.

٨- كثرة القراءة لا تزيده إلا حلاوة، وترديد كلماته وآياته يبعث في النفس الطمأنينة والرضا، قال النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم في الثناء على القرآن: لا يخلق على كثرة الترداد^(٢).

(١) سورة البقرة ٢٣ .

(٢) لسان العرب ٤٨٠/١٣ .

إستقلال كل سورة بإعجاز مخصوص لقوله تعالى في تحدي الكفار، وأهل الشك والريب، وكل سورة منه ذات علوم مستقلة وهي درجة عالية يرتقي فيها المسلم في سلم العلوم والمعرفة.

٩- إنه رزق كريم ملأ آفاق الأرض، ونفذ إلى الجوانح والأركان من الإنسان.

١٠- فضح القرآن للكفار والمنافقين، وسوء ما يضمرون للإسلام، وهذا الفضح رحمة للناس جميعاً لما يتضمنه من التحذير والتنبيه والإنذار، وهو باب للتوبة والإنابة.

١١- حفظه وتعاهده للديانات السماوية النصرانية واليهودية، ومنع التعدي عليهما، وإيجاد صيغ الاحترام بين الديانات والتوكيد على الإلتقاء بينها بسنن التوحيد وما لموضوعه من أهمية خاصة، ويعتبر هذا الحفظ في مفهومه فضحاً لمقولات الكفر والجحود.

١٢- تفسر آيات القرآن بعضها بعضاً فتجد الآية تفسر أكثر من آية، وتارة يكون التفسير بين الآيتين أو أن الآية تفسرها أكثر من آية.

١٣- مع أن الإعجاز موضوع منبسط على كل آيات القرآن فقد أفردت في التفسير عنواناً مستقلاً للإعجاز في كل آية وسميته "إعجاز الآية".

وفي البداية خشيت عدم الموفقية في الأمر ليس في أصل المطلب والموضوع فالكبرى الكلية والمقتضي موجود، ولكن بسبب المانع الشخصي وعدم التوصل بفكري القاصر إلى وجوه الإعجاز في الآية ولكن صار بفيض من الله علماً مستقلاً، وإشراقة من إشراقات هذا السفر المبارك قال تعالى ﴿وَقُلْ اَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾^(١)، وهو باب علمي تأسيسي ولا بد أنه سيتسع في الأجيال اللاحقة.

١٤- من إعجاز القرآن عدم إستيفاء هذه المجلدات الضخمة من كتب التفسير والدراسات لإعجاز القرآن وعلومه فهو المتناهي في عدد كلماته الذي يحيط باللامتناهي من العلوم .

ومن إعجازه الغيري أنك ترى كل من يطلع على شطر من كتب التفسير يشعر أن التفسير لم يستوف المطالب الملكوتية السامية في الآية القرآنية.

١٥- إرتفاع الوحي بموت النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكفاية القرآن كدستور ونظام حتى يوم القيامة، أي من إعجازه أهليته كمصدر ومنبع للأحكام على نحو مستقل ومستديم قال تعالى ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ الْكِتَابَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ (١).

١٦- تثبيت القرآن لنبوة الأنبياء السابقين ومعرفة معجزاتهم الحسية التي تأتي خطاباً لمن حضر أيام الوحي وإتفق وجوده مع أيام نبي زمانه وتوكيدها وإقرارها، وملاحظة حال هذه النبوات فلو لم يأت بها القرآن ويثبتها لم يحصل توثيق بعضها ومعرفتها، لعدم ذكر الكثير منها أو تفاصيلها في غير القرآن، أو أن الكتب التي ذكرت بها تعرضت للضياع أو التحريف، وذكرها في القرآن برزخ دون إنكارها أو تحريفها أو التفريط بها كثرة عقائدية.

١٧- ساهم ذكر قصص الأنبياء في القرآن في توثيق أخبار السنة النبوية لتحفظ وتتداولها الأجيال.

١٨- أراد القرآن من قصص الأنبياء موعظة وعبرة ومدرسة وفي ذلك شواهد كثيرة من الآيات القرآنية كقوله تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ فِي

قَصَصَهُمْ عِبْرَةً لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١﴾.

والدراسات والأبحاث في قصص الأنبياء قاصرة عن اللحاق بالمنهج الذي أراده الله عز وجل لها في المجتمع وتهذيب النفوس وإصلاح الحال، وهذا التقصير منا لا يعني ضياع هذه الفرص السماوية الكريمة بل التأجيل لها والتأخير لوجود الأصل ومضامين هذه القصص في القرآن تدعو العلماء للغوص في بحارها واستخراج كنوزها، وسيأتي من الأجيال اللاحقة من يقوم بتوسعة مدرسة قصص الأنبياء وإظهار ما لها من الوظائف العقائدية والأخلاقية والاجتماعية.

١٩- عدم وصول يد التحريف إلى القرآن، وإنفراده بالحفظ كاملاً من غير تغيير أو تبديل في ألفاظه وكلماته ومعانيه، وبذا ظل القرآن فوق الشبهات، وسليماً من الآفات، ومتمكناً للحصانة والمنعة الذاتية.

٢٠- إختلف العلماء في قدر المعجز من القرآن، والحق أن الإعجاز سور جامع ينبسط على كل آية من آيات القرآن فأن قلت أن التحدي فيه جاء بسورة منه أو بعشر سور كما في قوله تعالى ﴿فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ (٢) والجواب من وجوه:

الأول: الإعجاز أعم من التحدي.

الثاني: السورة مركبة من الآيات فينبسط الإعجاز على الآيات.

الثالث: كل آية من القرآن نازلة من عند الله عز وجل.

٢١- قيل: إن هذا القرآن لو لم يكن بلسان قريش لما اجتمع له

(١) سورة يوسف ١١١.

(٢) سورة البقرة ٢٣.

العرب البتة^(١)، ولا ملازمة بين تصديق العرب للقرآن ولغة قريش فمقومات وأسباب تصديقهم أعم وأوسع، ولم تنحصر بلغة القرآن بل بإعجاز القرآن، ووجوهه المختلفة، وبالآيات التي جاء بها النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وباللطف الإلهي الذي شمل كل مسلم بما فيهم غير العرب.

وهناك لهجات في القرآن غير لغة قريش كلغة بني سعد بن بكر الذين كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم مسترضعاً فيهم، ولغات جشم بن بكر، وثقيف، وقيل إن تلك أفصح لغات العرب، وعن الواسطي: "في القرآن من أربعين لغة عربية منها قريش وهذيل وكنانة وخثعم والخزرج وأشعر ونمير وقيس عيلان وجرهم واليمن وأزد شنوءة وكندة وتميم وحمير ومدين ولخم وسعد العشيرة وحضرموت وسدوس والعمالقة وأنمار وغسان ومذحج وخزاعة وغطفان وسبأ وعمان وبنو حنيفة وثعلب وطى وعامر بن صعصعة وأوس ومزينة وثقيف وجذام وبلي وعذرة وهوازن والنمر واليمامة^(٢).

٢٢- مواجهة القرآن لما قيل فيه من أسباب الريب وتصديده لمحاولات النيل منه، وصيغ محاربته وفضحها ﴿وَقَالُوا أَأُطِيعُوا أَوَّلِينَ﴾ أَكْتَبَهَا فِيهِ تَمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا^(٣).

٢٣- ذكر القرآن لأقاويل المبطلين الذين حاربوا القرآن كما في الآية أعلاه من سورة الفرقان.

وتوثيق أقوالهم من غير إحتراز من أضرار مثل هذه الأباطيل على الناس فهو لم يتجاهلها أو يتركها إعراضاً عنها بل ذكرها ليفضحها

(١) مصطفى الرافعي / إعجاز القرآن ٦٢.

(٢) مناهل العرفان ١/١٨١.

(٣) سورة الفرقان ٦.

ويحذر الناس منها، ويبين عدم ملائمتها للواقع.

لقد أرادوا بأقوالهم تلك إستدراج النفوس الضعيفة ومخاطبة النفوس الشهوانية وأهل الحسد والضلالة، فبينها القرآن للناس جميعاً ودعاهم إلى تحكيم عقولهم والإستدلال على نزوله من عند الله بالبرهان اللمي والإنني، أي بالإستدلال من العلة إلى المعلول، وبالعكس.

٢٤- كيفية الوحي وجه من وجوه الإعجاز القرآني ، فقد كان النبي يتفصد عرقاً عند نزول القرآن عليه في اليوم الشديد البرودة ثم يخبر عن الآية أو الآيات التي أنزلت عليه، وكان ذلك سبباً في إسلام الكثير من الناس.

٢٥- أسباب النزول من إعجاز القرآن لأنه حضور سماوي لقضية في واقعة وترى فيه حلاً وموعظة وجواباً وحكماً، كما أن أسباب النزول ليست متعلق الآية القرآنية الوحيد لأن حكم الآية مستمر ومتصل إلى يوم القيامة.

٢٦- التكامل في عقيدة وأحكام القرآن وإنعدام الثغرة أو التعارض بين موضوعات آياته وأحكامه وسنته.

٢٧- إخبار القرآن عن الحوادث قبل أوانها، ومن الإعجاز ذكر الواقعة في القرآن عند حدوثها وما فيه من العبر والدروس والموعظة.

٢٨- الآيات الكونية والعلمية شاهد على إعجاز القرآن.

٢٩- دعوة القرآن إلى العلم والبحث والتحقيق وتحت أول آية نزلت من القرآن على طلب العلم ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾^(١).

٣٠- عدم معارضة الإكتشافات العلمية الجديدة مع القرآن وعلومه بل إنها شاهد على إعجازه ومصدق لآياته.

٣١- ملائمة القرآن لكل زمان ولستحدثات المسائل، وما يطرأ من الابتلاء الشخصي والنوعي، فالقرآن سلاح للدخول في نظام العوالة والتصدي للمفاسد العرضية التي تأتي معها ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(١).

٣٢- أغني القرآن أم محتاج؟ الجواب إن كل موجود عدا الله محتاج له سبحانه، والإحتياج من صفات الممكن، وكلام الله عز وجل غير الله فهو كضياء الشمس بالنسبة لها وإن كان قياساً مع الفارق، نعم القرآن غير محتاج الى غيره تعالى في بقائه، ولكن هذا لا يلغي دور المسلمين في لزوم تعاهده وحفظه والعناية به من خلال التقيد بأحكامه قال تعالى ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾^(٢).

٣٣- لقد أبقى القرآن النبوة بأحكامها وسننها ودلالاتها، فحفظ للأنبياء ذكرهم وإكرامهم وعظيم منزلتهم عند الله عز وجل.

٣٤- إعجاز القرآن في العلوم التي تضمنها سواء ما تم إكتشافه منها أو لم يتم بعد وفي مختلف الأبواب، لذا ترى الباحثين من المسلمين يتصدون للعلوم الجديدة باستخراج الآية المناسبة لها من القرآن وهو أمر حسن، والأولى منه أن نستنبط من القرآن العلوم ونخبر عن إمكان الإكتشاف قبل حصوله، لتصبح الإكتشافات دليلاً على:

الأول: إخبار القرآن عن المغيبات.

الثاني: إحاطة علوم القرآن بالحوادث والوقائع، ليكون من الشواهد على علم الله عز وجل بكل شيء، قال تعالى ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ

(١) سورة الأنبياء ١٠٧.

(٢) سورة المدثر ٣١.

شَيْءٌ رَحْمَةً وَعِلْمًا»^(١).

الثالث: إستقراء العلوم من القرآن لتكون مدخلاً للإيمان لما لها من شواهد وأخبار في القرآن.

الرابع: إقامة الحجة على الكفار.

الخامس: آيات القرآن والنبوة مصاديق لتحدي وقهر وتبكيث الكفار ، وتوكيد عجزهم عن الإتيان بسورة منه ، قال تعالى ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾^(٢).

٣٥- ينفرد القرآن في بلاغته من جهات منها تأليف الحروف ونسق الألفاظ وعذوبتها.

٣٦- تعدد المعاني للآية القرآنية والمضامين القدسية والمواضيع لكل منها.

٣٧- للآية القرآنية ظهر وبطن وحد ومطلع كما ورد في الحديث^(٣)، مما يفتح الباب أمام الدراسات القرآنية على نحو التحلالي ومتشعب.

٣٨- في علم الأصول مباحث مستقلة لمدايل الألفاظ وظواهرها تسمى مباحث الألفاظ مما يتوصل به الى الحكم الشرعي بعلم تعبدي وهي الصغرى، اما الكبرى فهي الأمارات الظنية وتسمى مباحث الحجة ومنها حجية ظواهر الكتاب، والقرآن يحتوي على الكبرى والصغرى.

هل حجية ظواهر القرآن من الإعجاز الذاتي أم الغيري، الجواب إنها منهما معاً، ومن الإعجاز الجامع لهما بحسب اللحاظ والموضوع

(١) سورة غافر ٧.

(٢) سورة البقرة ٢٣.

(٣) انظر تفسير حقي ٢٠٢/١٦.

والحيثية، فبالنظر من جهة البلاغة ونظم الكلمات وسياق الآيات فهو من الإعجاز الذاتي، ومن جهة ما يترتب عليها من الأثر فهو من الإعجاز الغيري، ليشتركا في ملأ الأرض بأنوار الهداية.

٣٩- المعنى السياقي للآيات والروابط بين الكلمات ومعاني الآيات من بديع علوم القرآن وأسرار بلاغته وقد أسسنا مبحثاً في تفسير كل آية من هذا السفر إسمه في (سياق الآيات) لبيان صلة الآية بما سبقها وما يتعقبها من الآيات.

٤٠- يمكن استحداث علم جديد في الدراسات القرآنية وهو التفسير بالمفهوم أي المعنى المقابل للمنطوق وقد خصصنا عنواناً مستقلاً له في تفسير كل آية.

٤١- ما في القرآن من التعريض وصيغ الكناية والإشارة علم مستقل تتفرع عنه من أبواب من المعارف الإلهية ويفوق المعاني اللغوية والمقاصد الخاصة لها لأنها في القرآن مدرسة عقائدية واخلاقية وشاهد على الإعجاز وعنوان لبقاء مفاهيمه غضة طرية وباعث للشوق والميل الى قراءته وتدبر معانيه.

٤٢- بقاء القرآن كاملاً محفوظاً ومصدراً للأحكام والتشريعات ويمكن ان نطلق عليه الإعجاز التاريخي للقرآن وهذا وحده يستحق تأليف كتاب مستقل ويخصص لكل قرن ولكل بلاد فصل مستقل قال تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نُزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^(١).

٤٣- منزلة واثر القرآن في تثبيت الإسلام وانتصار المسلمين في الكتائب.

٤٤- شهادة القرآن على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم فهو معجزته الخالدة.

٤٥- معجزات الأنبياء الحسية إنقطعت بذاتها بإنقراض أعصارهم ومعاصريهم فلم يشهدها إلا من حضرها، ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة، وفيها تثبيت وتوكيد لمعجزات الأنبياء مثل سفينة نوح وناقة صالح.

٤٦- سمو آيات القرآن للعلوم وتفوقها على العلوم في كل زمان وليس في أيام التنزيل وحدها أي أن الإنسان وفي أي جيل يشعر بالوجدان أن علوم القرآن تفوق علوم عصره، ولا يمر زمان إلا وتظهر فيه آيات تدل على صدق القرآن وسماويته.

٤٧- تقسم المعجزة الى قسمين:

الأول - المعجزة الحسية: وهي التي تدرك بالحواس كعصا موسى وناقة صالح، وقالوا ان المعجزات الحسية جاءت لقللة بصائر أهل زمانها، والأقوى انه لإقامة الحجة عليهم ولأن المعجزة الباقية هي القرآن وليس المعجزات السابقة، فالمعجزات الحسية للأنبياء السابقين شاهد على إعجاز القرآن وإنفراده بالمعجزات العقلية.

الثاني - المعجزة العقلية: وهي التي يدركها الإنسان بعقله ويتوصل الى مضامينها وما فيها من التحدي والبرهان بالبصيرة لا بالبصر ليعلم ان هذه المعجزة من عند الله تعالى ويعجز عن اتيانها البشر مجتمعين ومتفرقين، لذا ترى باب الدخول الى الجنة مفتوحاً يتسع أو يضيق بحسب إطلاع الناس على علوم وأسرار القرآن وإمتثالهم لما فيه من الأحكام.

٤٨- إمتلاك القرآن للأهلية عن الدفاع عن نفسه وإثبات زيف الطعن الموجه إليه من قبل أهل الضلالة، ومن يتعمد التشويه، وهو يخاطب غير المسلمين بما يؤكد سماويته فمثلاً ظهر في العقود الماضية من السنين محاولات للمستشرقين وكتبوا عن القرآن.

٤٩- بين الإعجاز والوحي عموم وخصوص مطلق، فكل وحي هو

إعجاز، وليس كل إعجاز هو وحي، فمن الوحي ما هو ليس بقرآن وان كان أصل الوحي إعجازاً، لأنه خارق لقدرات البشر وكل آيات القرآن جاءت وحيّاً بواسطة جبرئيل عليه السلام من عند الله وهي حكمة وخير محض، قال تعالى ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾^(١).

٥٠- مخاطبة القرآن للعقول والنفوس كل حسب مداركه، وكل أمة بما يناسبها ويصلح حالها، وتجذ في القرآن قاعدة كلية وهي أن كل إنسان يجد حاجته، ومفتاح أموره في القرآن معلماً ومرشداً وهادياً.

٥١- ورود الجملة الخبرية بمعنى الإنشائية والأمر، سواء على نحو الوجوب أو الإستحباب وفق القرائن والآيات الأخرى.

٥٢- الإعجاز في خواتيم الآيات، وهذا علم جديد وكنز لم يكشف نقاب البحث والتحقيق عنه بعد، مثل قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٢)، ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(٣)، فهذه الخواتيم وان تكررت في بعض آيات القرآن الا ان لكل منها معاني ومضامين قدسية تختلف بحسب وقوعها في الآية، ولكل منها دلالات خاصة وفق السياق وتصلح لإستنباط القواعد وإستظهار السنن.

٥٣- خلو القرآن من التقسيم والتعدد والتشتت مذاهب وفرقاً، وبذا يكون مانعاً دون زيادة الفرقة وأسباب الخصومة، وتعدد الإنشطارات، ومن يسعى إلى الفرقة يجد القرآن معرضاً عنه، ومن يجاهد في سبيل الوحدة الإسلامية يجد القرآن إماماً وقائداً ومحرضاً

(١) سورة الأسراء ٣٩.

(٢) سورة الأنبياء ١٠٧.

(٣) سورة الأنبياء ١٠٧.

وعوناً له.

٥٤- ملائمة أحكام وآيات القرآن لكل زمان ومكان، وإتصال إعجازه مع كل ظاهرة غالبة، سواء كانت سياسية أو إجتماعية أو إقتصادية.

فقد تطفى على بلد أو أكثر حالة معينة تكون محط إهتمام الناس وتنال رضاهم وتستحوذ على توجهاتهم وتراجع أمامها الظواهر الأخرى ولكن القرآن يبقى ملاذاً ومرجعاً للناس عامة، وللمسلمين خاصة ويحافظ على منزلته عند الناس ولا تعارضه أو تزاحمه الظواهر والنظريات والفلسفة المستحدثة والأمور الإبتلائية.

مثلاً ينشغل العالم اليوم بالعمولة والثورة المعلوماتية ولا تشعر بتعارض بينها وبين القرآن إلا من خلال ما يطرأ عليها من التشويه والمفاسد العرضية، ويبقى القرآن حاجة في خضم الأحداث والتطورات السريعة وموضوعاً وحكماً لتنقيح العلوم.

٥٥- يولي القرآن عناية بالنفوس وخلجاتها، وتتجلى فيه نظرية الإسلام في الوسط الأخلاقي، فالشجاعة متوسطة قوة الغضب، وطرفاها التهور والجبن وهما مذمومان، والعفة تتوسط قوة الشهوة وطرفاها الشره والخمول، مع الثناء على أهل الإيمان والصلاح، قال تعالى ﴿وَمَنْ يُوقِ شَحْنَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(١).

٥٦- لقد أسس القرآن مدارس لا يستطيع علم النفس والمدارس الإجتماعية الحديثة ادراك فلسفتها الأمر الذي يلح على الباحثين بلزوم استظهار الكنوز والمعارف القرآنية في باب الإجتماع واصلاح النفوس وازالة الكدورات الظلمانية.

٥٧- حالة الوفاق بين المسلمين ومنع الحروب وحدوث

المعارك بين الفصائل والأمصار الإسلامية، وحدث بعضها انما يحصل بسبب ابتعاد احد الطرفين أو كليهما عن الإسلام واحكامه ، قال تعالى ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾^(١).

٥٨- فضح القرآن لمن يتظاهر بالتقيد باحكامه كذباً وادعاءً وكذا فضح وعدم تصديق الذي يتخذ الذرائع للتعدي على الآخرين وشن الحروب على جماعة المسلمين.

٥٩- تنمية ملكة التقوى في النفس وجعلها تخشى الله عز وجل وتتجنب معاصيه.

٦٠- خلق حالة من المراقبة الذاتية للنفس في الأفعال، وأنماط السلوك، وصيغ التفكير وعدم الإكتفاء باجتناح المحرمات بل يجعل القرآن عند اهله ملكة الإبتعاد عن مقدماتها، والنفرة من القبيح، والحذر من الشبهات.

٦١- إيجاد سجايا إيمانية ثابتة عند الفرد، وفي المجتمعات بحيث تستهجن الجماعة أي فعل مغاير للإيمان.

٦٢- تربية الأمة والأفراد وإعدادهم لحياة كريمة مرتكزة على الإيمان وأداء الفرائض ونبد السيئات.

٦٣- من النظريات التي تبحث في تفسير العلاقة بين اللفظ والمعنى وكيفية تبادل المعنى عند اطلاق اللفظ (نظرية التعهد)^(٢)، وحاصلها ان وضع اللفظ مرتكز على التباني النفسي الجامع للمتكلم والسامع في الإتيان بلفظ معين لإفادة معنى مخصوص، وكأنه تعهد عام تنشأ وترشح عنه العلاقة الوضعية بين اللفظ والمعنى، فدلالة اللفظ حسب هذه النظرية تكون بالإلتزام والتعهد باظهار لفظ

(١) سورة الأنفال ٤٦.

(٢) أنظر كتابنا معراج الأصول، تقارير بحثنا الخارج في علم الأصول .

مخصوص لإرادة معنى معين دون غيره من المعاني.
ومن إعجاز القرآن أنه يتخطى هذه النظرية وأمثالها لتعدد المعاني والمفاهيم للآية القرآنية، فلقد أراد الله عز وجل مفتاحاً للعلوم، ومعانيه لا تنحصر بالدلالة التصديقية بل تشمل الدلالة بالمفهوم ومعايير اللغة ومستحدثات المسائل وما يسمى بتداعي المعاني.

٦٤- إستغناء القرآن عن الآراء لذا وردت النصوص بالنهاي عن التفسير بالرأي (وعن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من فسر القرآن برأيه فليتبوء مقعده من النار^(١))، وعليه إجماع المسلمين، وهذا النهي في مفهومه يدل على اكتفاء القرآن بذاته في تفسير آياته أو الرجوع الى السنة الشريفة.

٦٥- يمكن تأسيس علم جديد في الإعجاز بتقسيمه بلحاظ الزمان:

الأول : إعجاز القرآن قبل نزوله.

الثاني : إعجاز القرآن أيام التنزيل والنبوة.

الثالث : إعجازه في أيام التابعين وتابعي التابعين.

الرابع : إعجازه في الأزمان اللاحقة.

الخامس : في زمن الثورة الصناعية.

السادس : للقرآن إعجاز متصل منبسط على كل الأزمنة.

السابع : إعجازه في أيام العولمة وتداخل الأمم.

الثامن : تأسيس القرآن لعلوم التاريخ.

التاسع : الإعجاز بالتبع المكاني والأمصار المختلفة.

٦٦- الآيات القرآنية تفسر بعضها بعضاً ويثبت بعضها البعض

الآخر.

٦٧- تنظيم القرآن للحياة المعاشية والاجتماعية، مثلاً تنظيمه

للوقت وبيانه لأحكام الشهور والسنين، ومنع النسيء والزيادة فيها، وقد ظلت آية النسيء حجة ووثيقة على قوة أثر وموضوعية القرآن في الوقائع والأحداث، قال تعالى ﴿عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾^(١).

ومن الآيات الإعجازية في النظام الملكتوتي أن كلاً من الحساب الشمسي والقمرى لا يصح إلا بلحاظ إثني عشر شهراً لكل منهما.

٦٨- منع القرآن الاختلاف والخصومة في المعاملات والنظم التشريعية فمثلاً تجد آيات الطلاق دقيقة في ضبطها للأحكام وكذا بالنسبة لأحكام النكاح وغيره.

٦٩- إيجاد القبول النفسى عند الناس لأحكام القرآن فلا تجد اعتراضاً أو تجراً على التأويل الصحيح.

٧٠- القرآن سماوى النشأة، عالمى الوظيفة، دائم الوجود فى النشأة الأولى.

٧١- إقتراحنا تخصيص يوم باسم "اليوم العالمى للقرآن" يكون مناسبة لإظهار إعجاز القرآن وبيان مدارسه^(٢).

(١) سورة التوبة ٣٦.

(١) بيان اليوم العالمى للقرآن:

الحمد لله الذى جعل آيات القرآن مصدراً دائماً للضيء المحض ومنبعاً للمعارف المستفيضة، وخزائن علمية لا تنفد كنوزها ومأدبة سماوية ينهل منها الناس على اختلاف مشاربهم ومذاهبهم ليبقى القرآن وما فيه من الإشراقات الغيبية حاجة مستديمة وملازمة لأهل الأرض خصوصاً وأن الإنسان ممكن وكل ممكن محتاج.

وفى أيام العولة وتقارب الأمم وتداخل الأفكار طوعاً وقهراً اقترح تخصيص يوم باسم "اليوم العالمى للقرآن" تقدم فيه النشاطات والدراسات الخاصة بالقرآن وتقام فيه المعارض والفعاليات المناسبة، مع السعى لتثبيت

٧٢- يذكر القرآن بالآخرة ويحث على الاستعداد لها، وكان علي عليه السلام إذا مرّ بآية فيها ذكر الجنة فرح واستبشر، وإذا مرّ بآية فيها ذكر النار بكى وحزن.

٧٣- سميت الآية القرآنية آية لعجز البشر عن الإتيان بمثلها، ولما فيها من الإعجاز، أي ان الإصطلاح القرآني والإرادة التكوينية أعم

هذا اليوم في المنظمات والمؤسسات العالمية والوطنية مثلما جرى تخصيص ايام للمواضيع المختلفة، بل بالأولوية لما في القرآن من أسباب السمو والرفعة، وصفات الكمال الإنساني، وإعجاز ذاتي وغيري وجامع لهما، وإفاضات كلية مشككة تترشح على الإنسانية جمعاء وعلى المسلمين بصورة خاصة، والأولى أن يطلق هذا العنوان التشريفي على اليوم السابع عشر من شهر رمضان المبارك، وقيل فيه اول نزول الوحي في السنة الحادية والأربعين من عمر الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، وفيه وقعت معركة بدر ونزل قوله تعالى ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ﴾.

و(الفرقان) من اشهر اسماء القرآن بعد اسم القرآن، ولعلهما مرجع جميع اسمائه كما ترجع صفات الله عز وجل مع كثرتها الى معاني الجلال والجمال، وفي المعنى الأعم لالتقاء الجمعين ومفهومه اشارة الى تقارب الحضارات في هذا الزمان، وظواهر مستقبلية غيبية، ومقدمة لصيغ الحوار والتداخل والتزاحم بين الأديان والأمم، ومواجهة نوعية للمفاسد العرضية وأسباب التحدي لعالم الفضائيات والتكنولوجيا، واستثمار مبارك لها ومساهمة في تهذيب النفوس، واکرام وتعاهد للقرآن.

وربما كان ورود ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ في الآية الكريمة اعلاه دعوة لتخصيص هذا اليوم وخطاباً انحلالياً لكل المؤمنين، لذا اعرض بين أيديكم هذا الاقتراح ليكون يوم القرآن عيداً يتجلى فيه الإرتقاء إلى عالم الملكوت، والسعي النوعي لبلوغ أشرف المقامات. ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾.

وأكبر من المعنى اللغوي للفظ.

٧٤- علوم القرآن أعم وأوسع من علوم اللغة وقواعد النحو وأسس البلاغة فمثلاً علم البديع يبحث في محسنات الكلام اللفظية والمعنوية في العرض وليس ذات الكلام، والإعجاز القرآني يشمل الذات والعرض والمضمون.

في حديث حماد بن زيد عن عكرمة قال: جاء الوليد بن المغيرة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال له إقرأ علي فقرأ عليه ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(١) فقال له أعد فأعاد، فقال: والله إن له لحلاوة، وأن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمعذك، وما يقول هذا بشر^(٢).

وبذا يظهر الإقرار باعجاز القرآن ولكن الحسد والعناد والجحود وحب الرياسة وإغواء الشيطان وأعوانه أمور حالت دون ظهور هذا الإقرار في الأفعال كمبرز خارجي مستقر.

وذهب المفسرون إلى أن إقرار الوليد يدل على الإعجاز في فصاحة القرآن ولكنه أعم وأكثر سعة وشمولاً فقد أشار بوصفه إلى علوم القرآن التوليدية وما ينتظره وما يترشح عنه في المستقبل.

وحينما قالوا: سحر، شعر، أساطير الأولين، ذهب المفسرون وفي باب إعجاز القرآن إلى أن هذا من التحير والإنقطاع، وهو حرب وعناد لأن تحد القرآن كان كبيراً أحاط بالكفار وأسقط ما في أيديهم فلجأوا إلى الافتراء الساذج.

٧٥- لم يكن العرب كلهم مشركين فقد كان فيهم النصارى وكان

(١) سورة النحل ٩٠.

(٢) انظر مجمع البيان ١٧٠/٦.

بينهم اليهود، وربما تهود بعض الأفراد والجماعات من العرب لأن أمهاتهم من اليهود كما في كعب بن الأشرف.

والقرآن نزل بلغة العرب فلا بد أن يحمل مع الفصاحة والبلاغة الإعجاز في العلوم والأديان والشرائع وهذا ظاهر بالدراسات المقارنة وبتأثيره على الناس عموماً.

٧٦- تصدى القرآن للتحريف في الكتب السابقة ودعا الى حفظها وصيانتها، ونبه الى الأضرار الناجمة عن التحريف وهذه الدعوة من وجوه:

الأول: الإخبار عما طرأ على الكتب السابقة من التحريف، قال تعالى ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾^(١).

الثاني: إخفاء البشارات الواردة في نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم في الكتب السماوية السابقة ، وفي التنزيل ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾^(٢).

الثالث: تصديق القرآن للتوراة والإنجيل أي لما ورد فيهما من أخبار الوحي.

٧٧- قال جماعة من العلماء أن التحدي وقع بالكلام القديم الذي هو صفة الذات وأن العرب كلفت من ذلك ما لا يطاق، وبه وقع عجزها، ولكن التحدي وقع بكلام الله تعالى وهو المتكون من الألفاظ التي تصدر عن البارئ عز وجل وتدل عليه، والكلام غير الذات.

٧٨- ذهب جماعة من المعتزلة منهم النظام إلى القول بأن إعجاز القرآن بالصرفة أي أن الله عز وجل صرف العرب عن معارضته

(١) سورة النساء ٤٦.

(٢) سورة البقرة ٧٦.

وسلب عقولهم عن التفكير بها، وكان مقدوراً لهم، ولكن الله جعل المعوقات والموانع الخارجية دون ذلك وبه قال السيد المرتضى.
ولكن القرآن ينطق بعجزهم مع بقاء قدرتهم ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ
الْإِنْسُ وَالْجِنُّ﴾^(١).

والإجماع منعقد على إضافة الإعجاز إلى القرآن بذاته ومجرداً،
وأشكل الزركشي عليهم بقوله (فيلزم من القول بالصرقة زوال
الإعجاز بزوال التحدي وخلو القرآن من الإعجاز وفي ذلك خرق
لإجماع الأمة)^(٢).

ولكن النوبة لا تصل الى زوال التحدي وخرق الإجماع بل هو
رأي في وجه ونوع الإعجاز مع التسليم والإقرار به.
وقال القاضي ابو بكر: وما يبطل القول بالصرقة انه لو كانت
المعارضة ممكنة وانما منع منها بالصرقة لم يكن الكلام معجزاً.
وهو استدلال لطيف ولكن الإعجاز باق حتى مع الصرقة ليصبح
إعجازاً بالواسطة، باضافة فضل الله تعالى في تحصين كلامه ومنع الناس
من التفكير بالمعارضة.

لقد جعل الله الناس يدركون انهم لو اقدموا على المعارضة فانهم
لا يحصدون الا الخزي والفشل السريع، كما أن القرآن ليس من السهل
الممتنع بل انه معجز في ذاته من غير أن تصل النوبة إلى الواسطة .
ويمكن الرد على القول بالصرقة أن الله عز وجل تحداهم بالإتيان
بسورة مثله وبعشر سور من مثله قال تعالى ﴿فَاتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا

(١) سورة الإسراء ٨٨.

(٢) الزركشي / البرهان في تفسير القرآن ٩٤/٢.

شَهِدَاءُكُمْ ﴿١﴾ قَالَ تَعَالَى ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ ﴿٢﴾.

٧٩- يبين القرآن أن الدين وأحكام الشريعة حاجة إنسانية، ودواء للأدران والعلل والأمراض، وهو مصدر الكمالات الإنسانية فمن إعجازه أن الناس يشعرون بالحاجة إليه، وعدم الإستغناء عنه إماماً وحاكماً ودليلاً ومنبعاً للعلوم.

٨٠- من إعجاز القرآن أن سورة متباعدة في الطول والقصر، وكذا آياته فمثلاً تجد آية الدين^(٤) تبلغ نحو خمسة أضعاف سورة الكوثر، والتحدي جاء بصيغة السورة.

٨١- تكرار الآية له دلالات إضافية وإعتبارية، وأخرى تتعلق بالمعنى السياقي للآية.

٨٢- كل آية بمنزلة الرسول والملك النازل والإمام المصاحب وهي عقل إضافي للإنسان، ونفس متممة للنفس اللوامة، وواقية من الأمانة بالسوء.

٨٣- إنها طريق إلى المعارف الحققة الدائمة، وكل آية سلاح مسخر لكل واقعة.

٨٤- إعجاز القرآن نوع تحد، ووعد بإظهار نظريات العلوم المختلفة.

٨٥- ترى الآية أولها في موضوع، وكلاً من وسطها وذيلها في موضوع أو شيء آخر مما يدل على تعدد معاني ومفاهيم الآية.

٨٦- من إعجاز القرآن فضله على العربية سواء في حفظها أو تنقيح علومها.

٨٧- موضوعية وشأن البلاغة في القرآن لم يحل دون أهمية

(١) سورة البقرة ٢٣.

(٢) سورة الإسراء ٨٨.

(٣) سورة البقرة الآية ٢٨٢ وجاء جزء كامل من هذا السفر في تفسيرها.

وموضوعية الوجوه الإعجازية الأخرى.

القرآن هو الخرز المملوكوتي الدائم للشريعة، والمانع من حدوث الزيادة وإدخال الحديث الموضوع فيها، وهو برزخ دون الكذابة ومنعهم من الإفتراء على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، أخرج عبد الرزاق وابن جرير عن ابن مسعود قال : لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا ، لتكذبوا بحق وتصدقوا بباطل . فإن كنتم سائلهم لا محالة فانظروا ما واطأ كتاب الله فخذوه ، وما خالف كتاب الله فدعوه^(١) .

٨٨- قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: "قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ان على كل حق حقيقة وعلى كل صواب نور فما وافق كتاب الله فخذوه وما خالف كتاب الله فدعوه"^(٢).

٨٩- ربط الماضي بالحاضر والمستقبل وإستقراء الدروس والعبر التاريخية.

٩٠- عالمية النظرة القرآنية وإستيعاب مفاهيم القرآن للحضارات، فتجد العالمية في آياته متعلقة بالماضي كما في قوله تعالى ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ﴾^(٣).

أما في المستقبل فالقرآن ييشر بسلطة أهل الإيمان بالعدل، والإنصاف ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا

(١) الدر المنثور ٤٣/٨ .

(٢) بحار الأنوار ٢٢٧/٢ .

(٣) سورة البقرة ٢١٣ .

اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قُلُوبِهِمْ ﴿١﴾.

ليبين التداخل بين الماضي والمستقبل وإمكان حدوث الوعد واقعاً وعدم استحالة وكل آية منه مدرسة.

٩١- إخبار القرآن عن قدرة الإنسان على العلوم على نحو الإطلاق، قال تعالى ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ (٢).

٩٢- إظهار أسرار البلاغة وتثبيت قواعدها وجعلها مادة ووسيلة لإظهار إعجاز القرآن وإبراز علومه والكشف عن أسرارها، فمن إعجازه أمور:

الأول: تنظيم القواعد العامة للغة وعلومها.

الثاني: معرفة إعجاز القرآن نفسه من خلال الدراسات المقارنة.

الثالث: تثبيت وتهذيب قواعد اللغة.

الرابع: ترشح علوم مستحدثة من لغة القرآن.

٩٣- نشوء نظريات النحو والبلاغة التي أصبحت بالقرآن علماً مستقلاً له أصوله ومقاييسه، بعد ان كانت عبارة عن ضوابط متعارفة تبرز في أشعار العرب الجاهليين.

٩٤- جعل القرآن الحاجة والفاقة إلى علوم وقواعد النحو والبلاغة متصلة ودائمة كنوع طريقة للغوص المبارك في بحار القرآن وإستخراج الدر واللالء العلمية.

٩٥- إثارة النفس ودفعها إلى الغايات النبيلة وتهذيب الوجدان.

٩٦- تنقيح الأقوال والألفاظ وإصلاح الألسن، ومنع الفاحش من

القول، قال تعالى ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ (٣).

(٢) سورة النور ٥٥.

(١) سورة البقرة ٣١.

(٣) سورة الأسراء ٩.

- ٩٧- إتصاف اللفظ القرآني بطلاوة وعدوبة يدركها كل إنسان.
- ٩٨- تختلف بلاغة القرآن عن غيرها في الموضوع والرتبة والتحدي وهي بلاغة في حقيقة وصدق وليس في خيال وكذب، فالقرآن ليس بلاغة جميلة فقط او دلالة محدودة على المعنى، بل ان لغته آلة لتعدد المعاني وجزالتها وبيانها ليتذوق الناس في كل زمان الكلام الفصيح والألفاظ العذبة الجيدة التي جاء بها القرآن بأرقى صيغ النطق.
- ٩٩- تناثرت علوم البلاغة في الشعر والمثل، والحكمة والنثر، ومنهم من قال إن التحدي وقع بالكلام القديم الذي هو صفة الذات وان العرب كلفت أكثر مما تطيق فعجزت عن إدراكه، والأقوى أن التحدي وقع بالكلام الذي يدل على وجوب عبادة الله إلهاً وخالقاً ورباً خصوصاً وأن الإعجاز لا يتم بالمجهول الغائب عن الحس والوجدان.

فالإعجاز تم بذات القرآن الموجود بين ظهرانينا قال تعالى ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾^(١).

١٠٠- إدعى قوم أن ابن المقفع عارض القرآن ولم تثبت هذه الدعوى، والأصل في عمل المسلم الصحة، وله الدرة واليتيمة كتابان أحدهما يتضمن حكماً منقولة عن الحكماء وخالية من بديع اللفظ والمعنى، والآخر شيء في الديانات منسوخ من كتاب يزرجمهر في الحكمة.

١٠١- من وجوه إعجاز القرآن ما فيه من المغيبات وفي كل آية بالدلالة التضمنية أو مفهوم المخالفة والمنطوق والمفهوم وفيه دلالة على صدق تنزيله من عند الله تعالى والغيب على وجوه:

الأول: توثيق قصص ما تقدم في الزمن الماضي والأمم السابقة، ولما

ذكر الله عز وجل في القرآن قصة نوح ونجاته ومن معه، قال سبحانه ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾^(١).

الثاني: إخبار القرآن عن الوقائع في الزمن المستقبل، وبشارات إنتصار الإسلام، وعلو كلمة التوحيد.

الثالث: مجيء آيات القرآن بتوكيد عالم الآخرة، وما فيه من الثواب والعقاب، وقد مدح الله عز وجل المسلمين بقوله ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾^(٢).

١٠٢- لقد أحاط الله بكل شيء علماً، ومنه علمه بتركيب كلمات القرآن وكونه جامعاً لكل العلوم والوقائع.

١٠٣- إنتهى السحر في زمن موسى إلى غايته، وكذا الطب في زمن عيسى، والفصاحة في زمن محمد، ومعجزة عيسى في الطب أبرع ما تكون في زمانها، وبما أن زمان محمد صلى الله عليه وآله وسلم لا ينحصر بأيام حياته وبعثته بل هو باق ببقاء الإسلام كديانة ناسخة وإلى يوم القيامة فلا بد وأن إعجازه في كل هذه العلوم.

١٠٤- نضارة بلاغة القرآن وعدم تأثرها بشيوع اللهجات العامية الدارجة والمستوردة، فكل إنسان يدرك خفايا التنزيل التي تدل عليها بلاغته.

وهو من عمومات حفظ الله عز وجل للقرآن، وعدم طرو التحريف عليه قال تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^(٣).

فمن وجوه حفظ الله للقرآن بقاءه على ذات اللغة، وصيغ الفصاحة

(١) سورة النحل ٨٩.

(٢) سورة البقرة ٤.

(٣) سورة الحجر ٩.

والبلاغة، وفيه حث للناس للإرتقاء إلى منازل العلم.

١٠٥- من إعجاز القرآن ما ظهر، ومنه ما دق وغمض، ومنه ما ظل معلقاً غير منجز لأن أوانه لم يحن بعد، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾^(١).

١٠٦- لم يتحد القرآن الناس عامة والعرب خاصة بالكلام القديم، بل بهذا النظم والحروف كلها ومتابعتها وإطرادها.

١٠٧- من ضروب ودرجات في البلاغة منها:

الأول : البليغ الرصين الجزل.

الثاني : الفصيح القريب السهل.

الثالث : الجائز المطلق المرسل.

والقرآن جاء بأرقى مصاديق الوجوه الثلاثة.

١٠٦- في القرآن توحيد الله وتنزيهه في صفاته بأفصح أسلوب وأبين معانيات.

١٠٧- إنه دعوة إلى طاعة الله، وفيه بيان لسبل عبادته من تحليل وتحريم وحظر وإباحة.

١٠٨- فيه دعوة وإرشاد إلى الأخلاق الحميدة بأحسن أسلوب.

وقد جعل الله عز وجل النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم أسوة للناس جميعاً في حسن السمات والصفات الحميدة قال تعالى ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(٢)، وعن عائشة : أن سعيد بن هشام سألها عن خلق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالت : كان خلقه القرآن^(٣).

١٠٩- لما عرف المشركون بديع نظم القرآن قالوا: شعر، ولما

(١) سورة هود ٤٩.

(٢) سورة ن ٤.

(٣) الكشف ١١٥/٧ .

أحسوا بالعجز عن الإتيان بمثله وعن فهمه قالوا إنه سحر، حسداً وبغياً لما رأوا سلطانه في النفوس ونفاذه إلى شغاف القلوب، لقد جاءهم الكتاب وما فيه من العلوم فتحيروا وجهلوا حقيقته، فمنهم من آمن، ومنهم من كفر وجحد.

١١٠- بعض المعاني مترادفة ومتقاربة المعنى كالعلم والمعرفة، والشح والبخل، وعند أهل الاختصاص بينها عموم وخصوص من وجه، فلها وجوه للإلتقاء، وأخرى للإفتراق وتتضح السعة والتداخل والتباين في القرآن بعدم إمكان الإتيان بالرديف بديلاً.

١١١- صنف أحد العلماء كتاباً فيمن مات بسماع آية من القرآن، مما يدل على إقرار النفوس بأنه كلام يفوق أوهام البشر.

١١٢- لما سمع جبير بن مطعم قراءة النبي صلى الله عليه وآله وسلم للطور حتى إنتهى إلى قوله تعالى ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾^(١) قال: خشيت ان يدركني العذاب، وفي لفظ كاد قلبي يطير فاسلم. أي أن القرآن داع إلى الله وسلاح للهداية والرشاد.

١١٣- جمع القرآن بين صفتي الجزالة والعذوبة مع أنهما كالمضادين، فالجزالة التي لا توجد الا بما يشوبها من القوة وبعض الوعورة، والعذوبة ما يضادها من السلاسة والسهولة.

١١٤- كون القرآن آخر الكتب يعني غناه عن غيره، فالكتب السابقة إحتاجت في تثبيتها وتوثيقها التفصيل والبيان عما فيها.

نعم جاءت الكتب السابقة بالبشارة به، وعندما قام جماعة من أهل الكتاب بتحريف البشارات بالتنزيل تجلت معاني الإعجاز الذاتي والغيري للقرآن.

١١٥- قال القاضي أبو بكر في إعجاز القرآن ذهب عامة أصحابنا

وهو قول أبي الحسن الأشعري في كتبه أن أقل ما يعجز عنه من القرآن السورة قصيرة كانت أو طويلة أو ما كان بقدرها^(١)، أي أن الآية بقدر سورة الكوثر تكون معجزة.

وهذا القول صحيح إلا أن إعجاز القرآن يشمل كل كلمة في القرآن لما فيها من اعجاز بالذات وبالعرض وبالسياق والمعنى الإصطلاحي، كما أن إعجاز القرآن علم مستقل وفيض يترشح على كلماته وحروفه.

وقال بعضهم أن كل سورة برأسها معجزة ، وهو حق .

١١٦- الإعجاز أعم من أن ينحصر بزمان دون زمان بل هو متجدد موضوعاً وحكماً.

١١٧- من إعجاز القرآن تصديه لنعته بأنه شعر وإبطاله لهذا القول قال تعالى ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾^(٢)، فلو كان شعراً لبادروا إلى معارضته.

وأقل الشعر بيتان وإليه ذهب أكثر أهل الصناعة، وقالوا: ما كان على وزن بيتين، ولكن يختلف وزنهما وقافيتهما فليس بشعر، ونفي صفة الشعر عن القرآن يعني في دلالاته الإلزامية أنه ليس من صنع البشر وتأليفهم.

١١٨- تقدم علم التفسير والتأويل على الصناعة النحوية لأنه أوسع وأعم منها مما يستلزم عدم حصر مفاهيم القرآن والدلالة النحوية للكلمة مثلاً ﴿سَلِّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمَا آتَيْنَاهُمُ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ﴾^(٣).
(كم) هنا خبرية، ولكنها تصلح أن تكون إستفهامية.

(١) البرهان في علوم القرآن ١٠٨/٢ .

(١) سورة يس ٦٩.

(١) سورة البقرة ٢١١.

١١٩- من إعجاز القرآن تشریفه للأمة التي نزل عليها، وهم عموم المسلمين في أنحاء الأرض بإعتبار أنه معجزة عقلية، ومعجزات الأنبياء السابقين معجزات حسية، وقيل أن معجزات بني إسرائيل كانت حسية لقلة بصيرتهم، ولكنه للغالب في زمانهم، وقد ورد قوله تعالى في بني إسرائيل ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^(١)، فلقد أراد الله عز وجل لآيات القرآن الخلود.

١٢٠- الأولى للعلماء عدم تحديد مفاهيم إعجاز القرآن بل هو علم مفتوح إلى يوم القيامة، والذي نجهله منه أكثر من الذي نعلمه بكثير بل من إعجازه أن عقول البشر لا ترقى إلى إدراك معشار إعجازه كموضوع وحكم ومصاديق، ونعرف أن من إعجازه الفصاحة وهو علم قائم بذاته ، وفصاحة القرآن مدرسة لإستنباط المعارف. ومن إعجازه إنشاق العلوم منه لتلتقي مع مفاهيمه من غير تعارض بينها مع تحديه لها في كل زمان، وإعجازه علم توليدي إنشطاري يتجدد بالذات وبالعرض.

١٢١- سلامة القرآن من التحريف وعجز أعدائه عن النفاذ إلى مضمونه وكلماته وآياته، وإمتناعه عن النقص أو الزيادة والتبديل والتغيير، ومن الآيات التي تدل على حفظ القرآن قوله تعالى ﴿إِن رَّبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ﴾^(٢).

١٢٢- صيانة علوم تفسير وتأويل القرآن، وخلوها من الخلل والإضافة والتحريف والتشويه.

١٢٣- كيفية نزول الوحي وما كان يصيب النبي صلى الله عليه وآله

(١) سورة البقرة ٤٧.

(٢) سورة هود ٥٧.

وسلم أثناءه آية اعجازية، وكانت سبباً لإسلام أناس كثيرين، لما فيه من الآيات.

١٢٤- في القرآن بيان للحوادث قبل وقوعها.

١٢٥- حث القرآن على العلم والتحصيل بذكر الآيات الكونية والعلمية دليل على إعجاز القرآن وإشارة إلى صدق نزوله من عند الله.

١٢٦- تجدد إعجاز القرآن في كل زمان فهو الذي يتحدى النظريات الجديدة في الميادين المختلفة مع حضوره إماماً وفيصلاً في حال الشدة والرخاء والعلوم والدراسات والمشاريع.

١٢٧- حاجة الناس جميعاً لكي ينهلوا منه وعدم حاجته للناس.

١٢٨- علوم الحكم والقضاء المناسبة لكل الأزمنة كما في أحكام القصاص والمواريث وغيرها، قال تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ (١).

١٢٩- خطابات القرآن آية إعجازية بالإضافة إلى ما فيها من تقسيم الناس تقسيماً إستراتيجياً بصيغة "يا أيها الناس" الشاملة للجميع من غير لحاظ للملة والجنس، و"يا أيها الذين آمنوا" التي تخص المسلمين والمسلمات على نحو العموم.

١٣٠- خلود القرآن مما جعله شاهداً على الزمان والممالك وتاريخ الأمم.

١٣١- إقتباس النظريات الفكرية والاجتماعية والسياسية من قبسات أنوار القرآن.

١٣٢- مدرسة قصص الأنبياء في القرآن وما فيها من العبرة والموعظة وقد جاءت سورة يوسف بكاملها في قصة نبي الله يوسف قال تعالى

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾^(١)،
وفيه شاهد على أن ما يأتي في القرآن وحي وتنزيل، وجزء من القرآن
تصح قراءته في الصلاة، وفيه عبرة وموعظة، وهو مناسبة للهداية
والرشاد.

١٣٣- التكامل في أحكام القرآن وما جاء به من العقائد والمبادئ.
١٣٤- الآيات الكونية الثابتة والمستجدة دليل على إعجاز القرآن،
وإشارة وحث على العلم والتوجه العلمي.

١٣٥- الرحمة العامة المتجددة التي جاء بها القرآن للناس جميعاً
وبعضهم ينهل منها بصفة الرحيم، وهم أهل الإيمان.
١٣٦- لقد حفظ القرآن النبوة وتعاهد أحكامها وسننها وأكد صدق
الأنبياء السابقين.

١٣٧- مع ما كان يلاقيه النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم
والمسلمون من الأذى والجحود من أهل الكتاب فإن القرآن جاء بتوثيق
التوراة والإنجيل توثيقاً سماوياً.

١٣٨- لقد واجه القرآن حرباً عرضية بلجوء المشركين إلى أهل
الكتاب للسؤال عن نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وصدق نزول
القرآن وآياته ، وقام بعض كبراء قريش بالرد سلباً ونفيّاً، وإستطاع
القرآن أن يؤكد بذاته وإعجازه سماويته وأن يقاوم الإفتراء ومحاولات
عدم تصديقه.

١٣٩- مخاطبة القرآن للعقول ولكل أمة من الناس.
١٤٠- في القرآن تهذيب للنفوس وإصلاح للمجتمعات وطرده
للكدورات الظلمانية.

١٤١- في قوله تعالى ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾^(١)
ورد ان الحكمة هي النبوة وان الموعظة الحسنة هو القرآن، وآية القرآن
باقية الى يوم القيامة.

١٤٢- إعجاز القرآن علم تلتقي به كل العلوم ويتصل بها وترشح
إفاداته عليها جميعاً من غير أن ينقص من خزائنه شيء.

١٤٣- رد جمع من العلماء مقالة بعض المعتزلة بأن فصاحة القرآن
غير معجزة أو أن إعجازه ليس في فصاحته، فبسطوا القول في فنون
فصاحته ونظمه ووجه تأليف الكلام فيه فكان هذا الرد ثروة فكرية
وعقائدية إلا أنه لا يدل على حصر إعجازه بفصاحته وبلاغته.

١٤٤- من إعجاز القرآن الحروف المقطعة وتعدد وجوه الدلالة فيها
وبقاء البحث والاستنباط والاستنتاج في علومها متصلاً، وتتجلى فيه
بين الحين والآخر علوم جديدة، ومنها ما يتعلق بالإرتقاء العلمي
المعاصر.

١٤٥- إجراء دراسة مقارنة بين القرآن والكتب السماوية السابقة
تظهر ما فيه من الإعجاز والمعارف الإلهية وما ينفرد به من العلوم
والأسرار والخزائن.

١٤٦- الإعجاز في خواتم الآيات فكل واحدة منها قاعدة كلية
وحكم تتفرع عنه عدة أبواب ومسائل متشعبة.

١٤٧- خلو القرآن من الطائفية والمذاهب، وبهذا يكون القرآن حرزاً
وواقية لوحدة المسلمين، ويمنع من تطور التقسيم المذهبي وتحوله إلى
حقيقة عقائدية.

وجاءت آيات القرآن بحث المسلمين على الإتحاد ، وهو أمر يفيد
التمسك بالقرآن، وتضمنت مدحهم والثناء عليهم، قال تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ

أُمَّةٌ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴿١﴾.

١٤٨- ملائمة القرآن لعصر العولمة وتداخل الحضارات والتقارب الفكري الحاصل فيه نوع إعجاز، ومقاومة وصمود وتحد، وتوكيد للبقاء فكيف وأنه يظهر للأمم والشعوب في هذا الزمان بأبهى حلة علمية.

١٤٩- إهتمام القرآن بالتقوى ورقابة النفس والإحتراز من المفسد العرضية.

١٥٠- من الإعجاز إن القرآن مناسب لكل أمة وجيل وزمان، وهو حي غض طري.

١٥١- كان العرب يسمون السحر العضة أي البهت، مما يعني أنهم على درجة من الارتقاء في التفكير والتحليل ومعرفة الأشياء بحقائقها، بينما جاء موسى عليه السلام في أيام أفتن الناس فيها بالسحر والسحرة. ومن إعجاز القرآن تأثيره على العرب وغيرهم ، وإنقيادهم أيام التنزيل وما بعدها لآياته، وما فيه من الأحكام.

١٥٢- معاني القرآن ومضامينه متجددة وتوليدية ولا تقف عند حد أو منتهى معلوم.

١٥٣- لقد قضى القرآن على العادات المذمومة وما يترتب عليه أثر سلبي وضرر نوعي وجاء بالقيم الحميدة والسنن الثابتة ، فمثلاً ورد القرآن بالنهي عن النسيء والزيادة في حساب الشهور قال تعالى ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ (٢).

فانتهى النسيء واقعاً، ولم يبق له إلا الذكر والتوثيق في القرآن

(١) سورة العلق ٥.

(٢) سورة التوبة ٣٧.

الذي يعني الإحتراز منه والحيلولة دون تجددّه خصوصاً وإن تجدد القول به أكثر خطورة من السابق لأنه يأتي بصورة أعم وبإدعاء وتعليل، فجاءت الآية إحترازاً وتوضيحاً وزجراً عن النسيء وشبهه، ودعوة لتعاهد حساب الشهور وفق أحكام الشريعة.

١٥٤- القرآن أفضل سلاح لمنع الاختلاف في الحكم والفرقة والعناد وإصرار كل فريق على ما يذهبون إليه وإستمرارهم في الذب عنه، لذا ترى النظم التشريعية الإسلامية متماسكة، فمثلاً تأتي آيات معدودات لتثبت سنن الطلاق إلى يوم القيامة ، وتمنع من ظلم المرأة والتعدي على حقوقها.

١٥٥- لقد أخبر القرآن بأن العبادة هي علة خلق الإنسان، لذا احتلت آيات الأحكام الأولوية في القرآن ودلالته، قال تعالى ﴿مَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(١).

١٥٦- مناسبة آياته وأحكامه وموضوعاته لسنن العقلاء ونهجهم.

١٥٧- القرآن شافع ومشفع إذ أنه يشفع لقارئه وأهله.

١٥٨- سميت الآية القرآنية آية لعجز البشر عن الإتيان بمثله، ولما فيها من الإعجاز، أي أن الإصطلاح القرآني أعم وأكبر من المعنى اللغوي للفظ.

١٥٩- دراسة البديع الذي يبحث في محسنات الكلام اللفظية والمعنوية بالعرض وليس بالذات، والإعجاز القرآني يشمل الذات والعرض، وتوظيف علم البيان والمعاني في التفسير يظهر لك أسراراً ومنافع من القرآن.

١٦٠- عدم التعارض بين القرآن وبين العلوم مطلقاً والإكتشافات الحديثة خاصة.

١٦١- سكون وخفوت الأصوات التي تعترض على أحكام القرآن أحياناً أو تدّعي وجود تعارض فيه، لأن القرآن يوضحها ويثبت بطلانها.

١٦٢- من إعجاز القرآن الذاتي بلاغته وما فيه من علوم اللغة والمفاهيم وقصص الأنبياء وأنه كلام الله، ومن إعجازه الغيري إسلام الكثيرين بسماع آياته وما أحدثه في العقائد والإقتصاد والتركيبات الاجتماعية والمستوى الفكري العالمي وتثبيته لنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتوكيده لصدق نبوة الأنبياء السابقين وإصلاحه للنفوس وحفظه وتعاهده للأديان السماوية الأخرى.

١٦٣- لقد بدأ نزول آيات القرآن بكلمة ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾^(١) مما يدل على حث القرآن على العلم، وإرتقاء الناس في مستويات العلم والمعرفة يجعلهم أكثر فهماً لحقائق الأشياء وصدق نزول القرآن من عند الله تعالى.

١٦٤- لقد إدّعى بعضهم بأن بين العلم والدين خصومة وعداوة وعدم توافق وإختلاف متأصل، وكأن العلم رديف الكفر، ولكن القرآن فضح هذه الدعوى وأثبت بطلانها نظرياً وعملياً، وفي الوجود الذهني والمبرز الخارجي.

١٦٥- من إعجاز القرآن انه دواء للبشرية، وتجتمع فيه صفات الكمال الإنساني وأسباب السمو والرفعة.

١٦٦- كل آية بمنزلة الرسول والملك النازل والمصاحب.

١٦٧- القرآن عقل إضافي للإنسان ، ونفس متممة ومصالحة للأمانة بالسوء.

١٦٨- من إعجاز القرآن أنه يدعو على نحو مستمر العلماء

والباحثين في كل الإختصاصات كافة إلى تثوير العلم وإستخراج الكنوز من خزائنه وكل وفق حاجته ، فهو مادة السماء المتيسرة في كل زمان ومكان.

١٦٩- خطابات القرآن الإنحلالية وما فيها من الدروس والعبر والمواعظ.

وقد جاءت خطابات القرآن على وجوه منها:

الأول: الخطاب والنداء للناس ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ ^(١) ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ ^(٢) ﴿أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ﴾ ^(٣).

الثاني: مجيء الخطابات للمسلمين خاصة بقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ تسعين مرة .

الثالث: الخطابات الخاصة بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم كما في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ ^(٤).
الرابع : تضمن القرآن للخطاب الإلهي للملائكة ، كما في الأمر بالسجود لآدم ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا﴾ ^(٥).

وكل صيغة من صيغ الخطاب القرآني حجة وبرهان على صدق نزوله من عند الله ، ومدرسة للإصلاح والهداية.

(١) سورة البقرة ٢١.

(٢) سورة النساء ١٧٠.

(٣) سورة الحج ١.

(٤) سورة الأنفال ٦٥.

(٥) سورة الإسراء ٦١.

١٧٠- المضامين القدسية لبلاغة القرآن وما يتفرع عنها من الدروس العقائدية والمسائل والأبواب المختلفة، فالبلاغة في القرآن ليست مطلوبة بذاتها فقط بل هي وسيلة وآلة للموعظة.

١٧١- القرآن من جنس الحروف والأصوات وهي أعراض غير باقية وجعله الله معجزة لأفراد الزمان الطولية المتصلة وإلى آخر الدهر.

١٧٢- مع أن عدد كلمات القرآن تبلغ ٧٧٤٣٠ كلمة، وتشمل مواضيعه ميادين الحياة المختلفة، فإنه خال من التناقض أو التعارض أو التزاحم.

١٧٣- قال الرسول الأكرم محمد صلى الله عليه وسلم: "أدبني ربي فاحسن تأديبي"^(١)، وآلة التأديب الأولى هي القرآن في منطوقه ومفهومه ودلالات ألفاظه فهو مؤدب لكل مسلم بل لكل إنسان ، وإن كان بمرتبة أقل بسبب عدم الإستعداد الذاتي عند غير المسلم.

١٧٤- وجود المحكم والمتشابه في القرآن وما فيهما مجتمعين ومفترقين من الأسرار والدلالات والمسائل المتشعبة.

١٧٥- إعجاز القرآن علم إنحلافي ينقسم بلحاظ الجهة فيتوجه الى الأفراد والجماعات كل بحسب إختصاصه.

يتحدى القرآن العرب العرباء والمخضرمين بصيغ البلاغة والفصاحة بالفرائد التي تتضمنها كلماته وآياته.

والعالم في علمه والطبيب في علوم الطب والأبدان.

والفلكي في الفلك وفي مصاديق الإرادة الكونية والتكوينية.

العقلاء بالآيات وهكذا جميع المذاهب الفلسفية والكلامية في تحد مستمر ومتصل وإحتجاج دائم وظهور يثبت نزوله من عند الله عز وجل، ويملي على الناس الرجوع اليه.

١٧٦- لقد عاش النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بين أهله وقومه ومجتمع مكة، ولم يأت بشعر أو نثر. وعندما بلغ الأربعين من العمر جاء بالقرآن وحياً سماوياً وآية اعجازية تبهر العقول.

١٧٧- قال الإمام علي عليه السلام يصف القرآن في خطبة له: ينطق بعضه ببعض ويشهد بعضه على بعض، لقد أنزل الله عز وجل القرآن على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وعلمه مضامين آياته وقام بتعليمه للناس، قال تعالى ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ ^(١).

١٧٨- القرآن أمر خارق للعادة ونشأة المادة، ويتعدى الوظائف المتعارفة للعقل لما فيه من الدلالات على ما وراء الطبيعة.

١٧٩- لم ينف القرآن القوانين العامة للعلة والمعلول أو أسباب الحوادث التاريخية بل أثبتها، وأظهر ما للمعجزة من وجوه غيبية خارقة وقاهرة.

١٨٠- كما يثبت القرآن عالم ما بعد الموت فانه يبعث الأمل في قلب المسلم ويدعوه للعمل على الوقاية من أهوال القبر بجهد قليل، قال تعالى ﴿فَإِنْ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ ^(٢)، وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: سورة ثلاثون آية تمنع من عذاب القبر عن صاحبها "أي سورة الملك.

١٨١- مع إعجاز القرآن فإن الله عز وجل لم يجعل الوصول إلى كنوزه متعذراً بل يسر وخفف عن الأمة برسوله الكريم وستته المباركة التي هي تفسير للقرآن وبأقوال الصحابة والأئمة والتابعين وجهادهم. عن ابن مسعود قال: إن القرآن نزل على سبعة احرف ما منها

(١) سورة النحل ٤٤.

(٢) سورة البقرة ١٩٧.

حرف الا وله ظهر وبطن وان علياً عنده من الظاهر والباطن^(١).

١٨٢- منع القرآن الفتنة والاختلاف وتعدد المذاهب والأقوال وحال دون الإجتهد، وسيبقى عنوان وحدة المسلمين والمرجع الذي تعرف من خلاله صحة الأحاديث وضعفها والبرزخ دون التيه في الشبهات، وعن الصادق عليه السلام: "الوقوف عند الشبهة خير من الاقتحام في الهلكة ان على كل حق حقيقة، وعلى كل صواب نوراً، فما وافق كتاب الله فخذوه وما خالف كتاب الله فدعوه"^(٢).

١٨٣- القرآن خير وسيلة لترسيخ الإيمان في القلوب، وهو الرادع عن المعاصي والذنوب لذا حرص النبي صلى الله عليه وآله وسلم على اقتران اسلام المرء بتعلمه القرآن.

وروى عبادة بن الصامت قال: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَشْغَلُ فَإِذَا قَدِمَ رَجُلٌ مُهَاجِرٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ دَفَعَهُ إِلَى رَجُلٍ مِّنَّا يُعَلِّمُهُ الْقُرْآنَ^(٣).

١٨٤- بقاء علم التفسير والدراسات فيه مفتوحة وتشرأب الأعناق للمزيد من الإستنباط فيه، ففي كل زمان ومكان يلاقى الكتاب الصادر في علوم القرآن بمزيد إهتمام وعناية من الجميع ولا أحد يقول إننا إكتفينا في باب مباحث القرآن، والكل يشعر بالحاجة إلى المزيد، وهو من مصاديق البركة في قوله تعالى ﴿كَتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾^(٤).

١٨٥- ما يضيفه القرآن على حامله وأهله مطلقاً من الوقار والعز والهيبة والصلاح.

(١) مجمع البيان ٢٣/١ .

(٢) الوسائل ٢٥٠/١٥ .

(٣) مسند أحمد ٢٤٩/٤٦ .

(٤) سورة ص ٢٩ .

١٨٦- حرص الأمة وأهل الحل والعقد فيها على تعاهد القرآن وحفظه وسلامة جميع نسخه من الآفات والتلف والضياع بالإضافة إلى الإجتهد في طبعه وبذل الأموال في نشره.

١٨٧- من إعجاز القرآن الذاتي أن التحديات والإفتراءات والدعاوى الزائفة في الوحي سرعان ما تفضح ويصيب أصحابها الخزي والخسران.

فمسيلة بن حبيب تنبأ باليمامة من بني حذيفة على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعدما جاء مع وفد من قومه الى المدينة المنورة وأعلن إسلامه، ولكنه إرتد وأخذ يقوم بما يشبه الكهانة ويأتي بالسجع المتعارف عندهم.

فاخذ يتسجى بقطعة من القماش وبعدها يكشف رأسه فيتكلم بالسجع ومما قاله وهو يقسم ببعض الآيات الكونية: والليل الأدهم، والذئب الأسحم، ما جاء بنو أبي مسلم من محرم، وتسجى ثانية، وقال: والليل الدامس، والذئب الهامس، ما قطعت أسيد من رطب ولا يابس وكان يقول والشاء وألوانها وأعجبها السود وألبانها والشاء السوداء واللبن الأبيض إنه لعجب محض وقد حرم المذق فما لكم لا تجتمعون وكان يقول ضفدع بنت نقي ما تنقين أعلاك في الماء وأسفلك في الطين لا الشارب تمنعين ولا الماء تكدرين لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ولكن قریشا قوم يعتدون وكان يقول والمبديات زرعاً والحاصدات حصداً والذاريات قمحا والطاحنات طحنا والخابزات خبزاً والثاردات ثرداً واللاقمات لقماً إهالة وسمنا لقد فضلتم على أهل الوبر وما سبقكم أهل المدر ريفكم فامنعوه والمعتر فأووه والباغي فناوئوه وقالت سجاح بنت الحارث بن عقبان وكانت تنبأ فاجتمع مسيلة معها فقالت له ما أوحى إليك فقال ألم تر كيف فعل ربك بالحبلی أخرج منها نسمة تسعى ما بين صفاق وحشا وقالت فما بعد

ذلك قال أوحى إلى إن الله خلق النساء أفواجا وجعل الرجال لهن أزواجا فنولج فيهن قعسا إيلاجا ثم نخرجها إذا شئنا إخراجا فينتجن لنا سخالا نتاجا فقالت أشهد أنك نبي^(١).

وصحيح أن كلماته هذه خالية من المضمون والدلالة وتفتقر إلى قواعد البلاغة إلا أن مقدار التحدي يدرك بلحاظ أمور:

الأول : نصرة قومه له عصبية له وليس عن إيمان فقد كان بعضهم يقول له "والله إنك تعلم وإنا لنعلم أنك من الكاذبين".
ومنهم من قال: كذاب ربيعة خير لنا من صادق مضر، وهو إعراف ضمني بصدق نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وكذب مسيلمة.

الثاني : إن القرآن حديث النزول ولم ينتشر بعد في الآفاق فقام أهل الجحود بالمكر والتضليل والدعوى الكاذبة للإرباك والفتنة وإثارة التعارض، وما قد ينتج عنه من التساقط أو إعراض الناس عن الأمرين المتعارضين معاً، ولكن هذا التحدي ساعد على تثبيت القرآن لأن المائز بينه وبين غيره كالمائز بين ضياء الشمس وظلام الليل.

الثالث : قيام مسيلمة بالقتال لفرض ما يدعيه ومحاربة المسلمين وحاول الإنتفاع من إنتقال الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم إلى الرفيق الأعلى ليقوم بالتعدي على المسلمين.

ولقد كان للقرآن سلطان وموضوعية في صدّه وغلبة المسلمين وهزيمة مسيلمة الكذاب والذين معه من قومه ومن تحالف عليه.

١٨٨- ذكر أن أبا العلاء المعري عارض القرآن بكتابه الفصول والغايات في مجارة السور والآيات، ومما جاء فيه، أقسم بخالق الخيل، والعيس الواجفة بالرحيل، تطلب مواطن حليل، والريح الهابة بليل،

(١) إعجاز القرآن ١/١٥٧.

بين الشرط ومطالع سهيل، ان الكافر لطويل الويل^(١).
 وذكر انه لما قيل له ان ليس عليه طلاوة القرآن، فقال حتى تصقله
 الألسن في المحاريب اربعمائة سنة وعند ذلك انظر كيف يكون،
 أي المدة بين نزول القرآن وزمان المعري.
 ويناقش الخبر من وجوه:

الأول : انه مجرد حكاية ولم ترد بسند معتبر.
الثاني : لم يرد ان ابا العلاء المعري كان زنديقاً مع ان من ينعت
 بالزندقة ويقتل عليها ادنى كثيراً ممن يدعي كتابة القرآن.
الثالث : كان المعري عالماً واديباً مما يترشح عنه معرفته لإعجاز
 القرآن ومضامينه القدسية.

الرابع : عنوان كتابه الفصول والغايات في مجارة السور والآيات لا
 يعني المعارضة بل بالعكس فهو يعني الإقرار الضمني بآيات
 القرآن، وهناك مؤلفات في امثال القرآن والآيات ترسل ارسال
 المثل كما في قوله تعالى ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ
 لَكُمْ﴾^(٢) مع الشك في القصد والمعنى من تسمية كتابه بالأصل
 البراءة بالإضافة الى عمومات حمل عمل المسلم على الصحة.
الخامس : لو كان هذا الاعتقاد عند المعري لتكرر في كتبه وأقواله
 وليس على نحو اللحن وحده.

السادس : الخبر ضعيف سنداً بل يمكن جعله من الموضوعات
 بحسب الصناعة والقواعد الرجالية، وما فيه من الذم لا ينحصر
 بشخص المعري بل هو إساءة للقرآن والإسلام وإغراء لأهل
 الكدورات الظلمانية، فالأقوى أن هذا الخبر لا أصل له والأولى

(١) الفصول والغايات ٧٦/١.

(٢) سورة البقرة ٢١٦.

تركه وإهماله وإسقاطه.

السابع : إن المعري يسلم في هذا القول بأن حسرة وألم الكافر يطول، مما يدل بالدلالة التضمنية على الإنزجار الذاتي عن أسباب الكفر.

١٨٩- لم ينحصر إقرار العرب بإعجاز القرآن بأيام التنزيل بل إنه أمر توليدي مستمر إذ أن إشراق آياته ينفذ إلى أعماق النفوس المستعدة، فيدرك حجته ويدعن لحقيقة تنزيله الناس على اختلاف مشاربهم وأعمالهم، وينجذب إليه الكبار والصغار والرجال والنساء. سمع الأصمعي فتاة من الأعراب خماسية او سداسية^(١) تنشد:

أستغفر الله لذنبي كله.

قتلت إنساناً بغير حله.

مثل الغزال ناعم في دله.

إنتصف الليل ولم أصله^(٢).

فقلت لها: قاتلك الله ما أفصحك، فقالت: ويحك أيعد هذا مع قوله تعالى ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلَيْهِ فِي السَّيِّمِ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾^(٣) فجمع في الآية واحدة بين امرين ونهيين وبشارتين.

١٩٠- إن إقرار العرب الوثنيين بإعجاز القرآن والذي هو أمر ثابت

(١) يقال فتاة خماسية أي ان طولها يبلغ خمسة أشبار وكذا يقال غلام خماسي، ولا يقال سباعي لأنه إذا بلغ سبعة أشبار صار رجلاً.

(٢) تفسير القرطبي ٢٢٤/١٣ .

(٣) سورة القصص ٧.

بالتواتر والوجدان حجة ودليل على ما فيه من تجليات ربوبية قهرت النفوس وجعلتها صاغرة مذعنة.

١٩١- من اعجاز القرآن اهليته للريادة واثبات الحضور والحاجة اليه في كل زمان ومكان فهو إمام يقود إلى سبل الهداية والرشاد، قال تعالى ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾^(١).

١٩٢- تأكيد العلوم الحديثة لإعجازه وانه يستطيع استيعابها لتكون انواراً كاشفة لجانب من علومه واسراره، فالثورة المعلوماتية في هذا الزمان لا تخلو من التحدي لكل ما هو قديم ومتوارث، بينما تعتبر واسطة ومناسبة لإستظهار بعض كنوز القرآن وان كانت متخلفة وقاصرة عن الغور في اعماقه.

١٩٣- يعتبر القرآن ثروة الإسلام وتركته النبوة والإنسانية ليتزود منه كل بحسب إختصاصه ومهنته، وليبقى قائداً للأفراد والجماعات ودليلاً وعوناً في حال الشدة والرخاء.

وفي خطبة للإمام علي عليه السلام في قبض النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: وخلف فيكم ما خلفت الأنبياء في أممها إذ لم يتركوهم هملاً بغير طريق واضح، ولا علم قائم، كتاب ربكم فيكم، مبيناً حلاله وحرامه فرائضه وناسخه ومنسوخه ورخصه وعزائمه، وخاصه وعامه، وعبره وأمثاله، ومرسله ومحدوده، ومحكمه ومتشابهه، مفسراً مجمله، ومبيناً غوامضه، بين مأخوذ ميثاق في علمه وموسع على العباد في جهله مبين مثبت في الكتاب فرضه، ومعلوم في السنة نسخه وواجب في السنة أخذه ومرخص في الكتاب تركه، بين واجب لوقته وزائل في مستقبله، ومباين في محارمه، من كبير اوعده عليه نيرانه أو صغير أرصد له غفرانه، وبين

مقبول في ادناه، موسع في أقصاه^(١).

١٩٤- قراءة القرآن في الدنيا تنفع العبد بعد موته، ونسخة المصحف التي يقرأ بها تنفعه على نحو متجدد، وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام انه قال: "ست خصال ينتفع بها المؤمن بعد موته: ولد صالح يستغفر له، ومصحف يقرأ به، وقليب يحفره، وغرس يغرسه، وصدقة ماء يجريه، وسنة حسنة يؤخذ بها بعده"^(٢).

١٩٥- ورد عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم انه قال: القرآن جبل الله المتين لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق عن كثرة الرد، من قال به صدق؛ ومن عمل به رشد، ومن إعتصم به هدي إلى صراط مستقيم^(٣).

وهذا الحديث يدل على اتصال الإعجاز الذاتي للقرآن وعدم انحصاره بزمان دون زمان، او حال دون آخر، وكما ان الناس يملون كثرة السؤال وإن كان لطلب الثواب، والله عز وجل يزيد عطاؤه مع كثرة السؤال، لتتجلى علوم القرآن وتشعب مع كثرة الرد بخلاف الكتب والعلوم الأخرى، ويمكن حمل (الرد) الوارد في الحديث على المعنى الأعم فيشمل الدرس والتفسير والتأويل والرجوع اليه في التشريع والتنظيم والعلوم المختلفة، وفيه بشارة عدم الخوف أو الوجل على القرآن وعلومه.

١٩٦- حفظ القرآن للغة العربية وتنقيحه لقواعدها، وتحسينها من المفردات التي جاءت دفعة واحدة بسبب دخول أمم مختلفة في الإسلام.

١٩٧- معرفة أحوال البشر والطبائع وسنن الأمم السالفة وأطوار

(١) ابن أبي الحديد / شرح نهج البلاغة ٧/١٣ .

(٢) الكشف ٣٠٦/١ .

(٣) الكشف ٣٠٦/١ .

البشرية ومراحل وادوار الإرتقاء أو التخلف بلحاظ قصص الأنبياء في القرآن وما فيها من الدروس والعبر.

١٩٨- المدد الإلهي في انتشار نسخ المصحف وطبعها وتعاهد المسلمين لها بالإضافة إلى النصوص التي أكدت على الثواب في وجود المصحف في البيت وتعاهده بالقراءة.

وذكر المسعودي انه رفع في عسكر معاوية في واقعة صفين نحو خمسمائة مصحف.

ولم يكن بين جمع عثمان للقرآن وارساله نسخة إلى الشام يوم صفين إلا نحو سبع سنوات مما يدل على الإقبال والتوجه العام عند عامة المسلمين إلى إستنساخ المصحف.

١٩٩- هناك عدة مسائل تتعلق بإعجاز القرآن تستقرأ من قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله الي، فارجو ان اكون أكثرهم تابعاً"^(١).

٢٠٠- القرآن هو معجزة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.
٢٠١- القرآن أعظم إعجازاً من معجزات الأنبياء لأنه معجزة عقلية ومعجزات الأنبياء حسية، وهو الجامع للكتب السماوية ومحيط بالوقائع والأحداث دلالة وموعظة، ولأن حفظه من يد التحريف آية إعجازية أخرى.

٢٠٢- القرآن سبب كثرة أعداد المسلمين وهدايتهم، قال تعالى ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾^(٢).
٢٠٣- معجزة القرآن باقية إلى يوم القيامة موضوعاً وحكماً.

(١) صحيح مسلم ٩٣/١.

(٢) سورة الأسراء ٩.

٢٠٤- موضوعية القرآن في دخول الناس الإسلام وتعاهد أحكامه.
 ٢٠٥- مجيء القرآن بقوانين ثابتة من الإرادة التكوينية والتشريعية،
 لبيان أن الله عز وجل هو الذي خلق السموات والأرض، وجعل
 الإنسان خليفة في الأرض، وأنه سبحانه لم يترك مخلوقاته بل تعاهدها
 بالإدامة وأسبابها كل إلى أجله وفق ذات القوانين ، ويتضمن تفسيرنا
 هذا آلافاً من القوانين بفيض من الله.

٢٠٦- كفاية القرآن للحكمة بين الناس، وإستنباط القوانين التي
 تتضمن العدل والإنصاف، ومحاربة الظلم والجور قال تعالى ﴿فَكَانَ مِنْ
 قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾^(١).

٢٠٧- تأكيد صدق نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وقبول
 دعائه، وتجلي صدق النبوة الذي هو مقدمة للإنصات للقرآن وعن
 عروة بن الزبير: أن عتبة بن أبي لهب وكانت تحته بنت رسول الله
 صلى الله عليه وآله وسلم أراد الخروج إلى الشام ، فقال : لَأَتِيَنَّ مُحَمَّدًا
 فَلَأُؤْذِيَنَّهُ، فَأَتَاهُ فَقَالَ: يَا مُحَمَّد، وَهُوَ كَافِرٌ بِالنَّجْمِ إِذَا هَوَى، وبِالَّذِي دَنَا
 فَتَدَلَّى، ثُمَّ تَفَلَّ فِي وَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَرَدَّ عَلَيْهِ
 ابْنَتَهُ وَطَلَّقَهَا.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : اللهم سلط عليه كلباً
 من كلابك ، وكان أبو طالب حاضراً ، فوجم لها وقال: ما كان أغناك
 يا ابن أخي عن هذه الدعوة، فرجع عتبة إلى أبيه، فأخبره.
 ثم خرجوا إلى الشام فنزلوا منزلاً، فأشرف عليهم راهب من الدير
 فقال لهم: إن هذه أرض مسبعة، فقال أبو لهب لأصحابه : أغِيثُونَا يَا
 مَعْشَرَ قُرَيْشِ هَذِهِ اللَّيْلَةَ، فَإِنِّي أَخَافُ عَلَى ابْنِي دَعْوَةَ مُحَمَّد، فَجَمَعُوا
 جَمَالَهُمْ وَأَنَاخَوْهَا حَوْلَهُمْ؛ وَأَحْدَقُوا بِعُتْبَةَ.

تعلم القرآن وتعليمه

الحمد لله الذي أنار الأرض بكلامه وجعله تبياناً لكل شيء ليكون دليلاً للعمل العبادي والمعاملاتي ولكي لا تكون للناس حجة.

وتعتبر قراءة القرآن تعاهداً يومياً له ولسوره وآياته وطريقاً ومقدمة مباركة وسلاحاً في أكثر الأعمال التي يؤديها بنو آدم من الأعمال، وفي عملية حسابية ترى أنه لا شيء أكثر ترديداً على ألسنة أهل الأرض في هذا الزمان من سورة الفاتحة، قوة وعملاً فحتى مع الأخذ باللحاظ لعدد المقصرين والفاستقن الذفن لا يؤدون الفرائض الؤوم؁ فالملالفن من المسلمفن لقراءون سورة الفاتحة عدة مرات في كل يوم؁ وفي ذلك آفات وحكم منها:

الأولى : حفظ القرآن وعدم ضياعه أو نسيانه أو تركه؁ مع الإقرار والتسليم بأن حفظ القرآن أمر تكفلته الإرادة الإلهية؁ قال تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ ^(١) ولكن الحفظ أحياناً يكون بالوسائل والأسباب المسخرة والجنود؁ فيكون المؤمنون حفظة ليؤجروا ويثابوا على هذا الوظيفة.

الثانية : توكيد موضوعية القرآن في الحياة اليومية للمسلمين والمنافع الدنيوية والأخروية للحضور اليومي للقرآن في أعمال المكلفين أفراداً وجماعات.

لقد جعل الله عز وجل الحياة الدنيا دار إمتحان وبلاء؁ ولكنه لم يخل بين العباد وبين الإبتلاء؁ فأنزل الكتب السماوية وبعث الأنبياء لهدايتهم إلى سبل الصلاح والوقاية من السيئات وجاء القرآن

جامعاً للأحكام الشرعية، وإماماً يهدي الناس إلى الإيمان ليكون عوناً لهم في دار الإبتلاء والإمتحان، قال تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ﴾^(١).

الثالثة : هناك قاعدة فقهية هي: "لا صلاة الا بفاتحة الكتاب" وهي في الأصل قول للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم. (٢)
وشرعت الصلاة في مكة إذ لم تعهد صلاة في الإسلام من غير قراءة الفاتحة.

وقد ورد عن الإمام علي عليه السلام أنه قال: نزلت فاتحة الكتاب بمكة من كنز تحت العرش^(٣)، مما يعني وجود ملازمة بين الصلاة وقراءة الفاتحة كجزء منها.

الأول : التوكيد اليومي المتكرر على إكرام القرآن وإعلاء شأنه.
الثاني : الإشارة والتنبيه إلى موضوعية لغة القرآن في تاريخ الشعوب الإسلامية وعالميتها التي تدل بالعرض على عالمية القرآن ووظيفة كل المكلفين من الناس بقراءة القرآن في الصلاة بعربيته قال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾^(٤).

الثالث : الجهر في بعض الصلوات وهي في الفرائض اليومية أكثر من الإخفائية سواء كان في عدد الصلوات أو الركعات، إذ أنها ثلاث صلوات هي:

- الأولى: صلاة الصبح وهي ركعتان.
- الثانية: صلاة المغرب، وهي ثلاث ركعات.
- الثالثة: صلاة العشاء، وهي أربع ركعات.

(١) سورة الزمر ٤١.

(٣) الكشف والبيان ١١٠/٦.

(٤) سورة سبأ ٢٨.

ومجموع ركعاتها تسع ركعات، والصلاة الاخفائية وهي صلاتان:

الأولى: صلاة الظهر: وهي أربع ركعات.

الثانية: صلاة العصر، وهي أربع ركعات أيضاً.

ومجموع ركعاتهما ثمان ركعات.

ولا يجوز العكس عمداً أي أداء الصلاة الجهرية إخفاتاً، أو الإخفائية جهراً.

الرابع : من لا يحسن القراءة يجب عليه التعلم وإن كان متمكناً من الائتمام لقبح تفويت التكليف المعلوم مع التمكن منه.

وهل يكون تعلم القرآن وتعليمه واجباً عينياً أم واجباً كفائياً الجواب إنه واجب كفائي وعليه الاجماع والنصوص التي تفيد استحباب تعلم القرآن.

ويمكن التفصيل بأن تعلم القرآن من أجل الصلاة واجب عيني لقاعدة الإشتغال ولأن وجوب المركب وهو الصلاة يلزم منه وجوب الأجزاء، وإن تعلمه لغير ذلك واجب كفائي إلا أن ينحصر بأشخاص أو شخص فيكون الواجب بالنسبة إليه عينياً.

وفي الخبر عن الإمام الباقر عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: ألا أخبركم بالفقيه حقاً؟ من لم يقنط الناس من رحمة الله، ولم يؤمنهم من عذاب الله، ولم يؤيسهم من روح الله، ولم يرخص في معاصي الله، ولم يترك القرآن رغبة عنه إلى غيره، ألا لا خير في قراءة ليس فيها تدبر".

ووجوب التعلم نفسي عيني تعيني، والواجب النفسي هو الواجب لنفسه كفريضة الصيام لا لأجل واجب آخر، ويقابله الواجب الغيري الذي يترشح عليه الوجوب من غيره كالوضوء مقدمة للصلاة.

والواجب العيني يتعلق بكل مكلف ولا يسقط بفعل الغير كالصلاة اليومية.

ويقابله الواجب الكفائي الذي يتوجه فيه التكليف إلى جميع المخاطبين، ولكنه يسقط بإتيانه من أحدهم كالصلاة على الميت ودفنه.

والواجب التعيني هو الواجب ليس له بديل في عرضه، أي ان العينية هنا تتعلق بالمكلف به، وليس بالمكلف كما في الواجب العيني والكفائي.

ويقابله الواجب التخييري كخصال كفارة التخيير مثل إفطار يوم من شهر رمضان عن عمد، وهي إطعام ستين مسكينا أو عتق رقبة أو صيام شهرين متتابعين، والأصل يقتضي عدم السقوط بفعل شيء آخر.

وعلى هذا لو ترك التعلم مع قدرته عليه وصلى، فان صلاته تكون صحيحة بقراءة ما تعلمه بالقرآن أو التسبيح والذكر مقدار القراءة أي الفاتحة والسورة ولكنه يؤثم، أما صحة الصلاة فلقاعدة الميسور ونفي الحرج والإثم لترك الواجب بخلاف ما لو كان وجوب التعلم إرشادياً فلا إثم حينئذ.

ولقد إقترن تعلم القرآن بفترة النزول أي أننا يجب أن نستحدث ونخصص باباً للدراسة وهو تأريخ حفظ وتعلم القرآن فقد كان أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقبلون على حفظ القرآن وكانت صدورهم أناجيلهم، وكذا ذكروا في التوراة والإنجيل، سواء كان ذلك عن طريق الموهبة، أو الفطرة، أو لطبيعة المجتمع آنذاك وما يمتاز به من خصوصية في الحفظ، فلقد إعتادوا حفظ القصائد الطوال.

ولما جاء القرآن كان أولى وأحرى بالحفظ من وجوه كثيرة منها:

الأول: أن يحفظ لما يتصف به من الإعجاز.

الثاني: بسبب الإعانة والمدد الإلهي في حفظ القرآن.

الثالث: ما في لغة القرآن من صيغ البلاغة والفصاحة، التي تفوق كلام البشر كما تراه إلى الآن ظاهراً بالوجدان في تيسير حفظ القرآن لمن عزم عليه.

الرابع: إستدامة حاجة الناس عامة والمسلمين خاصة لآيات القرآن.

الخامس: وجوب قراءة القرآن في الصلاة اليومية.

السادس: الأجر والثواب في حفظ القرآن.

وفي هذا الزمان إذ تتشعب العلوم، وتتفرع الدراسات يمكن التساؤل حول كيفية وصيغ حفظ القرآن وأسباب توسيع رقعته وزيادة عدد الحفاظ على نحو التخطيط والإعداد وتهئية المناهج والمستلزمات المادية والمعنوية وحسن إختيار القائمين على التعليم وشروط الإختيار مع التخفيف في المناهج ومراعاة الفوارق والمؤهلات، وتكون فيها الدراسة على نوعين:

الاول: على نحو التخصص والإنفراد.

الثاني: دراسات إضافية لحفظ القرآن وتلاوته وتفسير مفرداته أثناء مدة من الزمن خاصة بالنسبة للشباب.

وفي الخبر عن الإمام الصادق عليه السلام: "من قرأ القرآن وهو شاب مؤمن إختلط القرآن بلحمه ودمه وجعله الله مع السفارة الكرام البررة، وكان القرآن حجيجاً عنه يوم القيامة^(١).

مع بيان فلسفة تعلم القرآن وتعليمه والإكثار من قراءته، ومنافع التعلم الدنيوية، وما يترتب عليه من الآثار الحميدة في عالم البرزخ ويوم القيامة.

(١) بحار الأنوار ٣٠٥/٧.

والقرآن هو الكنز والحرز والدليل وسبيل الهدى والرشاد، وفيه المناعة والتوفيق وثناء الملكة وإنقاذ البصيرة، وهو وسيلة مباركة في السعي للسعادة الحقيقية وبلوغ منازل التقوى.

ويستحب لحامل القرآن ملازمة الصفات الحسنة ومكارم الأخلاق أكثر من غيره، بل أنها تترشح على جوانحه إنطباقاً من القرآن وما يبعثه من أنوار الهداية وما يرسخه من السجايا والطباع والملكات الحميدة، إذ أن المواظبة على قراءة القرآن تنمي الفضيلة في النفس.

إن تعلم القرآن وتعليمه، حاجة أخلاقية وفقهية للتزود من العلوم وعدم الإكتفاء بالمسائل الشرعية الخاصة بهذا الباب وأيضاً عدم الوقوف عند الجهود الفردية والمبادرات الوقتية والمحدودة التي تبذل في باب تعلم القرآن.

ولو أجرينا احصائية لحفظ القرآن لتبين قلة عددهم بالقياس الى مجموع الأمة ونسبتهم في العصور الأولى للإسلام، ويمكن اعتماد صيغ لحفظ شطر من القرآن والأجزاء الأخيرة منه ذات السور القصار كغاية بذاتها وطريق لحفظ مجموع القرآن، وفيه تعليم تدريجي وملائمة للحال والمقدرة الشخصية خصوصاً وأن القرآن نزل نجوماً، مع الإلتفات إلى الحرص على حفظه وعدم التفريط فيه وإن تخللت مراحل الحفظ أشهراً أو سنوات.

ومن فلسفة تعلم القرآن إستحباب التفكير في معانيه وأمثاله ووعدده ووعيده والإلتعاط به وسؤال اللجنة عند ذكر الجنة.

وتعلم وتعليمه من قبل البعض يسقط التكليف عن الآخرين، وليس عينياً وعليه الاجماع والنصوص. عن علي عليه السلام: "تعلموا القرآن فإنه ربيع القلوب، وإستشفوا بنوره فإنه شفاء الصدور، وأحسنوا تلاوته فإنه أنفع القصص، وإن العالم العامل

بغير علمه كالجاهل الحائر الذي لا يستفيق من جهله، بل الحجة عليه أعظم، والحسرة له ألزم وهو عند الله ألوم^(١).

وهل وجوب التعلم نفسي أو مقدمي أو طريقي محض، الأقوى أنه طريقي محض لدرك الواقع، ولكنه في القرآن يكون نفسياً ايضاً لما فيه من الملاك على نحو الاستقلال، بالاضافة الى طريقيته فكما أنه مطلوب ويستحب تعلمه وتعليمه عيناً لأنه تعظيم لشعائر الله وتعاهد لكتابه المجيد وإحياء للسنة، وما فيه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مقدمة وموضوع لإيجاد مقومات الشخصية الإيمانية وأسباب التسليح بالفضيلة وحمل أخلاق القرآن، وعن علي عليه السلام: "ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: خياركم من تعلم القرآن وعلمه"^(٢).

أما بالنسبة لطالب العلم والقائمين بالوظائف الشرعية بين الناس فان وظيفتهم مركبة وجهدهم يجب أن يكون مضاعفاً تترشح منه العناوين الإنتزاعية والإعتبارية التي تملئها عليه مسؤوليته الدينية والروحية والإجتماعية والإخلاقية، كما في قوله تعالى ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيَّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾^(٣).

وقد إستدل بها الإمام علي بن الحسين عليه السلام في حق أهل البيت وأن الأجر لهم مضاعف وكذا الإثم والعقاب مضاعف للأولوية والنسبة والمنزلة، وطالب العلم وإمام المسجد تصدى لتحمل المسؤولية الشرعية فيترتب عليه مسؤوليات شرعية وإعتبارية إضافية

(١) ابن أبي الحديد / شرح نهج البلاغة ١/٣٨ .

(٢) مفاتيح الغيب ٤١٥/١١ .

(٣) سورة الأحزاب ٣٠ .

تتمثل بإكرام القرآن دراسة وحفظاً وتدبراً، ويلحق به من إرتقى في سلم الكمالات ونال تحصيلاً علمياً أو تأهيلاً في مراتب المعرفة والمنزلة الإجتماعية.

والإنسان يحاسب يوم القيامة بلحاظ المعرفة ومقدار الفهم ومقتضى الحال ويجب أن يعي أحكام الشريعة بالدراسة ومواصلة التحصيل وهو أمر لا يتم بمعزل عن القرآن فهو السلاح والواقية والحرز.

نعم التعلم على قدر الإستطاعة ولقاعدة نفى الحرج في الدين وقاعدة الإمكان، وبالنسبة للحفظ يكون على مراحل كما لو حفظ الجزء الأخير من القرآن عم ومن ثم جزء (تبارك) خاصة بالنسبة للصبيان والشباب من البنين والبنات.

ويستحب التفكير في معاني القرآن وأمثاله ووعدده ووعيده وما فيه من الموعظة والعبرة، قال تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(١). وسؤال اللجنة والتعوذ من النار عند قراءة آياته.

نحن بحاجة إلى علوم مستحدثة في فضل القرآن وبيان تعدد وجوه هذا العلم وفيه نوع إكرام وتعاهد للقرآن وإحياء لعلومه وإستظهار لكنوزه، ومن وجوه هذه المنهجية السعي المنظم لحفظ القرآن وإفراد باب في التفسير للفضل الذاتي والفضل الغيري للآية القرآنية.

وقد تتداخل أحياناً علوم إعجاز القرآن مع فضله، ولكن يمكن التفكيك بينها بلحاظ الموضوع وترتيب الأثر.

ومن فضل حفظ القرآن وتعلمه إفاضة البركات في البيت الذي يقرأ فيه، بينما يشكو إلى الله قرآن مهجور وإن كان وجود القرآن في

البيت مصدراً للخير وواقية من الشر وحرزاً من الشياطين.
وأخرج البزار عن أنس: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال
: إن البيت الذي يقرأ فيه القرآن يكثر خيره ، والبيت الذي لا يقرأ
فيه القرآن يقل خيره^(١).

ومنافعه في البيت مركبة ومتعددة، ففي صحيحة ابن القداح عن
الإمام الصادق عليه السلام قال أمير المؤمنين عليه السلام: "البيت الذي
يقرأ فيه القرآن ويذكر الله عز وجل تكثر بركته، وتحضره الملائكة،
وتهجره الشياطين، ويضيء لأهل السماء كما تضيء الكواكب
لأهل الأرض، وإن البيت الذي لا يقرأ فيه القرآن ولا يذكر الله عز
وجل فيه تقل بركته، وتهجره الملائكة وتحضره الشياطين".

لقد جاءت السنة النبوية الشريفة بالحث على تزيين البيوت
بقراءة القرآن، وهو واقية وسلاح، وذكر في الحديث عن النبي
صلى الله عليه وآله وسلم: "إجعلوا لبيوتكم نصيباً من القرآن، فإن
البيت إذا قرأ فيه القرآن تيسر على أهله وكثر خيره، وكان سكانه في
الزيادة، وإذا لم يقرأ فيه القرآن ضيق على أهله، وقيل خيره وكان
سكانه في نقصان".

وورد أن القراءة في المصحف أفضل من القراءة عن ظهر قلب،
لما فيه من الإكرام للقرآن والتفاؤل بكلماته وإتخاذه صاحباً وملازماً
والإحتراز من الخطأ والسهو لأن الحواس التي تشترك في القراءة
أكثر وللتنعم بالنظر إلى الكلمات القرآنية، فمع أنه يحرم لمسها على
الجنب، فإن النظر إليها فيه ثواب وأجر.

وقراءة القرآن مناسبة للدعاء بل هي دعاء ومسألة والتجاء إلى
الله سبحانه.

وقراءة القرآن إخبار وتوكيد للجزئية من مجتمع الإسلام، وفيها إعلان

على التقارب الروحي بين المسلمين وأن مادة الإتصال هو القرآن. ومن فضل الله على الناس أن القرآن كلام الله وكتابه وبه يستحق أن يولى عناية خاصة في حفظه وتعاهده كنعمة متجددة وسبيل للرزق.

والقرآن هو المصدر الأول للعلوم والتشريعات والقوانين، ولا بأس بإجراء دراسة مقارنة في باب القضاء لما يستنبط من القرآن وآياته وأحكامه في قوانين الدول غير الإسلامية كي يظهر أن الجميع يأخذون من القرآن أما مباشرة أو بالواسطة والمفهوم.

لقد جعل عز وجل القرآن مدرسة للأجيال المتعاقبة قال تعالى ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(١).

وفي الآية شاهد على أن القرآن ضياء للسالكين، ووسيلة سماوية مباركة للرشاد.



في علم الحديث

ينقسم الحديث إلى متواتر وآحاد، والتواتر لغة التعاقب والتتابع واحداً بعد آخر، ومنه قوله تعالى ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَىٰ﴾^(١). وفي الإصطلاح هو خبر جماعة عن جماعة تحول كثرتهم دون إتفاقهم وتواطئهم على الكذب ويحصل بإخبارهم العلم وعليه إتفاق العقلاء إلا من خالف كالسمنية والبراهمة في أقوال رد عليها العلماء.

والقائلون بمحصول الخبر المتواتر وتحقق العلم به اختلفوا والمشهور أن ذلك العلم ضروري، وقال أبو الحسن البصري وأبو القاسم الكعبي والغزالي إنه نظري.

وقال السيد المرتضى إن أخبار البلدان والوقائع والملوك وهجرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومغازيه ونحوها يجوز أن يكون العلم بها ضرورة، والعلم بأحكام الشريعة ومعجزات النبي صلى الله عليه وآله وسلم ونحوها يثبت بالإستدلال.

وذكرت بعض الشرائط التي تجعل الخبر المتواتر يفيد العلم منها ما قاله السيد المرتضى وهو عدم سبق شبهة أو تقليد عند السامع يوجب إعتقاده نفي الخبر ومدلوله وتبعه على ذلك المحققون، وقالوا به يندفع إحتجاج المشركين، وغيرهم في محاولة نفي معجزات الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كإنشقاق القمر وتكليم بعض الجمادات له.

أقول: إن وجود الشبهة لا يمنع من صدق تحقق العلم إذ يكفي في تحققه حصوله عرفاً وواقعاً أي أن إمتناع نفر عن قبوله لأمر

مخالف للسجاياء والتكوين الإنساني لا يمنع من صدق حصول العلم به، فيكفي أن يكون العلم على نحو الموجبة الجزئية العقلانية، ومنها أي شرائط إفادة الخبر المتواتر العلم أن لا يكون السامع عالماً بمدلول الخبر إضطراراً كمن لو أخبر عما شاهده لسبق العلم على الخبر.

ومنها ما يتعلق بناقلي الخبر كأن يكون عددهم من الكثرة بحيث يمنع من تواطئهم على الكذب، وقد اختلف في عددهم في كل طبقة إختلافاً كثيراً، فقال القاضي أبو بكر أن يكونوا أكثر من أربعة، وعن الأصطخري أن أقله عشرة لأنه أقل جمع الكثرة، وعن جماعة أنه إثنا عشر بعدد نقباء بني إسرائيل لقوله تعالى ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾^(١)، لأنه بهذا العدد يحصل العلم بخبرهم.

وعن بعضهم أن أقله عشرون لقوله تعالى ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ﴾^(٢)، والآية لا تتعلق بالإخبار وتحقق العلم به إنما تتعلق بالقتال وأسباب النصر، وعن جماعة أقله أربعون، لقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣) فهي نزلت في الأربعين.

ومنهم من قال سبعين لقوله تعالى ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ

(١) سورة المائدة ١٢.

(٢) سورة الأنفال ٦٥.

(٣) سورة الأنفال ٦٤.

سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا ﴿١﴾، وكان هناك نوع ملازمة بين العدد وحصول العلم بإخبارهم عما يرون من المعجزات، وعن جمع أن أقله ثلاثمائة وبضعة عشر عدد أهل بدر وليحصل للمشركين العلم بما يخبرونهم من معجزات الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

ولا ملازمة بين العدد والإخبار، وعلى فرض مناسبة الآيات للمقام فإنه يدل على تعدد المطلوب وأهلية كل فرد منها لتحصيل العلم، ويكون أيضاً من دوران الأمر بين الأقل والأكثر وأن الإجزاء يتحصل بالأقل، فهم ممن يخبر عن الآية أو عن صدق الرسالة عن علم لا عن ظن غير معتبر يحتمل غيره.

وإن يتعلق إخبارهم بالمحسوس أو بالمعقول، وإن تلتقي الوسائط والطبقات والطرفان في ذلك.

والمراد بالطرفين الطبقة الأولى التي سمعت أو شاهدت مدلول الخبر والطبقة الأخيرة الناقلة إلى المخبر أخيراً أو الوسائط، ومنهم من إشتراط الإسلام والعدالة في المخبر، وأن لا يضمهم معه مصر واحد، وأن يكونوا مختلفين في النسب .

وينقسم الحديث المتواتر إلى قسمين:

الأول: لفظي وهو الذي نقله المخبرون بلفظ واحد، وينقسم إلى شعبتين:

الأولى: تواتر تمام الحديث مثل قول النبي صلى الله عليه وسلم: "إنما الأعمال بالنيات" ^(٢)، على القول بتواتره.

الثانية: تواتر لفظ بعض الحديث مثل "من كنت مولاه فعلي

(١) سورة الأعراف ١٥٥.

(٢) مفاتيح الغيب ٢/ ٢٨٧ .

مولاه" ولفظ "إني تارك فيكم الثقلين"^(١).

الثاني: معنوي وهو الذي نقلوه بالفاظ متعددة مثل حديث الإسراء الذي نقله ستة وعشرون صحابياً.

أما القسم الثاني من الحديث فهو خبر الواحد وعرفوه بأنه الذي لا ينتهي إلى حد التواتر وله أقسام منها:

المستفيض: وهو الخبر الذي يكون عدد رواته في كل طبقة إثنين أو ثلاثة ولا يصل إلى حد التواتر، وأختلف في موضوعية وقيد إتحاد لفظ الجميع أو عدمه، ومنهم من قسم خبر الواحد إلى لفظي ومعنوي كالتواتر وقد يسمى أيضاً بالمشهور.

والمراد من الخبر المشهور أنه من خبر آحاد في الأصل ثم إشتهر بين الرواة والعلماء في القرن الثاني أو الثالث الهجري وأخذ يرويه جماعة لا يتصور تواطؤهم على الكذب.

ولو إشتهر الحديث في القرن الرابع أو الخامس أو السادس وما بعدهما فلا موضوعية لهذا الإشتهار.

وقيل المشهور ما تلقته العلماء بالقبول ويسمى الخبر المشهور مستفيضاً، يقال إستفاض الخبر أي شاع، وخبر مستفيض أي منتشر بين الناس، وهو ملحق بخبر الواحد من جهة حكمه، بإفادته اليقين إذا تلقته الأمة بالقبول وقال بعض أصحاب الشافعي إلى أنه ملحق بخبر الواحد فلا يفيد إلا الظن، وقيل يفيد الطمأنينة أي أدنى مرتبة من اليقين الذي يترشح عن المتواتر.

ويمكن جعل الخبر الذي يطلق عليه العزيز من المستفيض، لأن العزيز هو ما يرويه إثنان أو أكثر سمي عزيزاً لقلّة وجوده أو لقوته بسبب مجيئه بطريق آخر.

من المتواتر المعنوي ينجس الماء القليل بالملاقاة إذا كان الماء أقل

من كر فإنه يفعل بملاقاة النجاسة، ومنه أوان صلاة الظهر عند زوال الشمس ومنه أوان صلاة الظهر عندما تميل الشمس عن كبد. وليس من المتواتر المعنوي لما كان متبايناً في معناه فإنه يفيد التعارض وقد يكون حكمه التساقط ولو شهد جماعة كثيرة برؤية الهلال واختلفوا في جهة فتحة الهلال وفي وقته وحجمه كما لو قال بعضهم رأيت كبيراً وهو لا يزال عالياً، وقال الآخر رأيت صغيراً وهو يشرف على الغياب فلا يؤخذ بشهادتهم، وهذا المثال ليس من المتواتر بمعناه الإصطلاحي.

وأختلف في الخبر المستفيض تعريفاً ورتبة على وجوه:

الأول : أنه من أخبار الآحاد، وبه قال ابن الحاجب.

الثاني : لا فرق بين المستفيض والمتواتر، وأنه المتواتر بمعنى

واحد^(١).

الثالث : التوقف في المستفيض.

الرابع : أنه برزخ ورتبة متوسطة بين المتواتر والآحاد (ضابطه أن ينقله عدد كثير يربو على الآحاد، وينحط عن عدد التواتر)^(٢).

الخامس : المستفيض ما تلقته الأمة بالقبول أي من غير إعتبار

لعدد الرواة.

السادس : ما إشتهر عند أئمة الحديث، ولم ينكروه.

السابع : أنه الشائع بين الناس، وقد صدر عن أصل ليخرج

الشائع لا عن أصل، قاله الزركشي.

الثامن : ما كان مخبره أكثر من واحد لم يصل إلى حد التواتر.

التاسع : المستفيض أعلى رتبة من المتواتر، وكل منهما يفيد

العلم.

(١) الزركشي / البحر المحيط ٢٦٥/٥.

(٢) الزركشي / البحر المحيط ٢٦٥/٥.

العاشر : ما إنفرد به عشرة فصاعداً، ما لم يصل حد التواتر ولا بد من لحاظ الإستفاضة في الطرق إلا على نحو الخصوص، وينقسم المستفيض إلى مرسل ومسند، وقيل من النقل المستفيض الأذان والإقامة ومناسك الحج ولكنها من المتواتر في كل يوم وعام وليس في طبقة فقط وعدم وجوب الزكاة في الخضروات.

أقسام الخبر الواحد

تعددت أقسام الخبر الواحد، وقد يتداخل المتقاربان منها، وأختلف فيه على وجوه:

الأول : يفيد الظن.

الثاني : أنه يفيد العلم اليقيني مع وجود القرينة كالنظام.

الثالث : من أطلق وإنه يفيد العلم حتى وإن لم تكن في البين قرينة، وكل قول فيه دليل^(١).

وأهم أقسام الخبر الواحد أربعة وهي:

الصحيح: وهو ما إتصل سنده إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمعصوم بنقل المؤمن العدل عن مثله في جمع الطبقات المتعددة، فبالإتصال يخرج مقطوع السند، وبقيد إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم يخرج المرسل، ومنهم من قسم الصحيح إلى ثلاثة أقسام:

الأول: أعلى.

الثاني: أوسط.

الثالث: أدنى.

والأول ما إتصف جميع رواته بالصحة بالعلم أو بشهادة عدلين.

(١) أنظر الأمدي / الأحكام ٣١/٢.

والأوسط ما دل فيه الظن على إتصاف جميع رواته بالعدل.
والأدنى بإعتماد الظن الإجهادي.

الحسن: وهو ما إتصل سنده إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم
والمعصوم بمؤمن ممدوح ولم يرد نص بعدالته، ولم يعارض مدحه
بذم سواء كان ذلك في جميع رواته أو في طبقة منهم، والباقي من
رجال الصحيح لأن الحديث في سنده يتبع أخس الطبقات.
الموثق: وهو ما نص على توثيق راويه بغض النظر عن الفرقة
والمذهب الذي ينتمي إليه، والحسن أقوى من الموثق على الأظهر،
ومنهم من قال بقوة الموثق لأن المدار على الظن بالصدور.
وكل من الصحيح والحسن والموثق يقسم إلى أعلى وأوسط
وأدنى.

الضعيف: وهو الذي يكون في طريقه مجروح، أو مجهول حال،
ومنهم من جعله أعم من ذلك وإنه يشمل الذي لم يدخل في
الأقسام الثلاثة أعلاه وما يتفرع عنها فيكون حيثما دون الضعيف
كالموضوع، ولكن الفرق بينهما ليس بالقليل، إذ أن الضعيف يحتمل
الصدق والصحة، ويعمل به المشهور في المستحبات، ويعمل المشهور
بما جبرته الشهرة منه مطلقاً بينما لا موضوع للموضوع قال
تعالى ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَسَبِّحُوا﴾^(١).

وعلم الرجال باب ينفرد به المسلمون وفيه تنقيح للأخبار وحفظ
وثائقي للحوادث بأمانة ونزاهة فهو حجة على الناس، ويكفي في
ناقل وراوي الحديث أن يكون ثقة عند السامع سواء كان من أبناء
ملته أو من غيرها.

والمتتبع لكتب الحديث والتأريخ الإسلامي يجد روح الورع

والحرص على عدم الغلو أو المبالغة وإجتنب ما ليس بصحيح مما يكون مدرسة دائمة للأجيال في الإطلاع على حقبة النبوة وما فيها من المعجزات والحوادث التي تعد شاهداً كريماً على صدق الرسالة، وهو نبراس يدل على مصادر المعارف الإسلامية وطرق تلقيها وأسباب المنعة والحصانة والحيلة التي تلازم الحديث من حين صدوره وحتى وصوله إلى الناس في كل زمان، سواء بصيغ التدوين والكتابة، أو بكيفية الأخذ، والسماع من مشايخ الرواية والإجازة. وستظل القواعد الرجالية ومصاديقها الجزئية إشعاعاً فكرياً مباركاً مترشحاً من مدرسة القرآن وتأديب النبي صلى الله عليه وآله وسلم للمسلمين، وميداناً علمياً يبين حالة الإرتقاء والضبط وموضوعيتها في التأريخ الاسلامي، وهي رادع عقائدي وأخلاقي يحول دون التجراً والكذب والإفتراء في النقل والرواية.

قال تعالى ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾^(١) ليكون علم الدراية والرجال حرزاً وواقية للسنة النبوية، ووثيقة في تفسير القرآن، وشاهداً على وجود أمة من المسلمين في كل زمان تتعاهد الأحاديث الشريفة والأحكام الشرعية، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٢).

لا يشترط التعدد في كل طبقة في الخبر، فيكفي الواحد إذا استوفى شروطه، والكتاب والسنة على قبول خبر الواحد إلا أن يثبت خلافه أو تكون به علة أو في متنه أو سنده ضعف.

ونسب إلى الشواذ القول بإشتراط العدد، وقال به أبو علي الجبائي وبعض المعتزلة إذ يقولون (إن الخبر لا يقبل إذا رواه العدل

(١) سورة الحشر. ٧.

(٢) سورة آل عمران ١١٠.

الواحد إلا إذا انضم إليه عدل آخر أو عضدته موافقته لظاهر الكتاب أو ظاهر خبر آحاد أو يكون منتشراً بين الصحابة أو عمل به بعضهم.

إشترط بعض الحنفية للعمل بخبر الآحاد أن لا يخالف القياس وأكثر المتقدمين منهم لم يقل به.

والذين جعلوا القياس أصلاً منهم قسموا الرواة إلى قسمين:
الأول : أصحاب الإجتهد والفقه والضبط كالخلفاء الأربعة الراشدين وابن مسعود، والعبادلة، وزيد بن ثابت فهؤلاء يقبل الحنفية حديثهم ويكون حجة مقدمة على القياس.

الثاني : الصحابي الذي يعرف بالرواية ولم يعرف بالفقه والإجتهد والفتيا فهؤلاء إن جاء حديثهم مخالفاً للقياس اختلف الحنفية في قبوله.

واستدلوا بالتواتر على بعث النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم آحاد الناس إلى الأمصار والقبائل (قال ابن حزم بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم معاذ إلى الجند وجهات من اليمن، وأبا موسى إلى جهة أخرى.. وأبا عبيدة إلى نجران، وعلياً قاضياً إلى اليمن، وكل من هؤلاء مضى إلى جهة ما معلماً لهم شرائع الإسلام. وكذلك بعث أميراً إلى كل جهة أسلمت... معلماً لهم دينهم ومعلماً لهم القرآن ومفتياً لهم في أحكام دينهم وقاضياً فيما وقع بينهم وناقلاً إليهم ما يلزمهم عن الله تعالى ورسوله، وهم مأمورون بقبول ما يخبرونهم به عن نبيهم صلى الله عليه وسلم. وبعثة هؤلاء المذكورين مشهورة بنقل التواتر من كافر ومؤمن لا يشك فيها أحد)^(١).

وقيل الدليل على قبول خبر الواحد في كتاب الله أكثر من أن

(١) الأنوار الكاشفة ٦٧/١.

يخصى، ومنه :

الأول : قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَيْهِ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾^(١)، وذكرت الآية التبيين كعلة لمجيء الفاسق بالخبر، وترتيب الحكم على الوصف مشعر بالعلية، وأنه لو كان الخبر من أخبار الآحاد مانعاً من القبول لم يكن لهذا التعليل فائدة، وهذه الآية هي أشهر دليل على قبول خبر الواحد في مفهومها.

وترد عليه بأنها لا تدل على قبول خبر الواحد العدل مع قولنا بقبوله ، والرد من جهات :

الأولى : إثبات شيء لشيء لا يدل على نفيه عن غيره، فالتبين في خبر الفاسق في الآية الكريمة ليس برزخاً ومانعاً من التبين في غيره من أخبار الثقة.

الثانية : لم تكذب الآية الفاسق في خبره، فليس من تناف وتضاد بين الفسق والخبر الصحيح على نحو السالبة الكلية، فقد يصدق الفاسق، ومن أمثال العرب (إذا سمعت بسرّي القين فإنه مصبح وهو سعد القين قال أبو عبيد يضرب للرجل يعرف بالكذب حتى يرد صدقه قال الأصمعي وأصله أن القين بالبادية ينتقل في مياههم فيقيم بالموضع أياماً فيكسده عليه عمله فيقول لأهل الماء إني راحل عنكم الليلة وإن لم يرد ذلك ولكنه يشيعه ليستعمله من يريد استعماله فكثّر ذلك من قوله حتى صار لا يصدق)^(٢).

الثالثة : طلبت الآية البيان وتبين صدق الناقل للخبر من كذبه قبل العمل بمقتضى قوله، ومنهم من استدل بهذه الآية بعدم حجية

(١) سورة الحجرات ٦.

(٢) لسان العرب ٣٥٠/١٢.

الخبر الواحد، قال الشيخ الطوسي : وفي الآية دلالة على أن خبر الواحد لا يوجب العلم ولا العمل، لأن المعنى إن جاءكم فاسق بالخبر الذي لا تأمنون أن يكون كذباً فتوقفوا فيه، وهذا التعليل موجود في خبر العدل، لأن العدل على الظاهر يجوز أن يكون كاذباً في خبره فالأمان غير حاصل في العمل بخبره. وفي الناس من استدل به على وجوب العمل بخبر الواحد إذا كان راويه عدلاً، من حيث أنه أوجب تعالى التوقف في خبر الفاسق، فدل على أن خبر العدل لا يجب التوقف فيه. وهذا الذي ذكره غير صحيح، لأنه استدلال بدليل الخطاب ودليل الخطاب ليس بدليل عند جمهور العلماء. ولو كان صحيحاً فليست الآية بأن يستدل بدليلها على وجوب العمل بخبر الواحد إذا كان عدلاً بأولى من أن يستدل بتعليلها في دفع الأمان من أن يصاب بجهالة إذا عمل بها على أن خبر العدل مثله، على أنه لا يجب العمل بخبر الواحد، وإن كان راويه عدلاً.

فان قيل: هذا يؤدي إلى أن لا فائدة في إيجاب التوقف في خبر الفاسق إذا كان خبر العدل مثله في الفائدة. قلنا: والقول بوجوب العمل بخبر الواحد يوجب أنه لا فائدة في تعليل الآية في خبر الفاسق الذي يشاركه العدل فيه، فاذا تقابلا سقط الاستدلال بها على كل حال وبقي الأصل في أنه لا يجوز العمل بخبر الواحد إلا بدليل^(١).

وعن ابن عباس وقتادة وابن أبي يعلي: نزلت الآية في الوليد بن عقبة بن أبي معيط لما بعثه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في صدقات بني المصطلق^(٢)، خرجوا يتلقونه فرحاً به وإكراماً له، فظن

(١) التبيان ٣٣٢/٩.

(٢) بنو المصطلق - بضم الميم وسكون الصاد وفتح الطاء وكسر اللام - بطن من خزاعة من الأزد القحطانية، ومنهم جويرية بنت الحارث زوجة النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

أنهم هموا بقتله، فرجع إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: إنهم منعوا صدقاتهم.

وكان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم يقبل ويسمع خبر العيون والجواسيس، (وفي الحديث: إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعث عيناً من خزاعة يتخبر له قريش أي يتعرف له أحوالهم).

وقبل النبي صلى الله عليه وآله وسلم شهادة الأعرابي في الهلال، وقد يقال بأنه يقبل هذه الأخبار بالعلم اللدني والوحي، الجواب ورد عنه صلى الله عليه وآله وسلم قوله: أني أحكم بينكم بالبينات والأيمان).

وأن الآية جاءت للزجر عن استعمال بناء عقلائي متعارف عند المسلمين.

ولا تكون الآية دليلاً مستقلاً على خبر الواحد، فأما الآية الأولى فإن إثبات شيء لشيء لا يدل على نفيه عن غيره، وأن التبين يصح حتى مع غير الفاسق، وليس فيه إشارة إلى الاتحاد والتعدد، إنما يتقوم الدليل إذا كان خاصاً بذات الموضوع وهو خبر العدل الثقة بالمنطوق وليس المفهوم على الأرجح.

الثاني: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾^(١).

وتدل الآية على تفقه طائفة وهم الجماعة، والطائفة من الشيء:

القطعة منه، وقوله تعالى ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١)، والإستدلال بالآية للقول بأن لفظ الطائفة يطلق على الواحد فما فوقه، ولكن إستعماله في الواحد خلاف الظاهر والمتبادر من اللفظ المتعدد في الأمر المتحد، وهو من علامات الحقيقة، وكذا هو خلاف المنصرف في الأذهان من المراد من الذين يجب أن يتفقهوا ويعلموا الأحكام، فلا بد من الرجوع إلى الكتاب الكريم والصدور عنه وهو شاهد على سلامته من التحريف، وأن السنة لا تنسخه.

وفي رواية عبد الله بن أبي يعفور قال: سألت أبي عبد الله عليه السلام عن إختلاف الحديث يرويه من نثق به، ومنهم من لا نثق به، قال: إذا ورد عليكم حديث، فوجدتم له شاهداً من كتاب الله عز وجل، أو من قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإلا فالذي جاءكم به أولى به).

الثالث : منه قوله تعالى ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٢)، وقيل لو لم يكن القبول واجباً لما كان السؤال واجباً^(٣).

ولكن الآية جاءت بصيغة الجمع مما يدل على إحتمال إرادة المتعدد في السائل والمسؤول خصوصاً وهو الظاهر، وإذا ورد الإحتمال بطل الإستدلال.

الرابع : قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ

(١) سورة النور ٢.

(٢) سورة النحل ٤٣.

(٣) كشف الأسرار ٢٨٣/٤.

لِلَّهِ^(١)، وتقريب الاستدلال أن (من أخبر عن الرسول بما سمعه فقد قام بالقسط وشهد لله، وكان ذلك واجباً عليه.

ولكن جاءت الآية بصيغة الأمر وليس الإخبار عن فعل لإرادة القيام بالعدل وبيان الأحكام الشرعية.

الخامس : قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ^(٢)﴾، وأن الله عز وجل أوعد على إخفاء الهدى فيجب على من سمع من النبي صلى الله عليه وآله وسلم إظهار وإعلان ما سمعه، ولكن الآية لا تدل على قبول خبر الواحد بدليل مجيئها بصيغة الجمع وأن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم كان يبلغ أصحابه ويخبرهم ويصعد المنبر.

السادس : العقل هو مستند خبر الواحد، وبه قال أحمد بن حنبل وابن شريح وأبو الحسن البصري والصيرفي وزاد أحمد : إن خبر الواحد يفيد بنفسه العلم، وحكاه ابن حزم في كتاب الأحكام عن داود الظاهري وغيره.

ومن الإعجاز في أحكام الشريعة الإسلامية عدم التوقف على خبر الواحد، وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام بطرق متعددة قال: أيها الناس ما جاءكم عني فوافق كتاب الله فأنا قلته، وما جاءكم يخالف القرآن فلم أقله^(٣).

ويمكن تقسيم خبر الواحد تقسيماً إستقرائياً مستحدثاً وهو:

الأول : خبر الواحد في الموضوعات والوقائع.

الثاني : خبر الواحد في الأحكام.

(١) سورة النساء ١٣٥.

(٢) سورة البقرة ١٥٩.

(٣) البحار ٢/٢٤٢.

الثالث : خبر الواحد في الوقائع والأحكام ويتجلى الفارق بين القسمين أعلاه أن خبر الواحد في الأحكام ليس مستقلاً بذاته بل يعرض على الكتاب والسنة، أي ليس مجرداً قائماً بذاته، بخلاف الخبر الواحد الموضوعات.

وينسخ الخبر المتواتر خبر الواحد، وهل يصح العكس بأن ينسخ خبر الواحد المتواتر، الجواب لا مانع له بقيود.

الأول : صحة سند ورجال الخبر.

الثاني : تأخر خبر الواحد على المتواتر.

الثالث : موافقة خبر الواحد للكتاب والمدار على الشواهد والمصاديق، ولا بأس من إحصاء أخبار الأحاد التي تنسخ الخبر المتواتر وموضوعاتها

الإنفتاح والإنسداد

ينقسم العلم بلحاظ بقاء بابه مفتوحاً أو مغلقاً يمكن الوصول إليه إلى قسمين:

الأول: الضروريات والبديهيات من أحكام العقائد كوجوب معرفة الباري عز وجل ومعرفة أوصافه والتصديق بالنبوة والإقرار بالمعاد وبعض الأحوال فيه، والعلم فيها لا يزال بابه مفتوحاً، وتدل عليه أدلة عقلية كثيرة ظاهرة للوجدان، وسمعية قطعية الصدور تلزم العلم بها بالإضافة إلى الملازمة بينها كما أن بعضها يشد ويوثق البعض الآخر.

ولم يقل أحد بإغلاقه بل إن العلماء فيه إنفتاحيون وحتى في باب الفقه والتقليد إنه لا تقليد في الضروريات كوجوب الصلاة والحج والصوم، ولا في اليقينيات إذا ما تم للمكلف اليقين الذي يعني الإعتقاد الجازم المطابق للواقع لاسيما وأن التقليد طريق لدرك الواقع.

الثاني: الأحكام الشرعية الفرعية من التكليفية والوضعية،

والواقعية والظاهرية وقد تعددت فيها الأقوال وهي:

أولاً: إمكان الوصول إليها علماً وأن الطريق إليها حقيقي منجعل وهو العلم أي عدم الالتفات إلى الظن فالحكم واحد لأن القرآن والسنة بينا الأحكام بما يجعل الأمة تنتفع منه على إختلاف الأزمنة والأجيال، وهناك من الأخبار ما هو متواتر ويكون حجة، وما هو مستفيض ويكون قسماً من أقسام الخبر الواحد، ولو جعل قسماً له لكان حسناً، ويقول الأكثر بحجية خبر الواحد سواء في كل الأحكام أو في جلها، والقائل بإفتتاح باب العلم السيد المرتضى وجماعة من القدماء.

ثانياً: التفصيل بين باب العلم وباب العلمي في الوصول إلى الأحكام الشرعية الفرعية، وهذا القول هو المشهور، والعلمي يتعلق بالطرق الموصلة إلى العلم، ويطلق عليها العلمي، للعلم باعتبارها وجعلها وإمضائها كادلة من قبل الشارع أو العقل توصل إلى معظم الأحكام وتفيد الحجية والإثبات.

والمعروف أن الشبهات الموضوعية مطلقاً لا صلة لها بعلم الأصول، فالفقيه والعامي بمنزلة واحدة في الشبهة الموضوعية، وعلم الأصول يتناول الكليات التي يصح الإعتذار منها في الشريعة ومنها الإجماع بقسميه المحصل الذي حصله الفقيه، والمنقول أي المنقول إليه، وقالوا إن باب العلمي مفتوح إلى يوم القيامة وخبر الثقة والعدل منه.

الثالث: دعوى الإنسداد أي ليس من طريق إلى الواقع لا علماً ولا علمياً ويسمى قائله بالإنسدادي نسبة إلى دعوى إنسداد باب العلم بالأحكام الشرعية الفرعية، والذي يذهب للإنسداد لم يبق متحيراً في مقام العمل لأنه لا بد من التكليف فقال بدليل عقلي أطلق عليه إسم دليل الإنسداد، وهذا الدليل ليس له ذكر في كتب المتقدمين وإنما هو إصطلاح ورد عند متأخري المتأخرين، وإستحداث الإصطلاح على وجهين:

الأول: ان يكون له أصل في الشريعة، والإصطلاح لفظ يأتي لتمييزه، اي أن الإصطلاح مستحدث دون المعنون والمصطلح عليه.

الثاني: ان يكون العنوان والمعنون كل منهما مستحدث، والغالب هو الأول.

والقائلون بالإنسداد وضعوا له مقدمات منها العلم الإجمالي بوجود أحكام واقعية كثيرة في الشرع وقد إنسد باب العلم والعلمي للكثير منها ولا يمكن إهمالها أو ترك الإمثال فيها لأنه تقصير وتضييع.

وقالوا بحجية الظن واختلفوا في حجته، هل هي عقلية أم شرعية، أي هل يحكم العقل بلزوم العمل طبق الظن لتعذر القطع من غير أن يكون جعل من الشارع أو أنه يفيد حجته شرعاً وأن الشارع جعل الظن حجة وأمضى حجته في باب تعذر القطع وأمر به مثل خبر العدل والثقة على القول المشهور بحجتيهما وإن لم تكن هناك ملازمة بين الظن وبينهما، أو أن الظن من الكلي المشكك الذي هو على مراتب متفاوتة ، ومنه الظن المعتبر في نوعه وموضوعه كما في قوله تعالى ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾^(١).

وقد وردت آيات عديدة في ذم الظن قال تعالى ﴿إِنَّ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّهُمْ لَا يَخْرُصُونَ﴾^(٢).

وعلى فرض تمامية مقدمات دليل الإنسداد فهل يكون الظن معتبراً من جهة الشرع وما يعبر عنه بالكشف، أو يكون معتبراً من جهة العقل الذي يحكم بكفاية الإمثال الظني ما لم يثبت ردع الشارع عنه.

وهذا المبحث أصولي ويكون صغروباً في علوم القرآن بل إن القرآن يضيق دائرته ويحول دون إتساع الخلاف بخصوصه لأن باب

(١) سورة البقرة ٤٦.

(٢) سورة الأنعام ١١٦.

العلم في القرآن إنفتاحي وكذلك باب العلمي.
لقد تفضل الله سبحانه على المؤمنين، وطرد عنهم التردد
والحيرة والإفتتان وأسباب الشك فما من واقعة إلا ولها حكم، إن
رجوع أرباب العلوم إلى القرآن سبيل مبارك للتخلص من الخلاف
وإختصار لطرق بلوغ الغايات السامية.

وباب لدراء الخلاف والفرقة، وفيه غلق لمقدمات وأسباب الفتنة
والشقاق، وهو آلة سماوية كريمة لتنمية ملكة الإستنباط عند المحقق
والعالم والذي يغوص في بحار أنواره لتواجهه غرره ودرره متلاثلة
لتبقى خزائن القرآن علة لإنفتاح ميادين العلوم المختلفة، والعقل
يحكم بحجية أحكام القرآن لأن الله عز وجل جعله حجة دائمة وأمر
الناس بالأخذ بأوامره وإجتنب نواهيه بعيداً عن الشك والوهم أو
ترجيح المرجوح على الراجح أو الإحتياط المخالف للإحتياط وما فيه
تشديد على النفس.

القرآن والعقل

القرآن ما كان لفظه ومعناه من عند الله بوحى جلي، المنقول
إلينا بين دفتي المصاحف تواتراً، وهو آخر الكتب السماوية المنزلة
ولكنه تقدم عليها رتبة وشأناً وموضوعاً وأثراً وأتباعاً وجنوداً فهو
الإمام في الدنيا والآخرة، وكانت له موضوعية خاصة في تثبيت
عقيدة التوحيد في الأرض، وفي تعاهد الفرائض العبادية وذلك
من مصاديق الإعجاز الغيري للقرآن وليثبت بالواقع والوجدان
علوه رتبة على الكتب السماوية الأخرى، ولتظهر الآثار الموضوعية
لكلام الله عز وجل في الأرض، أي أن كلامه تعالى له وظائف
عقائدية متجددة.

عن الإمام الصادق عليه السلام: "لقد تجلى الله لعباده في كلامه

ولكن لا يبصرون".

وحاول القائلون بعدم التسليم إلا بالمحسوسات الجحود ونقول ان المحسوسات هي دليل إثبات وجود الصانع أيضاً فقوله تعالى ﴿سُئِرِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾^(١) نوع تحد، وهل القرآن حجة عقلية أم حسية.

الأنبياء السابقون جاءوا بمحجج حسية كعصا موسى وناقة صالح، والرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم جاء بحجة عقلية هي القرآن دلالة على رسوخه وثبوته والمستوى الراقى الذي نزل فيه، والقرآن كلام يعجزهم ويدعون له صاغرين مسلمين أنه ليس كلاماً للبشر.

وعجزوا عن الإتيان ببعضه فمنهم من آمن، ومنهم من كفر، وحاربوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم، إن إختار شطر منهم الحرب على الإسلام مع إقرارهم بالعجز وهم أهل فصاحة وبلاغة. وكما أن القرآن حجة عقلية فقد جاء بمحجج حسية، والحجة العقلية أشرف من الحسية، فهو معجزة جامعة فاذ ينفرد القرآن بالحجج العقلية فانه يلتقي مع معجزات الأنبياء بالحسية وفي القرآن تبيان كل شيء، ومن وجوه التحدي القرآني في باب القتال قوله تعالى ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبَارَ﴾^(١).

وجاء القرآن للناس جميعاً، وفيه حفظ للآيات التي جاء بها الأنبياء وتوثيق لها وقد خلق الله الناس متفاوتين في المدارك والعلوم والإحساس والقرائح والطباع، وهذا التفاوت نوع تخفيف، وبعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم رحمة للناس كافة

(١) سورة فصلت ٥٣.

(١) سورة الفتح ٢٢.

رحمة العالمين ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(١).

ومن القواعد الكلامية كل ما عند الأنبياء من الآيات عند النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فما كان عند الأنبياء من الحجج الحسية لابد أن يكون عنده بالذات أو النوع والمحسوسات وحدها كافية كحجة على إتباع النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وهي هنا على نوعين سابقة عامة وحاضرة خاصة، فالسابقة أن الأنبياء السابقين دلوا أمهم على إتباعه صلى الله عليه وآله وسلم، وليس المراد من الحسيات في المقام المصطلح الكلامي وهو المدرك بالمشاهدة الظاهرة أو الباطنة إنما هي التي تدرك بالحواس سواء مما في السماء أو في الأرض وما بينهما والتي تتجسد بالهداية التكوينية والتشريعية.

أما الخاصة من الآيات الحسية للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم مثل نبع الماء من بين أصابعه، وإشباع الخلق الكثير من الطعام القليل في مناسبات منها عند نزول قوله تعالى ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾^(٢)، وتسييح الحصى في كفه، وكلام الذراع المسموم، وحنين وسلام الشجر، وملازمة النصر والفتح له، على نحو إعجازي ظاهر ونحوها كثير مما يحكم بها العقل بمعاونة الحس الظاهر، أو قل بواسطة الحس، والنزاع في المقام صغروي، إذ أن المدار هو هذا الإنسان وإحساسه وإن اختلف في تعريفه على وجوه:

الأول : هو هذا الحي الناطق.

الثاني : الشخص المرئي المدرك.

(١) سورة الأنبياء ١٠٧.

(٢) سورة الشعراء ٢١٤.

الثالث : إنه الجسد، عن بعض المعتزلة.

الرابع : إنه الروح كما عن النظام.

الخامس : هو هذا الجسم الذي هو أعراض مجتمعة عن ابن الراوندي.

السادس : إنه الأخلاط الأربعة.

السابع : إنه عين من الأعيان لا يجوز عليه الإنقسام.

الثامن : هو شيء واحد في الحقيقة.

ونريد تعريفاً يتعلق أو يتضمن الإشارة إلى أصل الخلقة والتكوين، المعروف حينما يعرف الإنسان هو أيضاً جزء منه. والأولى ظهور مسحة الشكر والإقرار بالنعمة، وتكون صفة ملازمة للتعريفات الإسلامية للحقائق والكليات والمفاهيم، ونعمة الخلق وإستدامة الحياة موجودة في تعريف الذات مثلاً يقال. هو الناطق الذي نفخ الله فيه من روحه، وهو الذي ميزه الله بالعقل.

إذ أن الجسم مطلقاً مركب وهو على أقسام:

الأول: إن كان على هيئته لم يطرأ عليه النمو فهو من الجماد.

الثاني : ما كان ينمو ولكنه خال من الحس، فهو النبات، ولا عبرة بما ذكر من إحساسات النباتات لعدم الإعتبار بها عند العقلاء.

الثالث : إن كان عنده حس ولكنه يفتقر إلى النطق فهو الحيوان.

الرابع : ان كان حساساً وناطقاً فهو الإنسان.

فالإنسان فرد الممكن، والعقل آلة العبودية يعرف به العبد ووظائفه وواجباته وما له من الحقوق.

الغاية لا تدخل بالمغيبى مثلاً، المرافق في آية الوضوء من جنس واحد فتدخل مع الجزء المغسول من اليد وإذا كانت من غير جنسه

لا تدخل ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾^(١).

والعقل عنوان الإكرام الإلهي للخلافة في الأرض والمتولي للعبادة فيها وما تعنيه من دوام الحياة والبركة عليها، وهل ميز الإنسان بالعقل فقط، بل بغير العقل من صفات التشریف. الجواب هو الثاني بحاجة إلى دراسات منها:

الأول : خلق الله تعالى الإنسان في أحسن تقويم.

الثاني : النفخ فيه من روحه، وخلقه الأنعام.

الثالث : الفارق في الحواس وأجهزة البدن.

الرابع : النطق وموضوعيته ومنافعه.

الخامس : خلق آدم في الجنة.

السادس : في مراحل الولادة.

السابع : أهلية الإنسان للنبوة وللإستجابة لها، وهل هي فرع

العقل أم أعم من العقل.

الثامن : عدد الأنبياء، وهل هو كثير أم قليل، وما هي وظائف

النبوة

شطر من الأصوليين جعل العقل دليلاً رابعاً، وشطر آخر منهم أضاف القياس وهو في إصطلاح الأصوليين كالتمثيل عند المناطقة، ويعني إثبات الحكم في جزئي لثبوته في جزئي آخر مشابه له كما في ثبوت أن النبيذ مشابه للخمر في جهة السكرية، وحكم الخمر الحرمة، فإذاً النبيذ حرام للإشتراك والتقاء جهة الإسكار.

وفي تعريف العقل وجوه :

الأول : هو الجوهر البسيط المحيط بجميع الأشياء المبروزة فيه

والحاكم عليها والقاضي بينها.

الثاني : هو قوة التمييز.

الثالث : قوة يفصل بها بين حقائق ومعلومات.

الرابع : المفارق للأجسام المدرك للكلّيات بذاته والجزئيات بالآلة.

الخامس : منهم من عرفه بأنه جسم لطيف نوراني هو آلة العلم.

السادس : إنه الخلق الذي أكرمه الله، وأكرم الإنسان عندما

جعل فيه حين خلقه وهو الرسول الدائم عند الإنسان.

أكثر العلماء المتقدمين ومشهور علماء المسلمين لم يذكر الدليل

العقلي، ولكن النصوص والوجدان يدلان على إستقراء توظيف

العقل لإثبات نزول القرآن من عند الله تعالى.

فالمفيد مثلاً المتوفي سنة ٤١٣ هـ لم يذكر الدليل العقلي بل ذكر

أصول الأحكام ثلاثة الكتاب والسنة النبوية وأقوال الأئمة وجعل

العقل طريقاً للوصول إلى هذه الأصول الثلاثة وقال عنه: هو سبيل

إلى معرفة حجية القرآن ودلائل الأخبار.

وحذا الشيخ الطوسي المتوفي سنة ٤٦٠ هـ في كتابه العدة حذوه،

وقال بدليل العقل، ابن ادريس ت ٥٩٨ هـ وقال: اذا فقدت الثلاثة

يعني الكتاب والسنة والإجماع فالمعتمد عند المحققين التمسك بدليل

العقل فيها أي انه جعله بالمرتبة الثانية ويرد عند فقد الدليل، ولكن

النقاش في الكبرى، وهي أن الدليل القرآني لا يفقد أبداً لأن الله عز

وجل جعله جامعاً مانعاً، قال تعالى ﴿وَرَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ

شَيْءٍ﴾^(١).

ثم ليؤتي بالأمثلة العملية التي يدعى فيها فقد الأدلة الثلاثة كي

يبحث إمكان إستنباط أحكامها من الكتاب والسنة.

والمصدر الأول في التشريع هو القرآن والسنة مبينة له، أما الإجماع فهو الكاشف عن السنة وعدم ثبوت الردع عن العقل، لذا عرف علم أصول الفقه بأنه ما يقع نتائج بحثه في طريق معرفة الوظيفة الشرعية.

ومنهم من زهد بدليل العقل وربما إتخذ العقل طريقاً للتزهد بالعقل فيلزم الدور، أو أنه ذكر أدلة قابلة للمناقشة.

بحث اصولي

من القواعد الأصولية قاعدة التحسين والتقبيح العقليين فقد اختلف الأصوليون هل يحكم العقل بان للأفعال حسناً وقبحاً أو أنه ليس مؤهلاً للحكومة ولم تكن له تلك الوظيفة، وذكر ان حكم العقل هو إدراكه وليس له بعث وزجر، وإن حكمه هو ادراكه وأنه يدرك إستحقاق فاعل الحسن المدح، وفاعل القبيح الذم فعنده حكم مستقل من جهتين:

الاولى: يستطيع العقل إدراك الحسن والقبح الذاتيين للأفعال وهذه المسألة تدل بدلالاتها الإلزامية على أن للأفعال ماهية ذاتية مستقلة من غير أن يترشح عليها حكم الشرع.

الثانية: إن فاعل الحسن يمدح، وإن فاعل القبح يستحق الذم عقلاً والأولى من الإدراك والثانية من الحكم.

ونفى الأشاعرة هاتين الجهتين للعقل وقال بها المعتزلة يقال عقل يعقل عقلاً وعقل فهو عاقل من قوم عقلاء، وضد العقل: الحمق.

روي عن علي عليه السلام، أنه قال: خلق الله العقل من نور مكنون مخزون من سابق علمه، فجعل العلم نفسه، والفهم روحه، والزهد رأسه، والحياء عينه، والحكمة لسانه، والخير سمعه، والرأفة قلبه، والرحمة همه، والصبر بطنه، ثم قيل له تكلم، فقال: الحمد

لله الذي ليس له ند ولا ضد ولا مثل ولا عدل، الذي ذل كل شيء لعزته فقال الرب : وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أعز علي منك^(١).

ومدار التكليف على العقل ووظيفته العلم بالفرائض والنواهي والتمييز بين الحق والباطل، وهو جوهر مجرد قائم بذاته ومفارق في فعله، مجرد عن المادة ومحله الرأس، وقيل إنه قوة في القلب تقتضي التمييز.

لقد جعل الله عز وجل العقل رسولاً دائماً عند الإنسان وآلة للعلم حتى على قول بعض الفلاسفة أنه مادة وطبيعة، وكما أن وظيفة البصر التمييز بين المرئيات، والسمع التفريق بين المسموعات كذلك القوة العاقلة تميز بين المدركات بما فيها المحسوسات، وقيل العقل مستقل بالحكم من غير الرجوع إلى الشرع إبتداءً في حسن الأشياء وقبحها.

أما الأشاعرة فقد أنكروا إتصاف الأشياء بالحسن والقبح عند العقل، بل المناط على حكم الشارع فما حسنه الشارع فهو حسن شرعاً وعقلاً وما قبحه فهو قبيح، ولو عكس الأمر وجعل الشارع الحسن قبيحاً لأصبح كذلك ولتحول الوجوب إلى الحرمة بالإضافة الى ظاهر القول بالجبر والإضطرار، وأن المجبور ليس عنده فعل يتصف بالحسن أو القبح.

والمعتزلة يقولون: يجب على الله تعالى أن لا يعذب قبل الإنذار وقيام الحجة وبنوه على قاعدة الحسن والقبح العقليين، وأئمتنا يثبتون ذلك لكنهم لا يجعلونه مناط الحكم كما زعم المعتزلة^(٢)، ولكن لا بد من تنزيه كتب الكلام عن عبارة: يجب على الله تعالى

(١) مفاتيح الغيب ١/ ٢٦٠.

(٢) تفسير الآلوسي ٦/ ٢٩.

وإختيار لفظ مناسب لمقام الربوبية، فالله سبحانه هو الذي شرع الوجوب.

والحسن والقبح له وجوه:

الأول: الكمال والنقص فيقال العلم والكرم حسنان، والجهل والبخل قبيحان لأن الأولين لهما صفة كمال، والأخيرين لهما صفة نقص.

الثاني: ملائمة النفس ومنافرتها ويقعان بذلك وصفاً للأفعال.

الثالث: المدح والذم.

والأخير هو محل النزاع، فالأشاعرة قالوا بعدم إستقلال العقل دون الشرع.

وتتفرع عن هذه المسألة قاعدة أخرى وهي قاعدة الملازمة بين حكم العقل والشرع وهي مركبة من أمرين يستحق كل منهما أن يكون موضوعاً مستقلاً خصوصاً وأنه إتفق على القسم الأول منهما وهو تبعية حكم العقل للشرع، وإختلفوا في الثاني، وهو تبعية حكم الشرع لحكم العقل.

الأول: ما يحكم به الشرع يحكم به العقل.

الثاني: ما يحكم به العقل يحكم به الشرع.

اما الأول فلأن الشارع سيد العقلاء فاذا حكم بوجوب أمر فلا بد ان فيه نفعاً ومصلحة، واذا حكم الشرع بحرمة شيء فلا بد ان فيه مفسدة يدركها العقل فحينئذ يحكم العقل بمقتضى ذلك الملاك، ولأن الله تفضل وجعل العقل رسولاً باطنياً كالمرآة لأحكام التنزيل قال تعالى ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾^(١).

أما ما يحكم به العقل ويدرك حسنه أو قبحه فهل يحكم الشرع

طبقاً له لأنه سيد العقلاء ولعدم التعارض بين حكم الشرع وحكم العقل لأن العقل شرع داخلي فليس بين حكميهما تعارض فيلتزم بالإطلاق بأن ما حكم به أحدهما يحكم به الآخر وإطلاق إصطلاح سيد العقلاء على الشرع لا يخلو من التكلف ولم يرد في نص.

لقد أنكر مشهور علماء المسلمين تلك الملازمة لأن وجود الحسن والقبح في الفعل أعم من ملازمة حكم الشرع لحكم العقل لأن ملاكات الأفعال لا يعلمها إلا الله عز وجل وهي من باب المقتضي وليس من العلة التامة التي تحتاج إلى جانب المقتضي فقد المانع فقد يرى العقل الملاك ولكن الشارع ينظر إلى فقدان شرط أو وجود مانع أو حكم ثانوي له الحكومة كقاعدة لا ضرر ولا ضرار.

وإستشهد أيضاً بأفعال الصبي فهو يدرك المصالح في الأفعال كإنقاذ الغريق، والصدق في الكلام، وقبح الكذب ومع هذا فإن الشارع لم يلزمه إيجاباً وتحريماً ويشكل عليه بأن يلزمه بقدر عقله فيعزر في بعض الأفعال القبيحة والمنهي عنها ويؤدب أو يوبخ، ومن ذلك الأحكام الواجبة والمحرمة في بدء التشريع أو إسلام قوم بحيث لو جاءت الأحكام على نحو دفعي للزمت النفرة والخرج.

وهناك كبرى كلية وهي أن إدراك العقل متخلف رتبة عن حكم الشرع، بالإضافة إلى إنقياد العقل للشرع، فلا يكون معه بعرض واحد بحيث تكون حاكمية لكل منهما، فالحاكم هو الشرع والعقل تابع له.

وللحكم بإستحالة التكليف بلا بيان حكم الشارع بالبراءة أو مسألة ترك الضد مقدمة للضد الواجب فإذا كان تركه واجباً ففعله حرام كما قالوا، مثلاً الحكم بترك الصلاة لإنقاذ غريق وإزالة النجاسة عن المسجد.

هذه الأمور من حقيقة واقعية يدركها العقل النظري وهو قوة

تقبل ماهيات الأمور الكلية، وهي من الأوليات أي القضايا التي يصدق بها العقل لذاتها أي بدون سبب خارج عن ذاتها مثل "النقيضان لا يجتمعان"، والكل أعظم من الجزء.

أو الفطريات التي قياساتها معها فالعقل لا يصدق بها بمجرد تصور طرفيها كأوليات، بل لابد لها من وسط ولكنه يستلزم الطلب والفكر.

والحق أن النزاع في حجية العقل بين القائلين وبين غير القائلين به نزاع صغروي لأن المدار على حكم الشرع، وقد خفف الله عن العلماء وجعل القرآن ﴿ثَبَاتًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾^(١)، والأصول العملية مثلاً كأصالة الإشتغال والبراءة يستدل عليها وبها لتوكيد النص من القرآن أو السنة.

وإنقسم الفلاسفة الغربيون في التصورات إلى قسمين:

الأول : العقل يدرك بذاته مجموعة من المفاهيم من دون أن يحتاج إلى الحس، كقول ديكارت بالنسبة لمفهوم الله عز وجل، والنفس من الأمور غير المادية، أو تلك التي يستلزم إدراكها بالحواس كالطول والعرض.

الثاني : إن ذهن الإنسان صفحة بيضاء والإتصال بالموجودات الخارجية يتم بواسطة الحس، ويؤدي إلى ظهور الخطوط والصور فيه، إبيقور قال بأن العقل خال من أي شيء إلا ما كان مقطوعاً به في الحس. ويمكن القول بأن العقل وبعد إقراره بالنبوة يجب أن ينقاد إلى أحكامها وهذا ما لا يختلف في إثنان، والعقل طريق مبارك دائم لإثبات وجود الصانع وعون على الهداية.

ويمكن بيان ذلك بذكر الوجهين من خلال النصوص:

الأول: ما ورد عنه عليه السلام بالنهي عن حصر طريق الشريعة بالعقل كما في قوله عليه السلام: ان دين الله لا يصاب بالعقول) والمراد منه توظيف العقل لفهم الأحكام ومنع ضلالة الافهام.

الثاني: اعتبار العقل طريقاً لفهم الشريعة .

الصيام... نظرة قرآنية

قال تعالى ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ...﴾ (١).

لشهر رمضان فضائل وخصوصيات كثيرة نأخذ منها ما يتعلق بموضوعنا وهو موسوعة فقهية وأخلاقية وإجتماعية وعقائدية وتربوية وإنسانية ولغوية وعبادية، وهو الوعاء الزماني لنزول القرآن بل هو وعاء لنزول الكتب السماوية الأخرى، وسيأتي بيان إن شاء الله (١).

قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام: (نزلت التوراة في ست مضين من شهر رمضان، ونزل الأنجيل في اثني عشر مضت من شهر رمضان، ونزل الزبور في ثماني عشر مضت من شهر رمضان، ونزل الفرقان في ليلة القدر).

عن قتادة (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ) : ليلة القدر، ونزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان، ونزلت التوراة لست ليال مضت من رمضان، ونزل الزبور لست عشرة مضت من رمضان، ونزل الإنجيل لثمان عشرة مضت من رمضان، ونزل الفرقان لأربع

(١) سورة البقرة ١٨٣.

(١) أنظر الجزء الخاص بتفسير آيات الصيام ١٨٣-١٨٤ .

وعشرين مضت من رمضان^(١).

إن نزول القرآن مناسبة كريمة لتشريف الأرض، ولكن موضوعنا يتعلق بما للنزول من آثار متصلة إلى زماننا هذا تنعكس بأعمال مخصوصة تؤديها، أو بأمور تنزل من السماء لخصوص أن القرآن نزل في شهر رمضان. وأن تلك البركة بقت متصلة وأن أسراراً إلهية تتعلق بهذا الشهر الكريم تخصه دون غيره من الشهور لنزول القرآن فيه وهناك مسائل:

الأول : الصيام مثلاً إنحصر وجوبه بشهر رمضان لمناسبة نزول القرآن.

الثاني : أسباب نزول آيات الصيام.

الثالث : أم لأسباب أخرى.

الرابع : كان النزول جزء علة لجعل هذه الفريضة في شهر رمضان.

الخامس : جاء أوان النزول بسبب القدسية الخاصة لهذا الشهر بفريضة الصيام .

وكل هذه الأمور من مصاديق تفضيل شهر رمضان من بين الشهور ، وما جعل الله عز وجل له من الخصوصية، وهو من وجوه إكرام المسلمين ودرجتهم الرفيعة بين الأمم، قال تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٢).

وإستقبال الشهر بالقرآن تلاوة وحفظاً وتفسيراً من خصال الإيمان، وبه جاء الخبر، والظاهر في الإصطلاح هو ان اللفظ ليس نصاً ولكنه يحتمل خلاف الظاهر، فالأصل حينئذ ان يحمل الكلام

(١) تفسير الطبري ٧/٢٢ .

(٢) سورة آل عمران ١١٠.

على الظاهر فيه، والعقلاء لا يعتنون باحتمال الغفلة أو الخطأ وهو مما أستثني من موارد الأخذ بالظن، فالإستقبال بالقرآن يعني التلاوة ولكن الكلام في إطلاقه يؤخذ على الأكثر وبلحاظ النصوص والأخبار منها التعلم والحفظ والتدبر وطلبة العلم يستقبلونه بالتفسير والفهم والمذاكرة رجاء رحمته تعالى ولكي يصدق التلبس بطلب العلم علامة في إستقبال الشهر الكريم.

لا أقول هذا بأن إشتراط الظن الفعلي بالوفاق هو شرط وقوام لحجية الظواهر وأننا نفهم من الظاهر هذا، بل يكفي الظن النوعي أي لغالب الناس وعامتهم وأن المراد هو القراءة والتلاوة ونصوص أخرى تفيد ذلك، فلا نقول بهذا الشرط الذي يسبب الحرج والإرباك وتعدد الفهم لمضمون لفظي واحد، أي كل واحد يفهم المراد من إستقبال الشهر بالقرآن معنى وحينئذ لا يكون حجة إلا على ما فهم منه، بل أننا مع كفاية الفهم النوعي والمعنى المتكون من اللفظ عند أهل المحاورة، وله عند أهل العلم مفهوم إضافي زائد ودلالات إعتبارية تتناسب والمسؤولية الأخلاقية.

هذا التشریف لأوان نزول القرآن وما يدل عليه وجود القرآن ونزوله وعظمته من مضامين ودلالات يظهر بجلاء إعتباره وموضوعيته وأنه السبيل إلى النجاة في الدنيا والآخرة، وفيه مسائل:

الأول : إن الصيام ملازم لأوان النزول وانه شكر لله عز وجل على نزول القرآن، وأفضل الشكر ما إتفق مع أيام نزول القرآن، ان الشكر فيه فعلي وقصدي بواجب أصلي تعييني مضيق ويتفرع عنه الإستحباب المؤكد لقراءة القرآن في أيامه، وهذا الشكر ليس فقط نتيجة وأثراً لنزول القرآن بل هو سبب وعلة لثواب مستحدث، وهو باب لدخول الجنة لذا ورد في الحديث (الصيام جنة من النار)^(١)،

أي واقية وحرز وأمن منها.

الثاني : في الصيام حفظ وتعاهد للقرآن وأحكامه ومناسبة لقراءته وتفسيره.

الثالث : خصوصية وأسرار ملكوتية لشهر رمضان بالذات كانت هي السبب في نزول القرآن فيه، بل والكتب السماوية الأخرى وإستحق أن يصومه المسلمون وأن يرى ملائكة السماء إستحقاق الإنسان لخلافة الأرض بمعرفة وصيام هذا الشهر الكريم.

الرابع : لشهر رمضان قدسية إضافية بالعرض، وهي أن القرآن نزل فيه فامتاز عن الأشهر الأخرى فأصبح مناسبة كريمة للصيام.

الخامس : في كل أيام أشهر السنة نعم متصلة، ولكن شهر رمضان إمتاز بنعمتين إحداهما نازلة والأخرى صاعدة.

السادس : لا بد من تخصيص شهر للصيام من بين الشهور لا على سبيل التعيين المسبق، بل أن فضيلته إكتسبها كونه وعاء للصيام وأن النزول والصيام إجتماعا فيه إتفاقاً، إذ أن الصوم عبادة وسنة معروفة عند الملمين والأمم التي مضت في العهود القديمة والغابرة، ويدل عليه قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(١).

وان ورد في خبر حفص بن غياث عن الصادق عليه السلام انه قال: (انما فرض الله صوم شهر رمضان على الأنبياء دون الأمم ففضل به هذه الأمة وجعل صيامه فريضة على رسول الله وعلى أمته) وحفص مع ضعفه ادعى الشيخ الطوسي الإجماع على العمل بروايته وله كتاب وقال جماعة انه معتمد، وانه نقل خبراً للرشيد في

جواز المسابقة بالطير وسموه كذاباً، ويحمل صفات الشيوع في الخبر ربما لغرابته، وحفص بن غياث ينطلق النخعي، أبو عمر القاضي أحد الأعلام. مولده سنة سبع عشرة ومائة، وتوفي سنة أربع وتسعين ومائة. ولي قضاء الجانب الشرقي ببغداد. ثم بعث على قضاء الكوفة. كان يقول: من لم يأكل من طعامي لا أحدثه. وإذا كان له يوم ضيافة لا يبقى رأس في الرواسين. روى له الجامعة، ومات سنة ست، وقيل خمس وتسعين^(١)، وتولى قضاء بغداد أيضاً، روى عن إسماعيل بن أبي خالد وأشعث بن سوار وجعفر الصادق وخالد الحذاء وعاصم الأحول وعنه ابن راهويه وأبو خيثمة زهير بن حرب وأبو بكر بن أبي شيبة وقتيبة بن سعيد وأبو كريب سئل ابن معين: أيهما أحفظ ابن أدريس أو حفص بن غياث؟ فقال كان ابن إدريس حافظاً وكان حفص بن غياث صاحب حديث له معرفة. وقال العجلي: ثقة مأمون فقيه. وقال يحيى بن سعيد: أوثق أصحاب الأعمش حفص بن غياث وكان يقول لأن يدخل الرجل أصبعه في عينه فيقتلعها فيرمي بها خير له من أن يكون قاضياً وكان يقول: ختم القضاء بحفص بن غياث ومات يوم مات ولم يخلف درهماً وخلف عليه تسعمائة درهماً دينا^(٢).

وعن الصادق عليه السلام أيضاً أن الخطاب يشمل المنافقين والضلال. وورد عن عبد الرزاق وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو نعيم في الحلية عن خيثمة قال: ما تقرأون في القرآن ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فإنه في التوراة يا أيها المساكين^(٣).

(١) الوافي بالوفيات ٢٠٤/٤.

(٢) طبقات الحفاظ ٢٣/١.

(٣) الدر المنثور ١٩٤/١.

وليس هو الاتفاق أو الصدفة بل هو من الإتحاد في الأحكام السماوية والكتب المنزلة، والجمع بين الإطلاق والتقييد، والعموم والخصوص ووحددة التنزيل في الكتب السماوية وإشتراكها بالحجية والدعوة الى الإسلام.

السابع : وهل نزول القرآن في شهر رمضان وعلم المسلمين به سبب وجزء علة لحرص المسلمين على حفظ فريضة الصيام الجواب نعم، وهو تأكيد عبادي منهم ومراجعة سنوية لتعاهداتهم له، ولآياته، وأحكامه ومنها فريضة الصيام.

الثامن : ان هذا الشهر مناسبة كريمة وفضل من الله تعالى في التخفيف عن الناس وفي دعوتهم إلى العبادة المضاعفة كما وكيفاً ونوعاً كما في خطبة النبي صلى الله عليه وآله وسلم المروية عن الرضا عليه السلام وفيه ايضاً: (ومن تلا فيه آية من القرآن كان له مثل أجر من ختم القرآن في غير من الشهور) ^(١).

التاسع : في الحديث (لكل شيء ربيع وربيع القرآن هو شهر رمضان) ^(٢)، والحديث يبين أهمية قراءة القرآن في شهر رمضان وحث على تدارسه والتذاكر فيه، وقراءة القرآن ليست مجردة بل مقرونة بالاعتبار والتدبر. لو كان الفضل في شهر رمضان يتعلق فقط بأيامه وساعات نهاره، فلماذا المضاعفة في الثواب على العبادة والدعاء في لياليه.

العاشر : يظهر لنا التحقيق أن لفريضة الصيام موضوعية في حفظ القرآن وفوائد الصوم متعددة وتعلق بالعبادة والإبتلاء والصحة لقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: (صوموا تصحوا)

(١) الوسائل ١٠ / ٢٤.

(٢) الوسائل ٣ / ١٥٠.

(١)، وإن كانت أبواب النفع وثمار الصوم لا تنحصر بالدنيا بل تشمل تشمل الآخرة ومن أبواب الجنة باب يسمى الريان يدخل منه الصائمون.

الحادي عشر : شهر رمضان الذي نزل في شأنه القرآن، أي في فرض صيامه كما يقال نزل في فلان أو في مناسبة كذا قرآن، وهل المراد من القرآن آيات منه أم المعنى الأعم، الظاهر هو الثاني الذي يدل على نوع ملازمة بينهما بلحاظ ذكره بالخصوص.

ونزول القرآن منجماً وليس جملة واحدة لا يعني وجود الظن بالخلاف الذي إعتبر البعض نفيه وعدمه كي يؤخذ بالظاهر.

قال الضحاك: قوله تعالى ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ (٢) أي الذي أنزل صومه في القرآن قال سفيان بن عيينه: معناه أنزل في فضله القرآن، أي أن القرآن جاء ببيان فضل شهر رمضان لا أنه أوان نزول القرآن، وهذا التأويل خلاف الظاهر وبسبب ما ثبت أن القرآن نزل منجماً على مدى عشرين أو ثلاث وعشرين سنة.

إن التوسع والإكثار الكمي والكيفي في دراسة علوم القرآن يؤدي بالقصد والإنطباق إلى توالي القسمة.

ومن الإعجاز الغيري للقرآن أنك تجد فريضة الصيام وما لها من أهمية في بناء الإسلام شريعة وعقيدة وكياناً اجتماعياً وأخلاقياً وإقتصادياً، تجدها مبينة في خمس آيات فقط من آيات القرآن البالغ عددها ٦٢٣٦ (ستة آلاف ومائتان وست وثلاثون) آية.

وموضوع البحث هو جزء آية من هذه الآيات الخمسة، حيث

(١) الدر المنثور ١/٣٦٥.

(٢) سورة البقرة ١٨٥.

تتغشى الأرض به بهجة إيمانية والتفات تفصيلي يشترك به أفراد كل بيت من بيوت المسلمين لأوان إطلالة الهلال، ويتكرر ذلك مرتين في السنة بلحاظ ما في دخوله من العبادة، والصوم في بدايته، وتحديد اليوم الأول منه ونهايته وبداية الفطر به ومن الآيات أن الفعل في الوقتين متناقض.

الأول: صيام وامساك عن الأكل والشرب والمفطرات الأخرى طيلة ساعات النهار.

الثاني: اجتياز مبارك لإمتحان الصوم وإنطواء أيامه وسعادة العبد بالتوفيق لأداء الفريضة.

وهكذا البركة الإلهية تدخل على المتناقضين فتخالف القواعد الفلسفية والنواميس الأرضية وتجعلهما يلتقيان في ملاك السعادة والفرح بفضل الله.

والشهر هو جزء من إثني عشر جزء من السنة وهو في الإصطلاح الشرعي المدة الزمنية المحصورة بين هلالين، ويجمع في القلة على أشهر وفي الكثرة على شهور، وسمي شهراً لإشتهاره وظهوره بالهلال وإطلاع أهل الأرض ومعرفتهم بأوانه، و شهر رمضان هو الشهر التاسع من الشهور القمرية وهو الشهر الوحيد الذي ورد إسمه في القرآن مما يدل على قدسية خاصة لهذا الشهر لم تترشح من الصيام فقط بل لنزول القرآن قسط فيها بدليل أن ذكر إسم شهر رمضان ورد في خصوص التنزيل، وكذا شمل التشريف ليلة من لياليه هي ليلة القدر بنزول الملائكة والإفاضات السماوية الخاصة بها.

والقرآن خير محض ورحمة لأهل الأرض ، وليس المسلمون وحدهم هم الذين إنتفعوا وإستفادوا وإستثمروا تلك الرحمة، بل ان الناس جميعاً إستفادوا منها ، ولكن بمراتب مشككة

متفاوتة، وهذه الاستفادة مركبة ومتوارثة ومتجددة ، بمعنى أن ما يجنيه السابق من بركة وعلوم القرآن يبقى تركة كريمة للاحق ليضاف لها ما يتجدد منها .

وصحيح ان قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾^(١)، يتعلق بالرسالة وعموم خطاباتنا للمشافهين وغيرهم عرضاً وطولاً أي للناس أيام النزول ولجميع الأجيال المتعاقبة من أهل الأرض وعمارها، ولكن إنتفاع الناس وعلى اختلاف مللهم من الإسلام بلحاظ الآثار الواقعية والظاهرية للقرآن والشريعة الإسلامية في النظام العالمي الفكري والأخلاقي والتربوي وإستقراره وكيفية وطرق المعاملة بينهم أكثر من أن يحصى.

إنه دعوة للعلماء والباحثين الإسلاميين في داخل العالم الإسلامي وخارجه لتلمس آثار القرآن وما إقتبسه الآخرون مللاً وأمماً وأحزاباً وجمعيات وقبائل من القرآن وبيانها بالبحث والإحصائيات ونحوها من لغة العلم الحديث وان كانت العلوم ليست كلها مبتدأة بالقرآن بل جاءت الكتب السماوية الأخرى بشطر منها، ولكن الأمم التي جاءها رسلها بالآيات والبيانات والأحكام ضيعت شطراً تلك العلوم، أما المسلمون فقد حفظوها وتعاهدوها والفرائض ومنها الصيام بدليل قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(٢) أي انه فريضة مكتوبة على من سبق أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم من الملىين.

(١) سورة سبأ ٢٨.

(٢) سورة البقرة ١٨٣.

إن مجرد حفظ هذه الفريضة بعد أن تركتها أهل الملل الأخرى بعد زيادة ونقيصة فيها، يعتبر أهلية لوراثة الأرض ودليلاً على التوفيق الإلهي، والآن وفي شهر رمضان يسأل التلامذة غير المسلمين التلامذة المسلمين في بعض بلاد الغرب وباستغراب: لماذا أنتم ممتنعون عن الأكل والشرب؟ ليتحصل من ذلك إطار عالمي لفلسفة الصيام ونفاذها وقهرها بالوجدان العالمي للغرائز والرغبات الشخصية للنفس الشهوانية وطلبها للغذاء وشوقها للذات الحسية والبهيمية، وما يتجسد فيها من أعمال الإرادة وقوة وصدق الإمتثال في أبهى صوره ومضامينه القدسية وأهليتهم لحمل راية التوحيد وان الإسلام هو الديانة الباقية إلى يوم القيامة وهو من عمومات قوله تعالى ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾^(١).

وهو شاهد على تعاهد أجيال المسلمين المتعاقبة للفرائض العبادية كما جاء بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو من الشواهد على أنهم ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٢).

والهلال ظاهرة كونية مباركة وبيان وظيفة التحديد الدقيق لأوان الصوم ومدته لإحراز الإمتثال الأكمل للأمر الإلهي، والإرتباط بعالم الكون وأسرار الغيب، بهذا الواجب العبادي الأصلي والعيني أي على كل مكلف جامع لشرائط أدائه ولا يسقط بفعل غيره، والتعيني لأن الطلب تعلق به بالذات، وليس له من فعل يكون عدلاً له أو في عرضه يقوم مقامه، والمضيق لأن وعاءه الزماني مخصوص ومحدد وهو شهر رمضان.

لقد ساهم الهلال بمنع التحريف والتغيير والتبديل في فريضة

(١) سورة التوبة ١٠٥.

(٢) سورة آل عمران ١١٠.

الصيام عند المسلمين بخلاف الأمم الأخرى، فقد ذكر أن أهل الكتاب فرض عليهم صوم شهر رمضان ومنهم من تركه إلى صوم يوم من السنة وقالوا إنه اليوم الذي أغرق فيه فرعون، ومنهم زادوا فيه يوماً بعد يوم احتياطاً حتى بلغوا فيه خمسين يوماً فصادف أيام الحر والقيظ، وشق عليهم أداؤه، فنقلوه إلى زمن نزول الشمس برج الحمل وهو فصل الربيع الذي يلي الشتاء.

وسمي الهلال هلالاً لأن الناس يرفعون أصواتهم بالإخبار عنه كما عن عدد من كتب اللغة^(١).

أقول: لعل سبب التسمية أنه علامة بداية الشهر وغرته كما يقال إستهلت السماء عند أول مطرها.

وفي الحديث الصبي "إذا ولد لم يورث ولم يرث حتى يستهل صارخاً"، والإستهلال هنا عنوان الولادة وبداية الخروج إلى الدنيا ولا مانع من احتمال الجمع بين الأمرين علة لتسمية الهلال وجمع الهلال أهلة وبلغة الجمع ورد ذكره في القرآن دون المفرد، قال تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾^(٢)، ويسمى القمر لليلتين أو ثلاث من أول الشهر القمري هلالاً، ومنهم من خص تسمية الهلال بأول ليلة.

وقال الأصمعي أنه يسمى هلالاً حتى يحجر، وتحجيره أن يستدير بخرقة دقيقة ولكن هذه التسمية أعم من أن تنحصر بليلة واحدة أو أكثر للتباين في هيئة الهلال من شهر لآخر.

والأقوى أنه يسمى هلالاً لليلتين أيضاً وعليه الأكثر^(٣)، ثم

(١) انظر تهذيب اللغة ٣٢٥/٢ لسان العرب ٧٠١/١١ تاج العروس ٧٥٩/١.

(٢) سورة البقرة ١٨٩.

(٣) انظر ابن سيدة/المحكم والمحيط الأعظم ١٣٦/٢.

لا يسمى هلالاً إلا أن يطل في الشهر التالي لتيان ضوءه في الليلة الثالثة، والنزاع صغروي وعرفي، والإجماع على تسميته هلالاً في الليلة الأولى، وهو القدر المتيقن شرعاً في الجملة.

وسمي القمر قمراً لبياضه يقال ليلة قمراء أي مضيئة، وقال أبو علي الطبرسي: إسم القمر عند العرب الزبرقان^(١).

أقول: ورد في القرآن وفي سبعة وعشرين موضعاً منه باسم القمر والقرآن نزل عربياً وبلغه العرب ولإفهامهم مقاصد الفاظه ومن خلالهم لأمم الأرض كافة، وكان الأولى على فرض ثبوت هذه التسمية أن يقال كما يسمي العرب القمر أيضاً بالزبرقان مع ذكر دليله من بيت شعر جاهلي أو نحوه.

وتتجلى موضوعية الهلال ورؤيته ظاهرة بقوله تعالى ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ...﴾^(٢)، فيساهم الهلال بالتحديد الدقيق لأوان الصوم ومدته لإحراز الإمتثال الأكمل للأمر الإلهي بهذا الواجب العبادي الأصلي.

والعيني أي على كل مكلف جامع لشرائط ادائه، ولا يسقط بفعل غيره.

والتعيني لأن الطلب تعلق به بالذات وليس له من فعل يكون عدلاً له وفي عرضه يقوم مقامه.

والمضيق لأن وعاءه الزماني مخصوص ومحدد وهو شهر رمضان. وقد يذهب البعض إلى القول بأن الآية تتعلق بالحاضر وهو الشاهد بلحاظ إقامته وعدم سفره ولكنه لا يتعارض مع المعنى الأعم للآية لاسيما وأن تسمية الشهر جاءت إطلاقاً لكل على

(١) مجمع البيان ٢١/٢.

(٢) سورة البقرة ١٨٥.

الجزء، ولأن الهلال عنوان للشهر وبدايته، لذا نستدل بهذه الآية على جواز الإكتفاء بنية واحدة للشهر ولما ورد في السنة الفعلية والتقريرية والنصوص المستفيضة منها قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "صوموا لرؤيته وافطروا لرؤيته"^(١).

حكى عن بعض الأحداث انه راود جارية عن نفسها فقالت ألا تستحي؟ فقال: ممن؟ وما يرانا إلا الكواكب، فقالت وأين مكوكبها.

لقد سخر الله عز وجل ما في السموات والأرض للإنسان ليوظفها في عبادته ومعاملاته بل وإكتشافاته العلمية وما يترشح عنها من آفاق مستحدثة، والآيات الكونية على قسمين:

الأول: منها ما لم يلتفت الإنسان بعد الى الإستفادة منها ومن فائدها بل ومعرفتها، وقد يكون لها شأن كبير في مستقبل الحياة البشرية في الأحقاب اللاحقة.

الثاني: ما إنتفع منه عبر الأجيال والعصور المتقدمة وهذا أيضاً على شعبتين:

الأولى: ما إهتدى الإنسان إليها وإلى توظيفها بالرسالات السماوية وبعث الأنبياء.

الثانية: ما اهتدى إليها والى منافعها بالتجربة والوجدان والإنطباق والواقع.

وقد يجتمع الأمران والأغراض المتعددة والمتباينة في آية كونية واحدة كما في القمر ذلك الكوكب المعروف الذي يدور حول الأرض في فلك إهليجي.

وسيقى القمر آية وسراً من الأسرار التي جعلها الله ظاهرة وملازمة للحياة، ودرساً وحجة وبرهاناً وشاهداً ومناسبة للتدبر

والتفكر، وزاجراً عن المعصية، وداعياً الى الله تعالى وباباً للإبتلاء والإفتتان فلقد إتخذ بعض الأقوام إلهاً وتغنى بحبه العشاق ، قال تعالى ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾^(١).

لقد إبتلى الله القمر بالزيادة والنقصان فيخرج بدرأ الليلة الرابعة عشر والخامسة عشر من كل شهر قمري لأن الجانب المستنير منه مواجه لنا، وفي الليالي التالية يأخذ القمر في التأخر في الطلوع من أوان المغرب شيئاً فشيئاً وتقل تدريجياً سعة نوره إلى أن يكون الجانب المظلم منه مواجهاً لنا، وهو الذي يسمى بالمحاق أو تحت الشعاع، ثم يخرج بعد ذلك الهلال من تحت الشعاع ضعيفاً من جهة المغرب، وهو الذي يطلق عليه ولادة لتبدأ إمكانية رؤيته.

والقمر بهذا التغير يدل على أنه من عالم الإمكان، والإحتياج ملازم له، فهو محتاج إلى المؤثر مفتقر في وجوده وإستدامته إلى غيره مبتلى بالنقص المفاجئ والخسوف مما يدل على عدم أهليته لإفاضة الوجود أو العدم لذاته، ينقلب من حال إلى حال، والطبيعيون يعتمدون طريق النظر إلى طبيعة الحركة فيقولون لا شك في وجود محرك يحركه غير ذاته وهو واجب الوجود.

أما المتكلمون فينظرون إلى حدوث العالم وما فيه من الكواكب بحركتها، بغيتها وأفولها بأنها أمور تستلزم الصانع الفاعل المختار، وهم يقتفون نهج إبراهيم الخليل عليه السلام الذي إستدل بالأفول والغيبة والنقص على الحدوث، وعدم القدرة على الإيجاد والخلق ومعاني الربوبية.

وفي التنزيل ﴿ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ

لَنْ يَهْدِيَ رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿١﴾.

وجاء الإسلام بتسخير القمر في الفرائض والمستحبات والمعاملات بإسقاط المقدمات والإستدلال، نعم الإسلام إنتفع من تجربة ابراهيم عليه السلام وقصص الأنبياء، وذكرها الله في القرآن تثبيتاً وتوكيداً لها وموعظة وعبرة ودرساً، وان الذي يشاهده الناس عند الأفول معزولاً غائباً لا يصلح للربوبية، وهو متحرك. وكل متحرك حادث، وكل حادث محتاج.

كما يدل توظيف القمر بهيئة الهلال وغيرها على الرقي الفكري عند العرب آنذاك بالقياس إلى المجتمعات التي بعث بها الأنبياء الآخرون كإبراهيم عليه السلام، فلم يجعل العرب الوثنيون القمر إلهاً ونحوه وإلا لإحتاج تسخيره في أعمالنا إلى مقدمات ووسائل، كما أنه يدل على أفضلية النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم على غيره من الأنبياء فإبراهيم عليه السلام ومع أنه من الرسل الخمسة أولي العزم إكتفى بنفي الربوبية عن القمر، وجاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالقرآن من عند الله وفيه بيان حقيقة القمر والهلال وموضوعيته في تنظيم عبادتنا ومعاملاتنا، وما يعنيه ذلك من مضامين الرقي والآيات الإعجازية.

إن إعتداد المسلمين للظواهر الكونية الفلكية في العبادات على نحو ثابت وإلى يوم القيامة دليل على أنهم ﴿خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (٢). وموضوع الهلال يتجدد كل عام فالصيام فريضة ومن عالم الأمر وهو بسيط يرتبط إبتداء وإنتهاء لمدته بالهلال وهو من عالم الخلق الذي يتصف بالتضاد والتغير مما يعني وبال دلالة التضمنية

(١) سورة الأنعام ٧٧.

(٢) سورة آل عمران ١١٠.

إحتمال الاختلاف في الاجتهاد والرؤية، وفيه إنتقال من عالم المعقول ومفاهيم العبودية والإمتثال إلى المحسوس، بل فيه مشاهدة لعالم الربوبية بالحس والإدراك والوجدان.

إنه نوع تفكر بما سخر الله عز وجل من الكائنات، وملازمة شهادة على تداخل وإنسجام المخلوقات وما يحتله الإنسان من مراتب الشرف بينها بإنها مسخرة له وبصفة العبودية والطاعة، لذا جاء ذكر النبي الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وسلم في الإسراء والإرتقاء في عالم الملكوت بصفة العبودية، قال تعالى ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾^(١)، إنها مدرسة عقائدية وإجتماعية وسياسية وأخلاقية تأخذ في هذا الزمان منحى جديداً ذا أثر للنضوج الفكري عند الناس.

وتداخل المجتمعات وتقارب الثقافات والإتصال المبارك بين المسلمين تخف معه وطأة وهيمنة الإنتماء المذهبي، وتلك أسباب مجتمعة ومتفرقة ذات نفع، ومن أفرادها أن الناس يريدون الإتفاق على حكم الهلال بين أبناء البلد الواحد أو البلاد الإسلامية والمسلمين جميعاً، يريدونها تظاهرة إسلامية تشع منها معاني البهجة والسعادة الإيمانية.

ويساعدهم هذا التداخل الإعلامي بين أقطار الأرض وقد يسبب لهم ظهور الاختلاف إخراجاً، والفقهاء لا يقفون بوجه هذه الرغبة وبالإمكان الإستجابة ذات العموم الإستغراقي لها وإن كانت من المحسنات والأسباب العرفية والأدبية.

ويمكن تلمس قواعد وأحكام الإتحاد في الحكم والتقارب ضمن الشريعة الإسلامية خصوصاً وأن جمعاً من القدماء والمتأخرين

قالوا بوحدة الحكم مع إختلاف الأفق وهو المختار كما بيته في كتبى الفقهية.

ولا دليل على إعتبار الظاهرة الكونية في ولادة الهلال ورؤيته تملى علينا هذا الإختلاف وإبتداء نقول ان هذا الخلاف لا ضير فيه وكل من أطرافه على صواب في حكمه إذا إستند إلى أسس شرعية، ولكن وحدة حكم الهلال مدخل إلى مفاهيم الإتحاد بين المسلمين والإلتقاء في الأحكام ولا تتعارض احكام الشريعة الإسلامية وما ورد في القرآن والسنة بخصوص الهلال.

ومن فضل الله تعالى حصر الصوم في شهر قمري معين دون الشهور الأخرى وإلا لكان الإختلاف عظيماً وآثاره السلبية جسيمة على الأمة والأفراد، أي ان الهلال ساهم بمنع الخلاف والفرقة في أداء هذه الفريضة والركن العبادي في حياة المسلمين بالمبادرة الجماعية على نحو المصر والبلد أو الأعم منهما لصيام اليوم التالي لرؤيته، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾^(١).

ويبقى الإختلاف في تحديد ليلة الرؤية إختلافاً صغروباً مشروعاً وقد يكون سبباً للإئتلاف بما هو أكبر وأعظم كالإلتزام الأعم والأكثر بفريضة الصيام وأحكام الشريعة. والإختلاف في رؤية وثبوت الهلال يرجع إلى سببين:

الأول: مبنى شرعي.

الثاني: كوني طبيعي.

وكل فريق يستند إلى دليل وحجة شرعية وحكم مستنبط، ومن اللطيف في المقام أن القائل بوحدة الحكم مع إختلاف الأفق إستدل

بقوله تعالى ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾^(١)، وقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم "صوموا لرؤيته وافطروا لرؤيته". وكذا القائل بأن لكل بلد رؤيته بتقريب وإستحضار لقوله تعالى ﴿لَا يَكْفِيُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾^(٢) لعدم التمكن من تبليغ المسلمين من الأقطار الأخرى وإن أصبح هذا التعليل معدوماً في هذا الزمان بسبب ما فيه من سرعة الإتصالات والمواصلات.

وقد يرى الهلال في بلد وتتعدر رؤيته في بلد آخر وإن كان قد ولد ولكن لم يمكن رؤيته اذ المدار على رؤية العين المجردة، فلا عبرة بالتنجيم وإن أخذت أجهزة الرصد الفلكية المتطورة والحديثة تحدد وبدقة ساعة ولادة الهلال ومدى إمكان رؤيته، اذ أنه لا يتعدى الطريقة المحضة، والأدلة تحصر الثبوت بالرؤية البصرية.

وقد يخرج الهلال في بعض الشهور كبيراً لمروور وقت على ولادته او لتعام الشهر السابق، إذ أن الشهر القمري تارة يكون ثلاثين يوماً وأخرى تسعة وعشرين، ولا تكون الأشهر الكاملة اكثر من سبعة، والأشهر الناقصة تكون خمسة أو ستة كما في علم الهيئة ويؤكدّه ويثبتّه الواقع والحساب، وكما يخرج كبيراً قد يكون مطوقاً بالنور في جميع أطرافه، ولا عبرة به أي يعتبر لليلة واحدة وإن كان كبيراً أو مطوقاً إذا لم تثبت رؤيته في الليلة السابقة.

إن إرتباط فريضة عبادية بدنية بكوكب القمر ورؤيته هلالاً يملّي علينا طرح الأسئلة وإستنباط الدروس، ومنها أن هذه الملازمة وتتبع القمر في سيره دعوة للتفكر في الإنتفاع الأعم والأفضل من القمر والكواكب والتدبر بخلق الله عز وجل.

(١) سورة البقرة ١٨٥.

(٢) سورة البقرة ٢٨٦.

ترى هل كان للإسلام وما للقمر من موضوعية في عبادات المسلمين ومعاملاتهم من أثر وأسباب في صعود الإنسان إلى القمر، أرجو أن يفتح باب للدراسة الموضوعية والتحقيق في هذا الأمر للإنصاف وإظهار الحقائق.

إن مجرد تسخير المسلمين لهذا الكوكب في عباداتهم وحسابهم وأوقاتهم أمر ذو أهمية في هذا الباب فكيف والقرآن ذكر القمر في سبعة وعشرين موضعاً، وللمسلمين باع كبير في علم الهيئة والفلك، وهناك قول بأن ما يحدث في الأرض يرى في السماء لوجود ملازمة بين ما يحدث في العالم السفلي وما يقرأ في العالم العلوي بالإضافة إلى حديث الإسراء وعروج النبي الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى السماء.

ولم يرد الهلال بلغة المفرد في القرآن بل ورد بلغة الجمع، قال تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ النَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ ^(١) مما يدل على أن فلسفة الهلال تتعدى موضوع الصيام وشهر رمضان فهي تشمل الحج والمعاملات، كعدة المتوفى عنها زوجها والديون ومطلق الآجال، ولا تنحصر بالمسلمين بل تشمل الناس جميعاً واعتباره كل شهر دعوة للبحث في عالم السماء وعلوم الكواكب وحث على التدبر في خلق السماوات والأرض، قال تعالى في الثناء على نفسه ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ^(٢).

(١) سورة البقرة ١٨٩.

(٢) سورة البقرة ١١٧.

طرق ثبوت الهلال ومرتكزاتها الأصولية

لم يستكشف الناس بعد أسرار اعتماد الهلال دون غيره من الظواهر الكونية ونحوها لبدء فريضة الصوم وما وفره على المسلمين شأن وموضوعية الهلال بالذات من الجهود والسعي والإحصاء وأبعاد ومضامين تعدد وجوه الإجتهد في موضوع الهلال وما يتجدد منه كل سنة وحصر إهتمامنا في بيان الفتاوى المستنبطة والمتبعة، فلقد أولى التنزيل عناية خاصة للهلال، وجعله مدركاً وملجأً وحاكماً ودليلاً وفصلاً.

وقد يحصل الاختلاف في أوان عيد الفطر في أمصار العالم الإسلامي، وذلك الاختلاف يتعلق بالمبنى والإجتهد ولكنه يزداد في أثره وتأثيره ويتسع في ذاته بسبب العلوم الجديدة ووسائل الإتصال السريعة الحديثة ورغبة المسلمين في جعل العيد مناسبة للوحدة الإسلامية وإن كانت أموراً اعتبارية لا مدخلة لها في الفتوى ودليل الحكم الشرعي.

ولقاعدة تقديم الأهم على المهم وقاعدة لا ضرر ولا ضرار وقاعدة نفي الحرج في الدين ولقواعد الشريعة المبنية على الإمتنان ولإبقاء الإسلام في علو ورفعة وخلو الشريعة الإسلامية من أسباب التعارض والاختلاف فالأولى بالعلماء والمؤسسات الإسلامية في أوربا وأمريكا ومطلق بلاد الغرب مثلاً الإتفاق على قواعد ثابتة عندهم تناسب الجميع وتصلح للحكم في موضوع الهلال ولا تخرج عن القواعد الكلية المستنبطة في هذا الباب كما لو إتفقوا على موضوعية الرؤية الخاصة ببلادهم مجتمعة أو متفرقة، أو أن يضيفوا إليها ثبوت الرؤية عند بعض المرجعيات الإسلامية ولكن بلحاظ إتمام العدة أي لو اختلفت رؤية الهلال في أول الشهر وإعتمدوا الرؤية المتقدمة فإنهم يكتفون بإعتبار الشهر الجديد بإتمام ثلاثين يوماً

على ما إعتمدوا إن لم تثبت الرؤية في ليلة الشك لأن الشهر القمري لا ينقص عن تسعة وعشرين يوماً ولا يزيد على ثلاثين ولعمومات قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: (فأن غم عليكم الشهر فأكملوا العدة)^(١).

ومن القواعد الأصولية المعروفة تبدل الحكم عند تغير الموضوع، ومسؤولية العلماء في أوروبا تحتم عليهم النظر إلى مصلحة المسلمين ووحدتهم، وصحة عباداتهم، وتنزيه الإسلام من الأقاويل المحتملة، والحفاظ على قدسية فريضة الصيام، وصدق العيد ولو بالتجرد عن بعض الإرتباطات المذهبية والجهتية في موضوع الهلال ونحوه والإستقلال بحكم الهلال بشرط الإجتماع على حكم شرعي واحد وضابطة معينة في رؤية الهلال، وعلى إيجاد صيغ من التعاون والتسامح معهم بل مطلقاً في هذا الموضوع تعظيماً لشعائر الله ومساهمة في تثبيت قلوب المؤمنين ونشر لواء الإسلام بدرء الفرقة والشبهات وان كانت بدوية وعرضية سريعة الزوال والله يهدي إلى سواء السبيل ليكون إتخاذهم الحكم بالهلال مرآة لعز الإسلام، وتكامل شريعته، ودعوة للهداية وبرزخاً من الشماعة ، ومنعاً للكدورات الظلمانية.

ليلة القدر

الحمد لله الذي جعل عندنا أعياداً تجسد مضامين عبادية وأهم تلك الأعياد والتي يجتمع فيها المسلمون ومن أهمها عيد الفطر وعيد الأضحى.

هذه الأعياد تتعلق بالمسلمين بلحاظ أعمالهم وصلاتهم وتقواهم فهي عنوان الصلاح وأداء الأعمال تكون نتيجة مباركة للأعياد، عيد الفطر مثلاً يدل على الغبطة والسعادة بأداء فريضة الصيام، وهو عنوان فرح متعقب للعبادة ونموذج دنيوي للفرح الأخرى بأداء فريضة الصيام.

أبى الله عز وجل إلا أن يبين بعض الجزاء في الدنيا، إذ ليس من دليل على إنحصار الجزاء بتمامه في الآخرة، فمن الجزاء دفع البلاء وفتح أبواب الرزق وما يغمر النفس من الرضا والغبطة بالتوفيق للصالحات ورجاء الحفظ إلى قابل، بل والتطلع إلى دوام نعمته تعالى بالإعانة على حسن الأداء في مستقبل السنين والأيام.

ولكن من المناسبات ما لا يتعلق بالأعمال والأفعال، منها ما هو كوني، وما في الكون مسخر للإنسان، قال تعالى ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا

فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾^(١).

فإذن ليلة القدر وما فيها من البركات إنما هي مسخرة ومعدة لبني الإنسان فعليه أن يكرمها وأن ينتفع منها، إنها مناسبة كريمة ومنة سماوية وهبة ورحمة إلهية لا تحدث إلا مرة واحدة في السنة، ليس هذا فقط بل أن أوانها لم يعرف على وجه الدقة والتحديد، وعدم المعرفة تلك مركبة من إجمال النصوص

والإختلاف في رؤية الهلال، فالظاهر أنها ليلة واحدة في جميع أرجاء الأرض وبها إستدل أحد العلماء على وحدة حكم الهلال مع اختلاف الأفق، ولكن لا ملازمة بين ليلة القدر وليلة العيد^(١).

ونطرح هنا عدة إطرولات وتساؤلات في المعرفة الإلهية:

الأول : هل تختص ليلة القدر بأهل السماء؟ الجواب لا، لمناسبة نزول نعمة القرآن والملائكة فيها.

الثاني : إنها عيد مشترك لأهل السماء والأرض؟ الجواب نعم.

الثالث : إنها ليست عيداً إلا أنها مناسبة للدعاء والإستغفار

والسلام، الجواب لا تعارض بين العيد والصبر والدعاء.

الرابع : هل تعتبر ليلة القدر سراً من أسرار الكون بلحاظ نزول

الملائكة إلى الأرض وما يقومون به ليلتها من السلام والتسليم،

الجواب نعم، وفيه دعوة للناس للتسليم بالعبودية لله عز وجل

ولزوم الإنتفاع من ليلة القدر للنشأتين.

الخامس : تعتبر ليلة القدر ذخيرة من ذخائر القرآن بإخباره عن

فضل ليلة القدر، وأنها خير من ألف شهر؟

السادس : إنها من درر وإفاضات شهر رمضان لما إتصف وإمتاز

وإنفرد به بوجود هذه الليلة فيه وضمنه.

السابع : هي كنز من كنوز نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم

التي إمتازت بهذه العطية والنحلة على المسلمين، لاسيما وأنها باقية

تتجدد في كل سنة إلى يوم القيامة ولم تنحصر بأيام النبوة.

عن أبي ذر قال: قلت يا رسول الله ليلة القدر هي شيء تكون

على عهد الأنبياء ينزل فيها فإذا قبضوا رفعت قال لا بل هي إلى يوم

القيامة^(١).

(١) انظر كتابنا الهلال ورؤيته ٣٤.

(٢) مجمع البيان ٣٦٠/١٠.

الإسراء... نظرة قرآنية

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (١).

الآية مكية وسورة الإسراء كلها مكية الا قوله تعالى ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبُثُونَ إِلَّا قَلِيلًا سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِيْ مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ (٢) فانهن مدينيات نزلن حين جاء وفد ثقيف. وتسمى هذه السورة ايضاً سورة بني اسرائيل عند أهل البيت وعند كثير من المفسرين، وتسمى سورة سبحان بلحاظ إفتتاحها بتنزيه وتقديس مقام الربوبية.

اللغة

يقال سبحت الله تسبيحاً: أي نزهته تنزيهاً، وفي التهذيب، سبحت الله تسبيحاً وسبحاناً بمعنى واحد، فالمصدر تسبيح، والاسم سبحان يقوم مقام المصدر.

(١) سورة الإسراء ١.

(٢) سورة الاسراء ٧٦ - ٨٠.

عن ابن شميل: رأيت في المنام كأن إنساناً فسر لي سبحانه الله فقال أما ترى الفرس يسبح في سرعته، وقال: سبحانه الله السرعة إليه والخفة في طاعته^(١).

ولكن علوم القرآن وأسرار كلماته ومضامينها القدسية أعم وأدق من أن تؤخذ من أخبار عن منام، وفي اللغة وعلم التفسير والتأويل مندوحة وسعة وغنى عن اللجوء إلى توثيق منامات قد تباعد في بيانها عن الإحاطة بجلالة المعنى القدسي المبارك للفظ القرآني بالإضافة إلى إنعدام الثبوت من صحة المنام، ومن ثم الوصول إلى تحديد القسم الذي تنتمي إليه من أقسام الرؤيا وهل هي صادقة أم لا، وهو بكل الأحوال ليس بمحجة في المقام.

ومن جلاله علوم القرآن وأحكام الشريعة أنها خالية من المنامات وشأنها في الحجية، نعم رؤيا الأنبياء وحي، بالإضافة إلى ما وثقه القرآن من الرؤى في قوله تعالى في سورة يوسف ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ...﴾^(٢).

وعن الأزهري: قيل إن العرب تقول: سبحانه من كذا إذا تعجبت منه وزعم أن قول الأعشى في معنى البراءة أيضاً: أقول لما جاءني فخره

سُبْحَانَ مَنْ عُلِّمَ الْفَاخِرِ^(٣).

وسبحان معرفة لأنه علم للبراءة كما تقول شتان إسم علم للفرق ولو كان نكرة لإنصرف، وقد اجتمع فيه الإلف والنون مثل عمران وعثمان مما يمنع من صرفه، ولا يضر بأصل القاعدة وروده

(١) لسان العرب ٤٧١/٢.

(٢) سورة يوسف ٤٣.

(٣) تفسير الطبري ٤٧٤/١.

منوناً نكرة في بيت شعر كما في قول أمية.

سبحانه ثم سبحانا يعود وله

وقبلنا سبح الجودي والحمد^(١).

ويقال سبح الرجل "أي قال سبحان الله، وفي التنزيل ﴿كُلُّ قَدْ عَلِمَ

صَلَاتُهُ وَنَسِيحَتُهُ﴾^(٢)، وأختلف في سبحان هل هو مصدر سبح أم سبح بالتشديد، والأقوى هو الثاني.

ومن صفات الله تعالى (السبح، القدوس) وهو المنزه عن كل نقص وسوء، والقدوس المبارك، وقيل ليس في كلام العرب بناء على فعول بضم أوله غير هذين الإسمين الجليلين.

وسبحات وجه الله: أنواره وعظمته وذكر في الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم إن الله سبعين حجاباً من النور لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل ما أدرك البصر^(٣).

ويبين هذا الحديث موضوعية وأثر حديث الإسراء في سلم الأفضلية والإكرام لنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم على نحو التعيين، وقد ورد لفظ ﴿سُبْحَانَ﴾ في القرآن إحدى وخمسين مرة، وهي مدرسة في تقديسه وتعظيمه ودفع الوهم والضلالة عن النفوس ودعوة للجوء إلى التوحيد والتقديس المطلق لمقام الربوبية لذا فإن ورود لفظ ﴿سُبْحَانَ﴾ في بداية آية الإسراء وسورته له دلالات تستحق الدراسة والاستنباط بلحاظ موضوع الإسراء والنبوة مطلقاً.

(١) تفسير القرطبي ١/٣٧.

(٢) سورة النور ٤١.

(٣) مفاتيح الغيب ١/٢٥٢.

وقصا المكان قصواً من باب قصى: أصبح بعيداً، والشاة القاصية أي المنفردة، يقال قصي المكان يقصو قصواً: بعد، والقاصي: البعيد، والقصوى مؤنث الأقصى وهو الأبعد.

والبركة: النماء والحسن والإفاضة والزيادة.

أسرى: يقال سريت سرى وأسريت: إذا سرت ليلاً، قال لبيد فبات وأسرى القوم آخر ليلهم

وما كان وقافاً بغير معصر

وفي التنزيل ﴿وَاللَّيْلَ إِذَا يَسَّرُ﴾^(١) أي ان الليل يمضى وينقضي، كأنه يسير في ذاته وهو من الإعجاز البلاغي بإطلاق صفة الحال على المحل، والإسراء خاص بالليل، والسير يختص بالنهار أو يشمله والليل.

والعبد: هو الإنسان مطلقاً حراً أو رقاً، ذكراً أو أنثى، كبيراً أو صغيراً، ويرد العبد بمعنى المملوك ويعرف بالقرينة والإنسان عبد الله لأنه مربوب ومخلوق لله، ويقال للمسلمين: عباد الله، والعابد هو الموحد، وقال ابن منظور: عَبْدَ الله يعبده عبادة ومعبدته: (تأله له)^(٢).

والظاهر ان المعنى أعم وان عبده أي خضع له وذل له وأطاعه، والبركة: النفع والنماء والزيادة.

حول الشيء: جانبه الذي يمكن أن يحول إليه، لذا سمي العام حولاً بلحاظ الدوران وعودة الشهور والأيام.

والآيات: جمع آية وهي العلامة والدلالة، لنريه: اللام للتعليل ونريه: فعل مضارع منصوب بأن مضمرة، والفاعل ضمير مستتر

(١) سورة الفجر ٤.

(٢) لسان العرب ٣/٢٧٣.

تقديره نحن ويعود لله عز وجل، والهاء مفعول به يعود للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

بعده: إظهار لمنافع العبودية وآدابها ودرس في الإيمان، قال بعضهم لما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: أنا بك كان الجواب له: ان كنت بي فانا لك.

فان الياء واللام متعاقبان فعرج إلى المحل الرفيع والمقام العالي، حيث إنقطعت عنده علوم غيره من ولد آدم وصار في مكان الدنو والإقتراب يناجي رب العزة والجبروت فضلاً من الله ورحمة على نبيه وعلينا معشر المسلمين.

عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم قال: إتحذني الله عبداً قبل أن يتخذني نبياً، وإذا رزقه الله تعالى الإسراء به وفضله بصفة الكرم والإحسان وقابله بالبر واللطف والهيئات فانه مأمور بالرافة بالناس وحسن الخلق قال تعالى ﴿وَأَنَّكَ لَـكَلِمٍ خُلِقَ عَظِيمٌ﴾^(١).

وأن يزداد بهم رحمة وبراً وليقوم بأعباء الرسالة مستعداً لتحمل الأذى، صابراً في جنب الله بما رأى من عظيم ملكه وواسع سلطانه وجبروته.

وفي الإسراء دروس لمعرفة وجوه الفلاح لأولئك الذين يختارون دين الإسلام ولزوم إكرامهم وإعانتهم بإظهار وجوه السماحة في الشريعة وبيان البشارات وأسباب الحث والترغيب، وبمقدار من الحرص على هداية الناس والعزيمة والصبر.

عن عكرمة في المرسل قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جاء جبرئيل فقال لي يا محمد إن ربك يقرئك السلام وهذا ملك الجبال قد أرسله الله اليك وامره ان لا يفعل شيئاً إلا بإمرك.

فقال ملك الجبال: إن الله امرني أن لا أفعل شيئاً إلا بأمرك إن شئت دمدت عليهم الجبال وان شئت رميتهم بالحصباء وإن شئت خسفت بهم الأرض.
قال يا ملك الجبال فاني أأنى بهم لعله أن يخرج منهم ذرية يقولوا لا إله إلا الله.

فقال ملك الجبال: أنت كما سماك ربك رؤوف رحيم^(١).
من المسجد الحرام: لقد كان الإسراء من نفس المسجد الحرام ذكره الحسن وقتادة، وفي بعض الروايات التي تقول بأن الإسراء كان من بيت أم هاني أخت الإمام علي عليه السلام ذكر أن النبي اخذ أولاً إلى البيت الحرام وركب من هناك، وقالوا إن مكة والحرم كلها مسجد.

إلى المسجد الأقصى: هو بيت المقدس وإنما قال تعالى الأقصى لبعده المسافة بينه وبين المسجد الحرام ولأنه لم يكن وراءه مسجد، وفيها تنبيه وتوكيد وإعلان لأهمية آية الإسراء في مواجهة المشركين وبيان لبعض منافع الإسلام وحقائقه.

ومن خصائص المسجد الأقصى كثرة شجر الزيتون وإحاطته به وفي قوله تعالى ﴿شَجَرَةٌ مُبَارَكَةٌ﴾^(٢) قيل هي شجرة الزيتون لما فيها من المنافع المتعددة فبالإضافة إلى طيب ثمرها ووفرتها فان دهنها يستعمل للعلاج والإسراج، وحطبها يوقد به، وذكر أنها أول شجرة نبتت بعد الطوفان وأن سبعين نبياً باركوا فيها منهم إبراهيم عليه السلام.

لنريه من آياتنا: لبيان أن الإسلام دين يخاطب العقول وينفذ إلى

(١) الدر المنثور ٢٠١/٥ .

(٢) سورة النور ٣٥ .

أعماق النفس الإنسانية بالدليل الروحي الحي، والبرهان المنطقي ليعرض على العقول نظام الخلق وآياته، وبعضاً مما صنع الجبار، لتكون آية الإسراء نقطة تحول وإرتقاء للفت الأنظار نحو السماء وآياتها وبشارة متقدمة في زمانها لنتائج البحوث العلمية المستفيضة منذ القرن الماضي والتي أسفرت عن كشف بعض الأسرار المادية للكون، ولتثيت قلوب المسلمين فلا يغزوها إرتياب مع تقدم وإتساع تلك الإكتشافات، وقد قال الله تعالى ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ (١).

وقد سئل الصادق عليه السلام: لماذا عرج الله بنبيه إلى السماء ومنها إلى سدرة المنتهى ومنها إلى حجب النور وناجاء هناك والله لا يوصف بمكان؟ فقال: إن الله لا يوصف بمكان، ولا يجري عليه زمان، ولكن الله عز وجل أراد أن يشرف به ملائكته، وسكان سماواته، ويكرمهم بمشاهدته ويريه من عجائب عظمته وما يخبر به بعد هبوطه وليس ذلك على ما يقوله "المشبهون" سبحانه الله وتعالى عما يصفون.

ومكان (من) في قوله تعالى ﴿مِنْ آيَاتِنَا﴾ على وجوه:
الأول: إرادة بعض الآيات.

الثاني: يحضر النبي صلى الله عليه وآله وسلم هذه البقعة المباركة.

الثالث: العروج بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى السماء.

الرابع: منها أن أراه الله الأنبياء وصلى بهم.

الخامس: العجائب والعبر والبيانات التي أخبر الناس بها.

وفي سياق الآيات جاءت الآية متصدرة لسورة الإسراء مما يدل على أهميتها وأثر موضوعها في الحجية والبيان والاعتبار كما أن تسمية السورة بإسمها يعني تسالم المسلمين على حصول الإسراء كسبب ونتيجة وعلى أهميته في تأريخ الإسلام كمعجزة ونعمة ارضية سماوية.

وبعد هذه الآية تأتي آية أخرى تتعلق بنبوة موسى عليه السلام، وفيه مسائل:

الأولى: إنتقلت الآية الثانية إلى موضوع آخر، ويمكن أن نطلق عليه الإلتفات الموضوعي لمجيئها في رسالة موسى عليه السلام وموضوعها وهو هداية بني إسرائيل.

الثانية: إنه من الإلتفات البلاغي فبعد صيغة الغيبة، وقوله تعالى ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(١) جاءت الآية التالية بصيغة الحضور والخطاب.

الثالثة: ان عطف الآية على آية الإسراء بالواو (وآتينا) يفتح الباب للدراسة المقارنة ولبيان عظيم فضل الله تعالى على الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم بآية الإسراء.

وأنه زيادة في السمو والشرف في مراتب النبوة، وتفضيل المسلمين على الملل الأخرى، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٢).

ومن إعجاز الآية على المنهجية التي شرعنا وهي في كل آية

(١) سورة الإسراء ١.

(٢) سورة آل عمران ١١٠.

إعجاز، وتعرض لما في هذه الآية من الإعجاز خصوصاً وأنه ينطبق عليها بوضوح التقسيم الإستقرائي الذي ذكرناه للإعجاز وهو الإعجاز الذاتي والإعجاز الغيري للقرآن.

فمن إعجاز هذه الآية أن أسرارها وعلومها باقية إلى يوم القيامة، تدعو الناس جميعاً للبحث العلمي والإستقراء الفلسفي والسياحة في عالم الملكوت ، وآفاق السموات وتمنع من الغرور والتجبر والعتو بالصعود في السماوات بواسطة الإرتقاء العلمي الحديث.

وتبين الآية نسبة فعل الإسراء وأنه فضل من عند الله تعالى وإبتدائه ونهايته والغاية منه ضمن تقديس وتعظيم الله سبحانه، ومن إعجازها الذاتي إبتداؤها بتنزيهه وتعظيمه تعالى وإختامها بصفاته الحسنى.

والآية تتحدى الناس بفعل خارق للعادة والأسباب مما لم يدركه العقل البشري والإرتقاء العلمي والتقني. وتعتبر الآية وموضوعها عزاً ومعجزة وإكليلاً مباركاً يعلو هامات المسلمين، وتظهر ما تمتاز به النبوة الكريمة لسيد الرسل محمد صلى الله عليه وآله وسلم كما يمكن تلمس منافع واقعة الإسراء وآيته في الميادين الفقهية والعقائدية والإجتماعية والعسكرية للمسلمين.

وقوله تعالى ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى﴾

سبحان: منصوب على المصدر والمعنى أسبح لله تسبيحاً. وهي كلمة تنزيه وتقديس لله عز إسمه تتضمن إرشاد العقول إلى كيفية تعظيمه سبحانه، وبيان عظيم قدرة الله والوثوق به، وطرده ما لا يليق به من الصفات، ليفوز من آمن به، وتوكل عليه وأخلص العبادة له.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : قال عمر : قد علمنا سبحانه الله ، ولا إله إلا الله ، فما الحمد؟ قال علي : كلمة رضيها الله لنفسه ، وأحب أن يقال^(١) .

حدثنا أبو كريب ، وأبو السائب ، وخلاد بن أسلم قالوا ، حدثنا ابن إدريس قال ، حدثنا قابوس ، عن أبيه : أن ابن الكواء سأل علياً عليه السلام عن "سبحان الله" ، قال : كلمة رضيها الله لنفسه^(٢) .

والظاهر أن لكلمة (سبحان) معاني إضافية تتعلق بالقرائن ومناسبة المقام لأبد من الكشف عنها وبيانها ، ومن معانيها في الآية التوكيد بأن الإسراء بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم جاء بأمر الله تعالى وإرادته ، فهو سبحانه الذي قضى بالإسراء لنبيه وفي ذلك مدخل للتسليم به وعدم التردد في قبول موضوعه ، ولكي لا يكون هناك ذم ولا حرج على أولئك الذين يؤمنون بالإسراء إيماناً عفويّاً ، والتسليم به لأنه نص سماوي وآية جاءت في القرآن وبلغت النص الذي يفيد القطع والجزم بالإسراء بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

وهو لا يمنع من التحري والبحث العلمي والإستقصاء الموضوعي ذي صبغة الصلاح ليزداد المسلمون هدى وإيماناً وبصيرة . إن الله عز وجل يثني على نفسه في القرآن ، ويبين بديع صنعه وتأتي مضامين التنزيه لمقام الربوبية في حديث الإسراء آية كونية وشرعية عظيمة وهو أمر يتضح لك من خلال تفاصيل ووقائع الإسراء وهو من عمومات ملك السموات والأرض لله وتسخيرها

(١) الدر المنثور ١/١ .

(٢) تفسير الطبري ٣١/١٥ .

للإنسان قال تعالى ﴿خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ (١).

إن ورود عناوين التنزيه لله تعالى في مقدمة آية الإسراء برزخ وحائل دون التأويل الخاطئ لموضوع الإسراء وأوانه وغاياته ، والله عز وجل هو الفاعل المختار والواهب المنان.

لقد كان الإسراء من العلوم والمعارف التي خصّ بها الله عز وجل النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم، وهذه الأمة المرحومة، قال تعالى ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ (٢)، والإسراء مدرسة أخلاقية وتشريعية وإجتماعية وهو من مصاديق قول محمد صلى الله عليه وآله وسلم: أدبني ربي فاحسن تأديبي" (٣).

كما كان صلى الله عليه وآله وسلم يقول: (اللهم أرنا الأشياء كما هي) (٤)، وقد أنعم عليه سبحانه بأن أطلعه على أحوال السماء وأسرار الكون.

والإسراء لا يحصل إلا في الليل، فالآية تحدد أوان الإسراء وأنه حصل في الليل ولكن لماذا في الليل وليس في النهار، وهل هما بمرتبة عرضية واحدة، أي سواء كان الإسراء في الليل أو النهار فهو واحد أم أن الأمر مختلف.

الاقوى هو الأخير وهناك خصوصية لليل في حصول الإسراء

(١) سورة البقرة ٢٩.

(٢) سورة النساء ١١٣.

(٣) مفاتيح الغيب ١٤/ ٣٩٦.

(٤) مفاتيح الغيب ١٠/ ١١٦.

والله واسع كريم ولو جاء الإسراء في النهار لكانت الآيات ذاتها بفضله تعالى.

ومن الآيات في حصول الإسراء في الليل.

الأول : إن الليل مناسبة للمناجاة والتسبيح.

الثاني : قال تعالى ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْإِفْلِينَ ﴾^(١) أي أن ظلام الليل وما يتغشى الأرض من السكون يجعل العبد يتوجه إلى عالم الغيب والملوكوت- الو

الثالث : حصول الإسراء في الليل بإخبار القرآن دعوة للمسلمين للتدبر في الآيات الأفاقية وأسرار السماوات.

الرابع : تنفي الآية الوحشة عن قلب المؤمن في ظلمة الليل الحالكة أي شديدة السواد، وتجعله ينتقل مع عالم الإسراء وعلومه المكنونة ويسيح فكره في عالم السماوات شكراً لله وإقراراً ببديع صنعه وعظيم فضله على المسلمين بالإسراء.

الخامس : يعيش المؤمن في الليل إسراء روحياً يحاكي به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كما يتأسى به في العبادات وأعمال البر والصلاح.

وبالإسناد عن محمد بن علي بن أبي طالب عن أبيه (أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا قام من الليل أستاذك ثم ينظر إلى السماء ثم يقول أن في خلق السماوات والأرض إلى قوله فقنا عذاب النار) .

وقد إشتهرت الرواية عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه لما نزلت هذه الآيات ، قال : ويل لمن لأكها بين فكيه ولم يتأمل ما

وفيه دعوة للمسلمين للسياحة أثناء الليل وسكونه في عالم الملكوت والتدبر في خلق السماوات وما فيها من بديع الصنع والشواهد على عظمة قدرة الله، والفرز إلى الصلاة والإستغفار.

السادس : حصول الإسراء في الليل دعوة سماوية للاجتهاد في العبادة ساعات الليل البهيم^(٢).

السابع : عبادة النبي صلى الله عليه وآله وسلم وإنقطاعه إلى الله تعالى مستمر في الليل والنهار.

الثامن : النبوة جهاد متصل في جميع أنات الليل والنهار.
التاسع : أبواب الكسب العلمي والموهبة لا تنحصر بساعات النهار.

العاشر : في ساعات الليل وفترات السكون إفاضات من الفضل الإلهي مما لم تدركه عقول البشر.

الحادي عشر : إشرقة الإيمان متجددة، وتطل على الناس بآية كونية سماوية.

الثاني عشر : رحمة الله تعالى تنزل في أية ساعة من ساعات الليل والنهار من غير حصر بوقت محدد.

الثالث عشر : الناس في سكونة، ويخلدون إلى النوم، والنبي منتقل إلى السماء في إكرام وتشريف خاصين وعمل جهادي متصل.

الرابع عشر : يأتي الوحي للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو بين الناس، وأما الإسراء فانه إحتاج إلى إنتقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم ببدنه فأخذه الملائكة حينما إنفرد عن الناس.

(١) مجمع البيان ١/ ٥٥٤.

(٢) البهيم: أي الذي لا يخالط لونه شيء سواه، ومنه الأسود البهيم.

الخامس عشر : ساعات الليل أكثر مناسبة للنجوى، ورؤية الآيات، ونفاذ البصيرة.

السادس عشر : في ظلمة الليل ووسط مجتمعات الكفر والشرك ينبثق صوت الاسلام بصعود النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى السماء.

السابع عشر : النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليس وحيداً في الدنيا، وغير مستوحش من إغراض الكفار وصدود مشركي قريش، وأبواب السماء مفتحة له وهو عنوان المدد الملكوتي ومقدمة لنزول الملائكة لنصره وتثبيت رسالته كما حصل في معركة بدر قال تعالى ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ﴾ (١).

ومن وجوه تفضيل النبي صلى الله عليه وآله وسلم على الأنبياء الآخرين ان موسى عليه السلام وهو من الرسل أولي العزم بُعث إلى بني إسرائيل وكان يخاف من فرعون، والنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم واجه كبراء قريش وأهل مكة، وفي التنزيل ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ (٢).

الثامن عشر : إنه إستقبال للنهار وللجهاد العلني في سبيل الله عزوجل، وكأن الليل عنوان الدعوة السرية في بداية البعث النبوية.

التاسع عشر : الإعداد للإمامة والرياسة العامة في أمور الدين والدنيا يجري في الليل والنهار، في الليل يكون الإنقطاع إلى الله،

(١) سورة آل عمران ١٢٤.

(٢) سورة الكافرون ١ - ٢.

وفي النهار الجهاد والدعوة إلى الله عز وجل.

العشرون : وعن الإمام علي عليه السلام "عند الصباح يحمد القوم السرى" أي المسير بالليل وقطع المسافة بدل بقاء القوم في نفس المكان، وفيه حث على الكسب وإستثمار الفرص، وبيان موضوعية السعي في الليل وإستشهد الإمام به لبيان التزود للآخرة، والتحلي بالصبر في الحياة الدنيا إذ قال في خطبة له (و الله لقد رقعت مدرعتي هذه حتى استحييت من راقعها ولقد قال لي قائل ألا تنبذها ، فقلت أعزب عني فعند الصباح يحمد القوم السرى)^(١).

الواحد والعشرون : الإسراء مقدمة جهادية لمعرفة الأحكام الشرعية وتبليغها إلى الناس كافة.

الثاني والعشرون : إن الليل والنهار من خلق الله تعالى ومستجيبان لأمره وهما جزء من سلطانه تعالى، وجعل كلاً منهما آية من آياته ومناسبة كريمة لإحتواء أعظم الآيات وأدق الاسرار. الثالث والعشرون : تحت الآية على عدم إستغلال الليل في معصية الله والفواحش، فقد شرف الله الليل بأن جعله وعاءً زمانياً لأعظم آية جامعة وهي الإسراء والمعراج إلى السماء.

الرابع والعشرون : تبين الآية التشريف والتفضيل للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم على الأنبياء السابقين بخصوص الإسراء في الليل وإن كان موضوع الإسراء تشريفاً ظاهراً ومستديماً، والتفضيل في الآية بلحاظ ماورد في نبي الله موسى، قال تعالى ﴿فَأَسْرِ بِعَبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُّسَبُّوْنَ﴾^(٢) فكان إسراء

(١) مجمع البيان ٩/ ١٣٢.

(٢) سورة الدخان ٢٣.

موسى عليه السلام في الأرض مقروناً بوجل وخوف ورجاء النجاة، وإسراء النبي صلى الله عليه وآله إلى السماء بتكريم وعز وتحصيل للمعارف.

الخامس والعشرون : لقد أخلص النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في عبادته وانقطاعه لله تعالى، وجاء مدحه في القرآن بقوله تعالى ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ﴾^(١).

السادس والعشرون : لقد جاءت نعمة الإسراء دفعة واحدة، بينما ورد في موسى عليه السلام ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ﴾^(٢) ولم يكن عروجا إلى السماء.

السابع والعشرون : ذكر الليل جاء مطلقاً وعلى نحو التنكير ويعنى أنه في شطر وجزء من الليل، فالتنكير يدل على التبويض والجزئية والإخبار بأن الإسراء لم يستوعب تمام الليل لبيان الإعجاز، ولمسيرة شهر كامل مع الأسباب والرواحل فتم الإسراء بجزء من الليل من غير آلة ووسيلة ظاهرة، بالإضافة إلى دفع وهم وسد الطريق أمام الذي يدعي في صباح ليلة الإسراء أنه قد رأى النبي أول الليل مثلاً، لذا ترى المشركين لم يحتجوا بذلك لمحاولة نفي حصول الإسراء، كما تؤكد النصوص والروايات حصول الإسراء في جزء وشط من الليل، وأشهد بقراءة عبد الله بن مسعود وحذيفة (من الليل) بدلاً من (ليلاً).

ونسبة الإسراء بالنبي إلى الله تعالى، فيها مسائل:
الأول : إنها حجة قرآنية.

(١) سورة المزمل ٢٠.

(٢) سورة الاعراف ١٤٢.

الثاني : تثبيت للمعجزة وشهادة قرآنية على أنها تمت بأمر الله وبفضله تعالى.

الثالث : قطع الشك والريب في آية الإسراء.

الرابع : منع التساؤل المرتكز على المادة والأسباب الظاهرية فحسب.

الخامس : بلوغ النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم مرتبة الإسراء به في السماوات رحمة ودعوة للتوجه الى الله تعالى في سؤال ما هو خارق للعادة ومفارق للأسباب والقدرة الشخصية، فقد يحصل تعارض بين آمال الإنسان وبين قدراته فغالباً ما تتخلف القدرات والإمكانات عن الآمال والطموحات.

فتأتي نسبة الإسراء إلى الله تعالى لبيان بديع قدرته، وعظيم إحسانه وبعث آمال المؤمن في الحياة، وجعل نفسه مستبشرة مطمئنة.

السادس : في هذه التسمية المباركة بشارة التوفيق وتحقيق الأمان.

السابع : تشجع نسبة الإسراء إلى الله عز وجل على الطموحات السائغة شرعاً.

الثامن : فيها دروس في التأسي بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وسيرته الشريفة فما يفعله إنما هو من الله تعالى وبأمره.

التاسع : قال تعالى ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا

وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾^(١) فكذا قوله وفعله وسنته صلى الله عليه وآله

وآله وسلم الفعلية لا تصدر إلا من الله تعالى، والإسراء صادر بالأولية بإذنه تعالى لما فيه من الإعجاز والأمر الخارق.

العاشر : تشريف وأمان للمسلمين إذ أن إكرام الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم على نحو القضية الشخصية ينحل

ليشمل عموم المسلمين، وفي جميع الأزمنة.
الحادي عشر: هذه التسمية موضوع للإحتجاج ويفتخر بان موسى كليم الله، الأمر الذي ثبته القرآن ولم ينكره، ولكنه بين ما إنفرد به النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من الخصائص والمعجزات.

الثاني عشر: الإخبار عن الواقع على نحو الصدق والحق، لأن الله عز وجل هو الذي أسرى بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ولا يستطيع أحد من الخلائق الإنتقال والسياحة في عالم السماء إلا بأمر الله.

الثالث عشر: تمنع الآية من الحسد وإزدياد وتيرة العداوة والبغضاء للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، فان الكفار والمنافقين ينشغلون بأمر الله تعالى ومشيتته في الإسراء وتنصرف أبصارهم عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأن نسبة الإسراء إليه تعالى تجعل موضوع الإسراء بالنبي آية من عند الله وليس إسراء النبي بالذات، وكأن الإسراء معلول لعلة وهي بعث وأمر الله الأكيد بالإسراء ومسبب لسبب وهو إرادته ومشيتته.

وقوله تعالى ﴿لَيْلًا﴾ يفيد أن الإسراء- رواحاً ومحيثاً- كان في ليلة واحدة قبل ان يطلع فجرها مما يعدل مسيرة شهر، وعرج به في ملكوت السماوات مسيرة خمسين ألف عام.

فالعلة في الإسراء ليست مادية وهي العلة الداخلية التي يكون المعلول معها بالقوة، بل هو من العلة الفاعلية الخارجة عن قدرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، لذا ورد قوله تعالى ﴿بِعَبْدِهِ﴾ لنفي القدرة على الإسراء عن غير الله عز وجل فهو وحده سبحانه

القادر عليها قال تعالى ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(١).

قوله تعالى ﴿بِعَبْدِهِ﴾^(٢)

الآية تتعلق بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بإجماع المسلمين، وقال جماعة من أهل العرفان أنها تدل على شرف العبودية أي الإخلاص في العبادة وإرتقائها وعلوها على النبوة، وأن الله تعالى لم يقل أسرى بنبيه.

ولكن هذا الإستدلال في تفضيل العبودية على النبوة، لا دليل عليه لثبوت شرف مقام النبوة وأنها تفضيل وصفة تكريم زائدة، ونخشى من يأتي ويقول أن العبد بإخلاصه وصلاحه خير من النبي، وأن في آخر الزمان رجالاً أشرف وأعظم من الأنبياء ويلبس القول لباس العرفان أو يأتي ببعض وجوه المقارنة مما يحتاج إلى تنقيح يحول دون إستغلاله، فليس من صفة أفضل من النبوة التي تمثل أعلى مراتب الكمال الإنساني ولموضوعية الوحي، قال تعالى ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾^(٣).

نعم يمكن أن تستقرأ إطروحات جديدة من هذه الآية وغيرها في ذكر صفة العبودية دون النبوة من غير أن تتعارض مع أفضلية وشرف النبوة التي تنفرد بخصوصية تشريف، وهي تلقي النبي الوحي من الله عز وجل من غير واسطة من البشر منها :

الأول : إن الإسراء تشريف حدث في أيام التكليف والعبودية لبيان خصوصية للنبي محمد صلى الله عليه وآله

(١) سورة الشورى ١٢.

(٢) سورة الإسراء ١.

(٣) سورة الكهف.

وآله وسلم وما شرفه الله به من دون العباد فان رؤيته
للأنبياء في السماء تشريف بعد الموت للأنبياء بل ولغير
الأنبياء من الأولياء ولكنه في حياة التكليف إختص
وإنفرد به النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم فلم
يلتقي أحد من البشر بالأنبياء مجتمعين إلا هو.

الثاني : دراسة الصلة بين سجود الملائكة لآدم عليه
السلام، ورفض إبليس للسجود، وبعد أن إحتج
الملائكة على جعل الإنسان خليفة في الأرض، جاء
الرد الإلهي ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١) ليصعد النبي
محمد صلى الله عليه وآله وسلم في ملكوت
السموات، وهو لا زال في الدنيا، وخلافة الأرض،
تشريفاً له، وليلتقاء الملائكة بالحفاوة والإستبشار
والبشارة.

الثالث : إنه إخبار إعجازي لما يحصل في هذا الزمان
من الصعود الى السماء، والإرتقاء السريع بالسياحة
في بعض أرجائها كما أنه نوع تحد سابق في أوانه.

الرابع : إرادة المعنى الأعم والحث على التقوى
والصلاح، وأن العبودية والإخلاص في العبادة يفتح
أبواباً في طهارة النفس وصفاء السريرة والعلوم التي
تأتي هبة او إكتساباً.

الخامس : ما وصل إليه العلماء بعد نحو ألف
وأربعمئة سنة من حادثة الإسراء المباركة وبعد جهود
متصلة وأموال طائلة أنفقت وتنفق في الصعود في

السماء ، لم يبلغ معشار ما حاز شرفه النبي صلى الله عليه وآله وسلم بإعجاز للإخبار بأن الجديد المستحدث موجود عند أشرف المخلوقات وبواسطته عند أوليائه والمؤمنين.

ولكن حصتنا منه العبادات وأحكامها ومعرفة أحوال الآخرة والتسليم بمحصول الإسراء وتلقي المعارف الإلهية بالواسطة وعبر السنة القولية والفعلية، فقد شرعت بعض أحكام الصلاة والأذان عند عروج النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى السماء.

السادس : الإسراء حث للناس على طلب العلم والسعي في الارتقاء إلى السماء وأفلاكها وإخبار عن حصوله بالكسب والتحصيل، وردع عن إصابتهم بالغرور فيما سيبلغون من سياحة في السماء لأنها محدودة وجزئية بالقياس إلى آية الإسراء، فالعروج إلى السماء بمسيرة خمسين ألف سنة تم في شطر من ليلة إذ لم تكن ثمة مسافة.

السابع : في دراسة مقارنة من خلال قوله تعالى ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ ^(١) يظهر لك التفضيل والتشريف للنبي صلى الله عليه وآله وسلم بالعروج إلى السماء في شطر من ليلة وكأنها أقل من المسافة الشرعية التي يترتب فيها على المسافر حكم القصر في صلاته والإفطار.

الثامن : معصية إبليس بعد تشريفه وإرتقائه إلى السماء

وطرده منها ثم صعود النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى السماء طائعاً خاضعاً بصفة العبودية التي تعني الإنقياد التام والخضوع توثيق سماوي وبيان لشرف الإنسان وأهليته لوراثة الأرض.

التاسع : أراد الله عز وجل أن يرى الملائكة أهلية الفرد الكامل من البشر للتشريف والإكرام الخاص، وإستحقاقه للسجود إليه يوم خلق الله آدم.

وفيه أيضاً دعوة للناس للصلاح والتأسي والسعي ونيل الدرجات السامية بالتقوى وملكة الإيمان، خصوصاً وأن الملائكة أمروا بالسجود لآدم لأنه يحمل نور النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم كما في الخبر.

العاشر : مما هو ثابت في علم الكلام أن ما ناله الأنبياء من المقامات والآيات الإعجازية هو عند النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لأنه منتهى الكمالات الإنسانية، وفي الإسراء آية إعجازية أخرى وهي أن الذي سوف يناله الناس فيما بعد بالعلم والكسب والتحصيل من إرتقاء وسياحة محدودة في عالم السماء حصل عليه النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بفضل منه تعالى، وفيه دعوة للعلم الكسبي في هذا الباب، وإظهار معاني العبودية لله والإقرار ببديع صنعه قال تعالى ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ (١) .

الحادي عشر : ورد في كلام بعض العرفاء: النبي برزخ بين الخالق والمخلوق)، ولكن لا مرتبة وسط بين الخالق والمخلوق، بين واجب الوجود والممكنات، نعم النبوة مرتبة تعني الرفعة والكمال الإنساني تولد بصفة تشريفية زائدة هي أيضاً بفضل وإرادة من الله تعالى

ومن غير مغادرة لمنازل الامكان.

الثاني عشر : عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: إتخذني الله عبداً قبل أن يتخذني نبياً^(١).

ليبين مقام العبودية وأهليته وإعتباره في حياة الناس. وفي الحديث "الصلاة معراج المؤمن"^(٢)، إنها معراج مجازاً وإن العبد يرتقي بها في السماء لتكون نعمة الإسراء عند المسلمين عامة، حاضرة إجمالاً في الوجود الذهني ساعة الإنقطاع إلى الله.

الثالث عشر : إن الإسراء رافة ولطف إلهي وإحسان خاص وعام، خاص بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم، وعام للمسلمين والناس والملائكة.

الرابع عشر : إنه مدخل ليقوم النبي بأعباء النبوة والرسالة بعد ما رأى من عظيم الآيات، وسعة ملك الله سبحانه وجبروته وقوته.

الخامس عشر : الآية لا تدل على أفضلية صفة العبودية على النبوة وإن كان الإسراء معجزة إلا أنه لا يعني إنفراد واستقلال صفة العبودية عند النبي، بل العكس هو الصواب، أي أن الإسراء بصفة العبودية يدل على تفضيل النبوة وأنها تتضمن أسراراً وهبات عظيمة.

وقد تفضل الله عز وجل بالوحي وتنزيل الآيات الباهرات قال سبحانه ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيَّ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾^(٣)، وقيل أوحى إليه، أن

(١) تاريخ مدينة دمشق ٤/٧٦.

(٢) مفاتيح الغيب ١/٢٤٣.

(٣) سورة النجم ١٠.

الجنة محرمة على الأنبياء حتى تدخلها وعلى الأمم حتى تدخلها أمتك^(١).

وفي سورة الفاتحة التي يقرأها المسلمون كل يوم في فرائض الصلاة ورد قوله تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^(٢) فقد تمت العبادة والاقرار بالعبودية على الاستعانة وكأنه مقدمة للحاجة بلسان الذل والخضوع.

كما ان المسلمين يأتون بالشهادتين في الصلاة وتتضمن الإقرار بالتوحيد والتصديق بالنبوة فقد تمت صفة العبودية في حال الثناء على النبي صلى الله عليه وآله وسلم والشهادة بنبوته، وفيه بيان لموضوعية صفة العبودية وما يترشح عنها من الفضل والشرف والعز، لقد بالغ اقوام في منازل الانبياء وقاربوا بها الربوبية، فجاء الاسلام ليتصدى الى تلك المبالغة بنفس الصيغ الجهادية والتربوية التي رسخها في اكرام الانبياء، ومعرفة حقيقة ارتقائهم على البشر منزلة وعلماً وكرامة.

وعن صهيب أن معاذاً لما قدم من اليمن سجد للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا معاذ ما هذا قال : إن اليهود تسجد لعظمائها وعلمائها ورأيت النصارى تسجد لقسسها وبطارقتها قلت : ما هذا قالوا : تحية الأنبياء فقال عليه السلام كذبوا على أنبيائهم^(٣).

وبذا تظهر الحاجة للإسلام في منع الغلو في الدين وفضح التحريف.

(١) الكشف ٢٩/٤ .

(٢) سورة الفاتحة ٥.

(٣) مفاتيح الغيب ١/٤٩٤ .

واستمر الصحابة والائمة عليهم السلام في التصدي لصيغ الغلو وأماراته ليتجه الناس الى التوحيد والاخلاص في العبادة.
فعن الثوري سماك بن هاني قال: دخل الجاثليق^(١) على علي بن ابي طالب فاراد ان يسجد له.
فقال له علي: اسجد لله ولا تسجد لي^(٢).

ولما رأى النصارى الآيات من عيسى باحيائه الموتى وابرائه الاكمه والابرص جرده بعضهم من صفة العبودية واتخذوه معبوداً لذا ورد في التنزيل ﴿لَنْ يُسْتَنَكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يُكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾^(٣).

وعن الإمام محمد الباقر عليه السلام قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جالس وعنده جبرئيل، إذ نظر جبرئيل نحو السماء فامتقع لونه حتى صار كأنه الكركمة.
ثم لاذ برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فنظر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الى حيث نظر جبرئيل فاذا شيء قد ملأ ما بين الخافقين مقبلاً حتى كان كقاب من الأرض، ثم قال: يا محمد صلى الله عليه وآله وسلم: إني رسول الله إليك أخبرك أن تكون ملكاً أحب إليك أو تكون عبداً رسولاً.

فألتفت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الى جبرئيل وقد رجع إليه لونه فقال جبرئيل: بل كن عبداً ورسولاً، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بل أكن عبداً رسولاً فرفع الملك رجله اليمنى فوضعها في كبد سماء الدنيا، ثم رفع الأخرى فوضعها في

(١) الجاثليق: بفتح التاء، هو رئيس النصارى في بلاد الإسلام، ولغتهم السريانية.

(٢) تفسير الرازي ١١٢/٢.

(٣) سورة النساء ١٧٢.

الثانية، ثم رفع اليمنى فوضعها في الثالثة، ثم إنتهى إلى السماء السابعة، بعد كل سماء خطوة وكلما ارتفع صغر حتى صار آخر ذلك مثل الصرد.

فالتفت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى جبرئيل وقال: لقد رأيتك ذعراً وما رأيته شيئاً كان أذعرنى، من تغيير لونك. فقال: يا نبي الله لا تلمني أتدري من هذا، قال: لا قال إسرافيل حاجب الرب فلم يزل من مكانه منذ خلق الله السماوات والأرض فلما رأيته منحطاً ظننت أنه جاء بقيام الساعة، فكان الذي رأيته من تغيير لوني لذلك، فلما رأيت ما إصطفاك الله به رجعت لوني ونفسي، أو ما رأيته كلما إرتفع صغر اذ ليس شيء يدنو من الرب إلا يصغر لعظمته.

إن هذا حاجب الرب وأقرب لله منه.

واللوح بين عينيه من ياقوتة حمراء، اذا تكلم الرب تبارك وتعالى بالوحي ضرب اللوح جبينه فنظر فيه ثم القاه اليها فنسعى به في السموات والأرض^(١).

ولا بد أن إختيار صفة العبودية هنا أعظم نفعاً وأجراً، فاختارها النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو بمشورة جبرئيل، فلا غرابة ان يرزقه الله عزوجل الإسرائاء بصفة العبودية مع ملازمتها لشرف الرسالة.

فذكر صفة العبودية في آية الإسرائاء يلزمها انطباقاً ذكر الرسالة، ليكونا معا حقيقة خارجية واحدة إتصف بها النبي صلى الله عليه وآله وسلم وليكون مؤهلاً لأعلى الدرجات في السماء. ان العروج بصفة العبودية دلالة على الإرتقاء النوعي الإنساني بالإسرائاء وتخلصه من الكدورات الظلمانية بالإسلام وإنتقاله من

(١) بحار الأنوار ٢٥١/٥٦.

حضيض البهيمية إلى عالم الإفاضة الملكية، وقد قسم أهل العرفان قوة النفس الى قسمين:

الأول: القوة النظرية وتعني إستعدادها لقبول صور الموجودات الغيبية وتسعى هذه القوة في مسالك المعرفة وأشرف مصاديقها بلوغ منازل التوحيد وشهادة ان لا اله الا الله.

الثاني: القوة العملية وتتضمن قابلية التصرف المادي فيما حولها، وإرتقاؤها في مزاولة الصالحات وتعاهد مناسك العبادة.

تفسير قوله تعالى ﴿مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾.

من: حرف جر اصلي له عدة معان منها انه ابتداء للغاية، وهي على قسمين:

الأول: زمانية كقوله تعالى ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾^(١).

الثاني: مكانية كما في هذه الآية الكريمة.

فالآية الكريمة تدل على إبتداء الإسراء من البيت الحرام، وفيه مسائل:

الأولى: ورد لفظ ﴿الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ في القرآن أربع عشرة مرة، تتعلق بتعيينه قبلة للمسلمين وبجهاد المسلمين للوصول إليه وأداء مناسك الحج ومحاولات المشركين صد المسلمين عنه، وذكر الإسراء ضمن مواضع المسجد الحرام يدل على موضوعيته في الإحتجاج على الكفار خصوصاً وانه حصل قبل الهجرة النبوية الشريفة.

الثانية: تبين الآية شرف هذا الموضع المبارك وأنه أم الأرض لذا فان النصوص وردت بدحو الأرض أي إنسائها وتسويتها من تحت

الكعبة وهو متأخر عن خلق السماء ، قال تعالى ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾^(١).

الثالثة : جاء وصف الحرام للمسجد لما له من الحرمة والمنعة والتتزيه والاحكام الخاصة، فيحرم فيه ما لم يحرم في غيره من المساجد، من وجوه:

الأول: إنه مسجد وتشمله أحكام المسجدية.

الثاني: ام لعنوانه الخاص وأنه البيت الحرام واحكامه التي يشترك معه فيها المسجد النبوي كعدم جواز إجتياز ومرور الجنب والحائض فيهما.

الثالث: أحكامه الخاصة التي ينفرد بها مثل الطواف والإعتمار.

الرابع: عدم إخراج اللاجئ إليه وإن كان جانياً.

الرابعة : قد يرد إسم المسجد الحرام ويراد منه مطلق الحرم سمي به جملة الحرم تسمية للشئ بأشرف أجزائه وأهمها كما في قوله تعالى ﴿فَكَرَّوْا رُكْبَةً﴾^(٢) والمراد تحرير العبد.

إن ذكر المسجد الحرام بالخصوص كمنطلق وموضع لبدء الإسراء دلالة قرآنية على شرف الإسراء وعظمته حتى على فرض أن الإسراء حصل من بيت أم هانئ كما هو المشهور، أي أن الأمر ليس من إطلاق الجزء وإرادة الكل فحسب بل من إضفاء قدسية وحرمة البيت الحرام على معجزة الإسراء وإن بدأت من خارج المسجد الحرام.

ووقع الاختلاف بين الفقهاء في حرمة دخول الكافر إلى المسجد الحرام، فقال مالك بالحرمة، ونقل عن أبي حنيفة الجواز، وقالت

(١) سورة النازعات ٣٠.

(٢) سورة البلد ١٣.

الامامية والإمام الشافعي بعدم جواز دخوله الحرم لعمومات قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ﴾ ^(١) وقيل قد يكون المراد من المسجد الحرام الحرم لقوله تعالى ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ ^(٢). وإنما أسري به من بيت خديجة أو بيت أم هانئ ، وتحتمل الآية وجهين:

الأول: إرادة المسجد فقط.

الثاني: المقصود من البيت الحرم كله، وبيت خديجة هو الذي ولدت به فاطمة زهراء عليها السلام ^(٣).

الخامسة: إن مبيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم في بيت أم هانئ أعم من بدء الإسراء من بيتها، وإن أخرجه الملكان من البيت، خصوصاً وأن بيوت قريش عامة كانت قريبة من البيت الحرام، فالبيت الذي ولد فيه النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم مجاور للمسجد الحرام، والبيوت محيطة بالمسجد الحرام، ولم يكن البيت بالسعة التي عليها هو اليوم.

السادسة: إن بدء الإسراء من المسجد الحرام تأكيد للأهمية العقائدية للمسجد الحرام فهو قبلة المسلمين يتوجهون له في صلاتهم كل يوم، وهو مطاف الحج والعمرة، فقلب كل مسلم يشاق للمسجد الحرام.

وإنطلاق الإسراء من المسجد الحرام يؤكد أن موضوع الإسراء

(١) سورة براءة ٢٨.

(٢) سورة الأسراء ١.

(٣) وهو في هذا الزمان مكتبة مكة العامة.

يهم كل مسلم لذا ترى أنه تضمن تشريعات وأحكاماً عندما عرج بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى السماء، وفي موضع بداية الإسراء وجوه:

الأول : من المسجد الحرام.

الثاني : من بيت أم هانئ.

الثالث : من بيت خديجة.

الرابع : من الحرم وان مكة والحرم كلها مسجد.

ولا تعارض بين هذه الوجوه ويمكن الجمع بينها بأن النبي إنتقل من بيت خديجة الى بيت ام هانئ ومنه اخذه جبرئيل الى المسجد الحرام للإسراء به بالإضافة إلى حمل الكلام العربي على ظاهره أي أن الآية صريحة بحصول الإسراء من مسجد الحرام، وهذا التعدد والإختلاف بمنطلق الإسراء وبدايته يجب الا يكون حائلاً دون المواعظ والدروس والعبر ووجوه الحكمة في حصول الإسراء من المسجد الحرام بالذات.

علينا ان نتلمس مضامين الفضل الالهي والمزايا التي ينفرد بها البيت الحرام وحصول الإسراء منه كمكرمة إضافية وتشريف إعتباري للمسجد وعماره، أي أن الإسراء نعمة وفضل إلهي على كل من:

الأول: النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لأنه توكيد لتشريفه

من بين أهل الأرض، وتفضيله على الأنبياء والرسل.

الثاني: الإسراء فضل على المسلمين جميعاً، لما فيه من العلوم

ومصاديق الوحي والمنزلة الرفيعة التي بلغها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من بين الأنبياء، وهو مناسبة للإعطاء والعز والفخر

قال تعالى ﴿لِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(١).

الثالث: الناس جميعاً لما في الإسراء من أسباب الهداية والرشاد.

الرابع: البيت الحرام لبيان قربه من السماء، وطهارته وشرف بقلعه، ونزول الملائكة إليه.

تفسير قوله تعالى ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾

إلى: حرف جر له سبعة معان منها إنتهاء الغاية وهو ينقسم الى قسمين:

الأول: إنتهاء الغاية الزمانية كما في قوله تعالى ﴿اقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾^(٢).

الثاني: إنتهاء الغاية المكانية كما في هذه الآية الكريمة.
فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم إنتهى به الإسراء إلى المسجد الأقصى، والمراد به بيت المقدس وعليه إجماع علماء المسلمين والمفسرين.

ويستحب الصلاة في المسجد الأقصى، وفي الخبر عن علي عليه السلام: صلاة في بيت المقدس تعدل ألف صلاة).

وأخرج الواسطي، عن كعب في بيت المقدس: اليوم فيه كالف يوم، والشهر فيه كالف شهر، والسنة فيه كالف سنة، ومن مات فيه فكأنما مات في السماء الدنيا)^(٤).

(١) سورة المنافقون ٨.

(٢) سورة الاسراء ٧٨.

(٤) الدر المنثور ٦/ ٢٣٠.

وورد عن مسائل ابن سلام للنبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: اخبرني عن موضع الباب الذي فتح من السماء فنزلت منه الملائكة بالرحمة على بني اسرائيل أي موضع هو ؟ قال: مقابل الصخرة التي بييت المقدس ومعراج الأنبياء والأولياء والملائكة المقربين.

ولقد شرف الله المسجد الأقصى ويسمى أيضاً بيت المقدس بنزول آية فيه وفي قوله تعالى ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا...﴾^(١) فقد ذكر أنها نزلت في بيت المقدس ليلة الإسراء (وقيل إن النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم جمع الأنبياء ليلة الإسراء في بيت المقدس فأمهم وقيل له: سلهم فلم يشكك ولم يسأل)^(٢). وكما يستعمل لفظ الأقصى بمعنى البعيد فإنه يستعمل بمعنى الإنفراد يقال الشاة القاصية أي المنفردة عن القطيع البعيدة عنه، لذا ورد أن الشيطان كالذئب يأخذ القاصية والشاذة أي أنه يتسلط على المبتعد عن الجماعة.

وقيل أنه سمي الأقصى لبعده عن التدنيس والأقدار. وقد وردت أخبار ونصوص عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم يخبر فيها عن فتح المسلمين للمسجد الأقصى والشام وإنهما جزء من الكيان الإسلامي. وهل تدل الآية على دخول النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى المسجد الأقصى أم أنه وصل إليه، قال الرازي "ليس في اللفظ دلالة عليه"^(٣).

(١) سورة الزخرف ٤٥.

(٢) الكشاف ٣ / ٤٩٠.

(٣) مفاتيح الغيب ٢٠ / ١٤٧.

والظاهر أن الآية الكريمة تدل على دخوله صلى الله عليه وآله وسلم المسجد لحمل الكلام على ظاهره ولدخول الغاية في المغيى في حال وحدة الجنس، هذا بالإضافة إلى النصوص البيانية والأخبار، وتسمي مدينة بيت المقدس إيلياء، وقال الفرزدق:

وَبَيْتَانِ: بَيْتُ اللَّهِ نَحْنُ وَلَاتُهُ

وَبَيْتٌ، بِأَعْلَى إِيلْيَاءَ، مُشْرِفٌ^(١)

ولقد ذكر الله عز وجل بيت المقدس عدة مرات في القرآن بلفظ القرية والأرض المقدسة والأرض المباركة وسكنه الكنعانيون قبل أكثر من خمسة آلاف سنة قادمين من الجزيرة العربية وقبل اليهودية والنصرانية وقبل إبراهيم عليه السلام وأسسوا فيها حضارة ومدنية، وشرفه الله بعدد غير قليل من الأنبياء والرسل واحتل منزلة عظيمة في التاريخ الإنساني.

وقد كان لذكره في حديث الإسراء حث للمسلمين على فتحه وتعاهده كحاضرة إسلامية، وجعل إحتلال الغير لها أمراً مؤقتاً متزلزلاً غير مستقر وباباً لوحدة المسلمين وتصعيد صيغ الجهاد، ولقد شرف الله بيت المقدس وجعله ثالث الحرمين وأولى القبلتين، وعقدت فيه حلقات الدرس وبرز في أرواقه علماء كثيرون فقال الغزالي (٤٥٠-٥٠٥) للهجرة أنه كان في المسجد الأقصى ثلاثمائة وستون مدرساً.

والآن يسمى الجدار الغربي للمسجد الأقصى بحائط البراق نسبة إلى البراق وهو مركوب النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأنه ربطه في ذات المكان ليلة الإسراء ولا عبرة بالتسمية الأخرى التي أطلقت عليه وهي حائط المبكى، وليس فيها تعارض مع تسميته حائط البراق الذي هو كالتاسخ لما قبله.

قوله تعالى ﴿الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾.

الذي باركنا حوله: جعله الله مقر الأنبياء ومهبط الملائكة مطهراً من الشرك، وهو أقرب موضع من الأرض إلى السماء ولأن صخرة بيت المقدس تقابل باب السماء، وقيل لا ينزل ملك من السماء إلى الأرض إلا على الصخرة، ولا يصعد ملك إلى السماء إلا من الصخرة، وفيه محاريب الأنبياء وآثارهم فقد كان متعبداً للأنبياء ومقاماً لهم.

كما جعل الله الخير والنماء في الأشجار والثمار والنبات والأمن والخصب حواله، لذلك لا يحتاج من بناحيته إلى أن يجلب البر من موضع آخر وتنال البركة المطيفين به ليجمع الله فيه بركات الدين والدنيا.

عن مكحول أن ميمونة سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن بيت المقدس قال: نعم المسكن بيت المقدس، ومن صلى فيه صلاة بألف صلاة فيما سواه وقالت فمن لم يطق ذلك، قال فليهد إليه زيتاً^(١).

تفسير قوله تعالى ﴿لُرَبِّهِ مِنْ آيَاتِنَا﴾

إكرام وتشريف للنبي صلى الله عليه وآله وسلم لتفضل الله سبحانه بإطلاع النبي صلى الله عليه وآله وسلم على الآيات. وصحيح أن (من) تفيد التبعية إلا أنه لا يعني القلة، ولو قلنا أنه يفيد الكثرة لكان هو الأصح، فكل آية هي عالم وجامعة وخزينة تفتح على كنوز عديدة، كما يتعلق موضوع الآيات بالإسراء كآية من آيات الله تعالى، وهو نفسه أي موضوع الإسراء بالنبي صلى الله

عليه وآله وسلم ونقله وانتقاله ينحل الى عدة آيات عظيمة لذا فان ما رآه النبي صلى الله عليه وآله وسلم من الآيات أكبر وأعظم مما رآه ابراهيم في قوله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونُ مِنَ الْمُقِنِينَ﴾^(١) والآيات التي رآها النبي أوسع وأعم وتشمل تكاليف شرعية واجتماعاً بالأنبياء السابقين وغير ذلك مما ورد في حديث الإسراء.

وهذه الرؤية هل كانت خاصة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم أم انتفعت منها الأمة، الجواب هو الأخير ، وإنفع منها الناس جميعاً، فكما أن القرآن نزل على صدر النبي صلى الله عليه وآله وسلم وتلقاه المسلمون بالواسطة وكأنه أنزل عليهم مع الإقرار والتسليم والرضا بأنه أنزل إليهم لتقويم سلوكهم ولهدايتهم إلى سبل الرشاد وطرق الجنة والنعيم الخالد، كذلك فان الآيات التي تفضل الله سبحانه براءتها للنبي صلى الله عليه وآله وسلم إنما هي أيضاً للمسلمين لينتفعوا منها.

فالآية الكريمة تحث على التدبر في حديث الإسراء وأسراره وكيف أنه هبة خاصة وعامة، إنه باب من أبواب السماء فتحه الله لأشرف خلقه دلالة على إستحقاق الإنسان لخلافة الأرض. والإسراء عيد عالمي ومنطلق للعلوم الفلكية والكونية وفق نظريات المعرفة الإلهية.

تفسير قوله تعالى ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾

إن الله يبصر أذى قریش ومكرهم وعداءهم للإسلام وجحودهم الآيات فلقد أحاط علمه بجميع الخلائق دقيقها وجليلها،

يسمع دعاء عبده المؤمن ويبصر مكانه، ويستجيب له بعظيم قدرته وإحسانه ورحمته التي فتح منها باباً فيه فضل على عباده المؤمنين. فهو سبحانه السميع لدعاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأقواله، ولما يتلقاه من المشركين، والبصير بأفعاله وما يلاقيه من أذى المشركين.

والله السميع والبصير برود الفعل لخصوص الإسراء، فالآية تدل على استمرار تعاهد الله لإفاضات آية الإسراء وموضوعها وتثبيتها في الأرض وتهيئة الأسباب لإستخراج العلوم منها، وهو الذي يبصر ويسمع مضامين إيمان المسلمين بالإسراء وينزل عليهم البركات.

الإسراء ونزول القرآن

النزول: الحلول، ونزله وأنزله بمعنى، ومنهم من فرق بين نزلت وأنزلت والأخير للتكثير، وقد يكون النزول للكل والدفع، والتنزيل للتدرج والتعدد، والنزول والصعود من صفات الأجسام وأيضاً الحركة والسكون، لمناسبته الأجزاء والمراحل. ومن علوم القرآن معرفة المكي والمدني، وأن ما نزل قبل الهجرة فهو مكي، وما نزل بعد الهجرة النبوية المباركة فهو مدني على المشهور من وجوه التقسيم وهو علم شريف يساعد على معرفة الناسخ والمنسوخ، والعام والخاص، ويكون عوناً على الإستنباط والتحليل والإستنتاج في بعض المسائل والعلوم.

ومن هذا العلم تعدد التقسيم مثل:

الأول: ما نزل من القرآن في بيت المقدس.

الثاني: ما نزل في الطائف.

الثالث: ما نزل في السفر أو في الحضر.

الرابع: ما نزل في الليل أو النهار.

الخامس: ما نزل في الشتاء او الصيف.

السادس: الآيات التي نزلت بين السماء والارض.

وما نزل في الإسراء يمكن أن نفرد له إصطلاحاً خاصاً وهو مكّي سماوي، وبالإضافة إلى العلوم المستنبطة من هذا العلم فان هذا التقسيم نوع تشريف وإكرام، وفي تفسير علي ابراهيم عن هشام عن الصادق عليه السلام ان هذه الآيات مشافهة الله تعالى لنبيه ليلة أسري به إلى السماء، قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما إنتهيت إلى محل سدرة المنتهى، فاذا الورقة منها تظل أمة من الأمم، فكنت من ربي كقاب قوسين أو أدنى، كما حكى الله عز وجل، فناداني ربي تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾ (١).

فقلت أنا مجيباً عني وعن أمتي ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَأَتْكُمْ وَكُتِبَ وَرُسُلُهُ لَا تَفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (٢).

فقال الله ﴿لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ (٣) فقلت: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنَّا نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ (٤).

وقال الله: لا أوأخذك، فقلت ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ (٥) فقال الله لا احملك.

(١) سورة البقرة ٢٨٥.

(٢) سورة البقرة ٢٨٥.

(٣) سورة البقرة ٢٨٦.

(٤) سورة البقرة ٢٨٦.

(٥) سورة البقرة ٢٨٦.

فقلت ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ ^(١) فقال الله: قد أعطيتك ذلك لك ولأمتك.

فقال الأمام الصادق عليه السلام: ما وفد إلى الله تعالى أحد أكرم من رسول الله حيث سأل لأمته هذه الخصال ^(٢).

لقد كان الإسراء بالجسم والروح، والإسراء هو انتقال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى بيت المقدس بآية من عند الله عز وجل أما المعراج فهو صعوده إلى السموات وفي ذات ليلة الإسراء، الإسراء والمعراج للنبي محمد بجسده وروحه وفي عالم اليقظة والحقيقة.

ومن الفلاسفة من أنكر أن تكون للسموات أبواب لأنها لا تقبل الخرق والإلتئام، وعلم الهيئة ورحلات الفضاء في هذا الزمان تدحض هذا الإنكار.

وفي حديث الإسراء: ثم إنني رفعت إلى سدرة المنتهى فتغشاها فكان بيني وبينه قاب قوسين أو أدنى ونزل على كل ورقة ملك من الملائكة ثم إن الله أمرني بأمره وفرض علي خمسين صلاة وقال: لك بكل حسنة عشر وإذا هممت بالحسنة فلم تعملها كتبت لك حسنة فإذا عملتها كتبت لك عشرا وإذا هممت بالسيئة فلم تعملها لم يكتب عليك شيء فإن عملتها كتبت عليك سيئة.

ثم دفعت إلى موسى فقال: بم أمرك ربك؟ قلت: بخمسين صلاة قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك فإن أمتك لا يطيقون ذلك فرجعت إلى ربي فقلت: يا رب خفف عن أمتي فإنها أضعف

(١) سورة البقرة ٢٨٦.

(٢) بحار الأنوار ١٨/٣٢٩.

الأمم فوضع عني عشرا فما زلت أختلف بين موسى وبين ربي حتى جعلها خمسا فناداني ملك : عندها تمت فريضتي وخففت عن عبادي فأعطيتهم بكل حسنة عشر أمثالها ثم رجعت إلى موسى فقال : بم أمرت ؟ قلت : بخمس صلوات : قال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك قلت : قد رجعت إلى ربي حتى استحييته .

ثم أصبح بمكة يخبرهم العجائب : إني رأيت البارحة بيت المقدس وعرج بي إلى السماء ثم رأيت كذا وكذا فقال أبو جهل : ألا تعجبون مما يقول محمد ؟ قال : فأخبرته بغير لقريش لما كانت في مصعدي رأيتها في مكان كذا وكذا وإنها نفرت فلما رجعت رأيتها عند العقبة وأخبرتهم بكل رجل وبغيره كذا ومتاعه كذا فقال رجل : أنا أعلم الناس ببيت المقدس فكيف بناؤه وكيف هيئته وكيف قربه من الجبل ؟ فرفع لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بيت المقدس فنظر إليه فقال : بناؤه كذا وهيئته كذا وقربه من الجبل كذا فقال: صدقت^(١).

الإسراء والوحي

الوحي لغة: هو الإشارة والكتابة والرسالة وكل ما ألقيته إلى غيرك والإلهام، وهو إعلام في خفاء، ولذلك سمي الإلهام وحيًا، ولكن الوحي من الكليات المشككة فهو يقع على مسميات متعددة ذات معنى واحد، ومنها ما يكون الوحي ظاهراً للرسول، وهو مصدر وحي إليه، والأصل فعول مثل فلوس، يقال الوحا الوحا أي بسرعة وهو منصوب بفعل مضمر، وموت وحي أي سريع لفظاً ومعنى.

وهو في الإصطلاح وعلم الكلام تعليم والقاء الله عز وجل للأنبياء ما يتعلق بأمور الدين بواسطة الملائكة من غير واسطة بشر.

وبين الوحي والقرآن عموم وخصوص مطلق، فكل قرآن وحي وليس كل وحي قرآنًا، وأول ما بدء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبب إليه الخلاء وكان يخلو في غار حراء.

فيتحنث فيه وهو التعبّد في الليالي ذوات العدد، (لعل العدد هنا الإحصاء والحصر)، قبل أن ينزع إلى أهله ويرجع إلى خديجة ويتزود لمثلها، وقد ورد ذات اللفظ (ذوات العدد) بخصوص نزول سور القرآن وكتابتها.

وعن ابن عباس: قال: قلت لعثمان بن عفان: ما حملكم على أن (عمدتم) إلى الأنفال، وهي من المثاني، وإلى براءة وهي من المثين، فقرنتم بينهما، ولم تكتبوا سطر بسم الله الرحمن الرحيم، ووضعتموها في السبع الطوال^(١). حتى جاء الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال: اقرأ، قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية ثم أرسلني فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾^(٢).

لقد اجتهد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالاعتزال عن الناس في غار حراء فجاء الإسراء فضلاً وثناءً ولتحصل المشاهدة للآيات الكونية مقرونة بالأحكام الشرعية، ولم يكن إعتكاف النبي صلى الله عليه وآله وسلم في غار حراء فعلاً شخصياً ورياضة

(١) الكشف والبيان ٧٩/٦.

(٢) سورة العلق ١ - ٥.

روحية وإشتغالا بالتسبيح والنسك وحده، بل كان مقدمة لتلقي النبوة وتهياة نفسية وروحية وبدنية لنزول القرآن خصوصاً مع شدة وطأته وكأنه قراءة قلبية للآيات.

وقد يحصل أهل التقوى على الكشف، وأهل الوصل على ما يسمى بالإلهام وهو حس ذاتي ووجدان نفسي وتوظيف للاشعور او الحاسة السادسة ولا يرقى إلى الوحي بمعناه الإصطلاحي ويكون من العلم الكسبي وليس الوهبي.

لقد كان أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم يرون ما يصيبه من الكرب وأن جبينه يتفصد عرقاً في اليوم الشديد البرد ساعة نزول الوحي في آية وجزء فلسفة الرسالة ومشقة تحملها، لذا فمن مستلزمات الوحي إمتلاك شخصية النبي صلى الله عليه وآله وسلم للكمالات الإنسانية كمقدمة عقائدية وإجتماعية ومصدر توفيق ومدخل لتصديق الناس وإستماعهم له، فمن لا يكون صادقاً مع الناس في سيرته ومعاملاته وكلامه لا يصدق الناس بدعوى النبوة.

قال تعالى في الثناء على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(١).

والوحي من عالم الأمر وهو عنوان القدرة الإلهية وتجسيد مبارك لإتصال نفخ الروح في آدم عليه السلام باسمه معانيه فهو غير منحصر بالأصوات والحروف والألفاظ أو المعاني والأعراض، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٢)، في رد الله عز وجل على الملائكة حينما إستفهموا عن جعل خليفة في

(١) سورة ن ٤.

(٢) سورة البقرة ٣٠.

الأرض ﴿يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾^(١).

فمن علم الله عز وجل الوحي إلى الأنبياء، ونزول القرآن، والإسراء بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وتثبيت أحكام الشريعة، ومنع أهل الضلالة والمفسدين من الإستيلاء على منازل السلطان والحكم في الأرض على نحو مستديم.

فالإسراء يظهر الجانب العملي المبارك للوحي، ومرحلة متقدمة منه ليرى النبي صلى الله عليه وآله وسلم الآيات من غير واسطة، فجبرئيل عليه السلام هو الواسطة والملك الموكل بالنزول بالوحي على الأنبياء عامة وبالنزول بآيات القرآن على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم خاصة.

وأخرج البخاري ومسلم والبيهقي، عن عائشة: أن الحارث بن هشام سأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كيف يأتيك الوحي قال: أحيانا يأتيني الملك في مثل صلصلة الجرس، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال ، وهو أشده علي وأحيانا يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول^(٢).

وتلك حالة أي رؤية الملك يختص بها الرسول دون النبي، وأراد الله عز وجل للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أن ينفرد بحالة تشريفية خاصة لم ولن ينالها إنسان وهي السياحة والإرتقاء في عالم السماء، وبالإسراء تعددت أسباب الفيض الإلهي وشعاب رحمته وروابط جوده وسبل المعرفة الإلهية والشهود العياني والقلبي، إنه كمال النبوة ومن الصفات التي تكون مؤهلات للنبوة ومن خصالها العصمة من الزلل والمعصية لأن القلوب لا تنجذب

(١) سورة البقرة ٣٠.

(٢) الدر المنثور ٨٣/٩ .

إلى صاحب المعصية وأن يكون النبي أفضل أهل زمانه بجميع الفضائل والمحاسن والكمالات ، وأن يكون أميناً ، ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان بن حرب عن صفات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم قال له : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال أبو سفيان لا . فقال هرقل : أعرف أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ثم يذهب ليكذب على الله ^(١).

وقد كان النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم يسمى "الصادق الأمين"، وان يكون شجاعاً لا تاخذه في الله لومة لائم، ونحوها من الاخلاق والصفات الحميدة.

لذا فان إخباره عن الإسراء حق وصدق وكما يصح ان نستدل بالبرهان اللمي أي من العلة على المعلول، كذلك يمكن ان نستدل بالبرهان الإنسي أي من المعلول إلى العلة، فإخبار النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالإسراء دليل على صدقه في الأخبار عن النبوة لأن حديث الإسراء يتضمن أسراراً لا يمكن للإنسان أن يطلع عليها بقدرته الشخصية بل التسخيرية لبعض المحكومات فقد بلغ النبي صلى الله عليه وآله وسلم منازل لم يطأها أحد غيره .

وأخرج مسلم عن ابن مسعود قال: لما أسري برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم انتهى به إلى سدرة المنتهى ، فأعطي ثلاثاً : أعطي الصلوات الخمس، وأعطي خواتيم سورة البقرة ، وغفر لمن لا يشرك بالله شيئاً من أمته المقحّمات ^(٢).

وقال السيوطي: في كيفية الوحي ان يكلمه الله اما في اليقظة كما في ليلة الإسراء ^(٣)، أي ان الوحي ليلة الإسراء اتصف بخصوصية

(١) أيسر التفاسير ١/ ١٣٨.

(٢) الدر المنثور ٢/ ٢٧٢.

(٣) الإتقان في علوم القرآن ١/ ٥٠.

التكليم من غير واسطة وفي حال اليقظة وليس وحي منام فكما كان موسى عليه السلام تكليم الله فكذلك الرسول الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وسلم كلمه الله ليلة الإسراء.

وفي الخبر عن الإمام الصادق عن أبيه عن جده أمير المؤمنين عليه السلام: "أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أخذته نعسة وهو على منبره فرأى في منامه رجالاً ينزون على منبره نزو القردة يردون الناس على أعقابهم القهقري فاستوى رسول الله صلى الله عليه وآله جالساً والحزن يعرف في وجهه فأتاه جبرئيل عليه السلام بهذه الآية ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ (١).

وفي تفسير ابن كثير وأما "الشجرة الملعونة"، فهي شجرة الزقوم، كما أخبرهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه رأى الجنة والنار، ورأى شجرة الزقوم، فكذبوا بذلك حتى قال أبو جهل لعنه الله "بقوله" هاتوا لنا تمراً وزبداء، وجعل يأكل هذا بهذا ويقول: تَزَقَّمُوا، فلا نعلم الزقوم غير هذا (٢).

وذكر أن الآية نزلت في ملك بني أمية، وعن ابن عباس: الشجرة بنو أمية يعني الحكم بن أبي العاص قال ورأى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في المنام أن ولد مروان يتداولون منبره فقصر رؤياه على أبي بكر وعمر وقد خلا في بيته معهما فلما تفرقوا سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الحكم يخبر برؤيا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاشتد ذلك عليه، واتهم عمر في إفشاء سره، ثم ظهر أن الحكم كان يتسمع إليهم فنفاه رسول الله

(١) سورة الإسراء ٦٠.

(٢) تفسير ابن كثير ٩٢/٥.

ولا مانع من تعدد وجوه تأويل الآية وتفسير رؤيا النبوة التي هي بمنزلة الوحي ، والآية وان كانت مكية وليس عنده صلى الله عليه وآله وسلم منبر فيها، إلا أنه لا يمنع من الرؤيا وما فيها من الإخبار والبشارة عن منبره في المدينة وسلطان دولة الإسلام.

بحث كلامي

من مباحث علم الكلام والفلسفة نفى الرؤية عنه تعالى كحقيقة ثابتة مترشحة عن وجوب وجوده تعالى ، وإمتناع رؤيته تعالى ثابتة بالنقل والوجدان والعقل وأكثر العقلاء على إستحالة رؤيته في الدنيا ، وعليه عامة المسلمين ولا عبرة بمن شذ، فهو تعالى ليس بجسم فالجسم له طول وعرض وعمق والله تعالى منزّه عن التشبيه، وهو في كل مكان أي عالم بما في كل مكان محيط بالأشياء جميعاً وهي مستجيبة لقدرته، وليس في جهة دون أخرى.

وقال الكرامية وهم فرقة من المجسمة في القرن الثالث الهجري لم يبق لها اثر، انه سبحانه في جهة ثم إختلفوا في بيانها وتحديدتها، فالبيضية قالوا بانه فوق العرش في جهة لا نهاية لها وبينه وبين العرش بعد غير متناه، والعاودية منهم على ان بينهما بعداً متناهياً، ومنهم من قال إنه تعالى على العرش بلا فصل.

ولعلمهم إستدلوا بظاهر بعض الآيات والنصوص، مثل قوله تعالى ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾^(٢) وقوله تعالى ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾^(٣).

(١) مفاتيح الغيب ١٠/ ٨٢ .

(٢) سورة طه ٥ .

(٣) سورة النحل ٥٠ .

وقوله تعالى ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾^(١) ولكن مع ثبوت إمتناع الجسمية والجهتية ولواحقهما عنه تعالى بالأدلة النقلية والعقلية فلا بد من تأويل هذه الآيات، فاستواؤه على العرش في الآية أعلاه يعني الحكم والملك، والفوقية تعني العلو والسلطان والرفعة ومقام الربوبية ولزوم خضوعهم لها من منازل الذل والعبودية فهو سبحانه ليس في جهة ولا في محل لأنه مستغن عنهما، والإفتقار الى الجهة والمحل من علامات الإمكان، فكل ممكن حادث.

ونسب إلى الأشاعرة القول بأن الله تعالى مع تجرده تجوز رؤيته ولكن الرؤية منتفية عنه ضرورة، أي لا يمكن للمخلوقات أن تراه لإنتفاء الجهة والحيز عنه سبحانه، وإحتجوا بان سؤال موسى ﷺ للرؤية يدل على إمكان الرؤية، ولو كانت الرؤية ممتنعة لما قام موسى وهو كليم الله بسؤال الرؤية، الجواب إن سؤال موسى ﷺ لإقامة الحجة على قومه وللبيان ولا يصح الإستدلال بالسؤال وحده بل لابد من الرجوع إلى نوع الإجابة، وموضوعها وهو الأهم في المسألة، فقد علق الله سبحانه الرؤية في سؤال موسى ﷺ على إستقرار الجبل.

كما أستدل بانه موجود وكل موجود يرى مع نفيتهم للتجسيم، وواجب الوجود يختلف عن الموجودات الأخرى فهو ليس كالأشياء، وإستدلوا بقوله تعالى ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾^(٢).

ولكن النظر هنا مطلق ويشمل النظر إلى آياته وعظيم صنعه وواسع رحمته التي تتجلى يوم القيامة بابهى صورها وإنبساطها وشمولها للخلائق.

(١) سورة الانعام ١٨.

(٢) سورة القيامة ٢٣.

ومنه النظر بالعقل والبصيرة والعين ، والبصر حال حركته وليس على إستقراره مطلقاً (عن الشعبي قال لقي ابن عباس كعباً بعرفة فسأله عن شيء فكبر حتى جاوبته الجبال، فقال لابن عباس: إنا بنو هاشم نزع أن نقول إن محمداً قد رأى ربه مرتين، فقال كعب: أن الله قسم رؤيته وكلامه بين محمد وموسى فكلم موسى مرتين ورآه محمد مرتين.

قال مسروق: فدخلت على عائشة فقلت: هل رأى محمد ربه؟ فقالت: لقد تكلمت بشيء قف^(١) له شعري قلت: رويداً ثم قرأت ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾^(٢) قالت: أين يذهب بك؟ إنما هو جبريل، من أخبرك أن محمداً رأى ربه أو كتم شيئاً مما أمر به أو يعلم الخمس التي قال الله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾^(٣) فقد أعظم الفرية^(٤) ولكنه رأى جبريل، لم يره في صورته إلا مرتين: مرة عند سدرة المنتهى، ومرة في جباد^(٥) له ستمائة جناح قد سد الأفق^(٦).

قوله ﴿قَالَ رَبِّ ارْنِي﴾^(٧) أنظر إليك قيل كيف يجوز أن يكون كلیم الله موسى بن عمران أنه لا يعلم أن الله تعالى لا يرى حتى

(١) قفّ: أي قام من الفزع لما حصل عندها من عظمتة تعالى وهيئته.

(٢) سورة النجم ١٨.

(٣) سورة لقمان ٣٤.

(٤) أي الكذب.

(٥) موضع في أسفل مكة و أصبح مجاوراً للبيت الحرام بعد التوسعة فيه.

(٦) صحيح الترمذي ٣٦٧/٥.

(٧) سورة الاعراف ١٤٣.

يسأله هذا السؤال، وأجاب عنه الامام الرضا عليه السلام ان موسى عليه السلام علم ان الله تعالى جل أن يرى بالأبصار ولكنه لما كلمه وقربه نجياً رجع إلى قومه وأخبرهم أن الله تعالى كلمه وقربه وناجاه قالوا لن مؤمن لك حتى نسمع كلامه كما سمعت وكان القوم سبعمئة ألف رجل فإختار منهم سبعة آلاف ثم إختار منهم سبعمئة ثم إختار منهم سبعين رجلاً ثم خرج بهم إلى طور سيناء فاقامهم في سفح الجبل وصعد إلى الطور وسأل الله إن يكلمه ويسمعهم كلامه. وكلم الله تعالى، وسمعوا كلامه من فوق وأسفل ويمين وشمال، ومن وراء وأمام لأن الله أحدثه في الشجرة ثم جعله منبعثاً منها حتى أنهم سمعوه من جميع الوجوه فقال لن نؤمن لك بان هذا كلام الله حتى نرى الله جهرة فلما قالوا هذا القول العظيم بعث الله عليهم صاعقة فأخذتهم بظلمهم فماتوا.

فقال موسى عليه السلام: يا رب ما أقول لبني إسرائيل إذا رجعت اليهم وقالوا انك ذهبت بهم وقتلتهم لانك لم تكن صادقاً فيما إدعيت من مناجاة الله إياك فأحياهم الله وبعثهم معه. فقالوا إن سألت الله أن يريك تنظر إليه لأجابه ثم تخبرنا كيف هو وتعرفه حق معرفته فقال موسى عليه السلام يا قوم ان الله لا يرى بالأبصار ولا كيفية له وإنما يعرف بآياته ويعلم بأعلامه.

فقالوا: لن نؤمن لك حتى تسأله، فقال موسى عليه السلام رب إنك قد سمعت مقالة بني إسرائيل وأنت أعلم بمصالحهم فأوحى الله إليه يا موسى سلني ما سألو فلن أؤاخذك بجهلهم فعند ذلك قال موسى ﴿قَالَ رَبِّ ارْنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنَّ اسْتَقَرَّ مَكَانُهُ﴾ (١).

أما بالنسبة للرؤية يوم القيامة فقد اختلف المتكلمون فيها
فالشاعرة أثبتوها لقوله تعالى ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا
نَاطِرَةٌ﴾^(١).

ومنهم من قال إن معنى الرؤية هو أن ينكشف لعباده المؤمنين في
الآخرة إنكشاف البدر المرئي، مع نفى الرؤية التي بمعنى الإنطباع أو
خروج الشعاع إنما هي حالة تنتج عن رؤية الشيء والعلم به وقال
الرازي: إن الرؤية بالإرادة لا بقدرية العبد، وقال أيضاً في الرؤية
(والمسألة مختلف فيها بين الصحابة في الوقوع وإختلاف الوقوع مما
ينبئ عن الإتفاق على الجواز)^(٢)، والإختلاف حاصل في ماهية
الرؤية وهل تتعلق بالذات المقدسة أم بآياته تعالى وقد وردت
نصوص في المقام منها ما ورد عن أبي ذر عن النبي محمد صلى الله
عليه وآله وسلم نور أنى أراه^(٣)، بالإضافة إلى إطلاقات الآيات
القرآنية كما في قوله تعالى ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾^(٤).

والظاهر أن مشهور المتكلمين يفرق بين الرؤية في الإسراء،
والرؤية في الآخرة، ويقول برؤية الرسول الأكرم صلى الله عليه
وآله وسلم لآيات ربه في الإسراء.

ونفى المعتزلة الرؤية وقالوا إن النظر أعم من الرؤية وأنه يعني
تقليب الحدة نحو المرئي التماساً لرؤيته.
وهذا النزاع صغروي وهو ليس محلاً للإبتلاء ولا يترتب عليه

(١) سورة القيامة ٢٢ - ٢٣.

(٢) مفاتيح الغيب ٢٨/٢٩٠.

(٣) تفسير ابن كثير ٧/٤٤٩.

(٤) سورة الانعام ١٠٣.

أثر شرعي أو وضعي، ونواميس يوم القيامة تتعدى أوهاام البشر، فلذا ترى بعض العلماء يترك التأويل في المقام، ويتبع إطلاق الكتاب والسنة ولا يخوض في تأويله.

والذات الإلهية واحدة وتبدل العوالم لا يغير لوازم المجرد الضرورية أو يزيحها عنه، ليس من حصر أو حد لآيات الله وبديع صنعه وعظيم عفوه ورحمته يوم القيامة، والناس تنظر وتنتظر المزيد من الفضل الإلهي وما ينشره سبحانه من رحمته.

وأخرج أحمد ومسلم عن سلمان عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن لله مائة رحمة، فمنها رحمة يتراحم بها الخلق، وبها تعطف الوحوش على أولادها، وأخر تسع وتسعون إلى يوم القيامة^(١).

وأخرج ابن أبي شيبة عن سلمان موقوفاً وابن مردويه عن سلمان قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: أن الله خلق مائة رحمة يوم خلق السموات والأرض، كل رحمة منها طباق ما بين السماء والأرض، فأهبط منها رحمة إلى الأرض، فيها تراحم الخلائق، وبها تعطف الوالدة على ولدها، وبها يشرب الطير والوحوش من الماء، وبها تعيش الخلائق، فإذا كان يوم القيامة انتزعها من خلقه ثم أفاضها على المتقين، وزاد تسعاً وتسعين رحمة، ثم قرأ ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ (٢) (٣).

روى الصدوق في كتاب التوحيد عن عاصم بن حميد قال:

(١) الدر المنثور/٤/٣٣٧.

(٢) الدر المنثور/٤/٣٣٧.

(٣) سورة الأعراف ١٥٦.

ذاكرت الإمام الصادق عليه السلام فيما يروون من الرؤية فقال: الشمس جزء من سبعين جزء من نور الستر فان كانوا صادقين فليملأوا عيونهم من الشمس ليس دونها حجاب. وأخرج أبو الشيخ عن عكرمة قال: الشمس جزء من سبعين جزءاً من نور الكرسي، والكرسي جزء من سبعين جزءاً من نور العرش ^(١).

لقد كان الإسراء بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم جسداً وروحاً هبة سماوية للذين قالوا بالرؤية في الآخرة والذين نفوا حصولها فهي رؤية قلبية وعروج بروح المسلم ونظرة تلبية وباب للمعرفة ودعوة للتضرع الى الله عز وجل والتوجه بالرجاء الى فضل الله تعالى وشكر وثناء، وقد جاء عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم: اعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فانه يراك ^(٢). وهذا التشبيه للرؤية هو الذي يترشح عن حديث الإسراء ويلح على أولي البصائر ويدعوهم لاستحضاره والإيمان به والتدبر في معانيه.

هل الجنة والنار مخلوقتان

الجنة والنار محل ثواب الله وعذاب يوم القيامة، والجنة - بالفتح - هي البستان من النخل والشجر وأصلها من الستر لكثرة نعيمها وتكاثف أوراقها والتفاف أغصانها. والأقوى أن الجنة والنار مخلوقتان وموجودتان الآن وهو قول أكثر المتكلمين وعلماء المسلمين، وقال الأقل بأنهما لم يخلقا بعد.

(١) الدر المنثور ١٦٢/٢ .

(٢) مفاتيح الغيب ٢٧٤/٥ .

ومن أظهر وجوه الإستدلال على خلقهما أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم دخل الجنة ورأى النار حين عرج به إلى السماء، وبه إستدل على خلقهما، وإختلف المعتزلة فيما بينهم في موضوع خلق الجنة والنار، وجرياً على عادة العلماء والباحثين في ذكر الأقوال المختلفة في كونهما مخلوقتين ام لا، قام السيد الشريف الرضي المتوفي سنة ٤٠٦ هجرية بذكر أدلة الفريقين وإختار القول بعدم خلقهما.

والقائل بخلقهما احتج بآيات منها قوله تعالى بخصوص الجنة ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(١)، وقوله تعالى بخصوص النار ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾^(٢) ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾^(٣).

ويمكن ان يناقش هذا الإستدلال مع اننا نقول بخلقهما، فصيغة الماضي أعم من اثبات المدعى، فقد ترد ويراد منها القطع والحكم والإخبار، وفي جنة آدم ورد قول عن الإمام الصادق عليه السلام انها من جنات الدنيا، والقائل بانها ليست مخلوقة إحتج بآيات منها قوله تعالى ﴿كُلْ شَيْءٍ هَالِكٍ إِلَّا وَجْهَهُ﴾^(٤) فلو كانت الجنة مخلوقة الآن لوجب هلاكها، وأجيب أن المراد دوام المأكول بالنوع والمراد من الهلاك الخروج من الإنتفاع أو يتعلق بأفراد عالم الدنيا.

ويمكن ان نضيف للجواب وجهاً آخر وهو خروج الجنة والنار بالتخصص من موضوع الآية، فالمراد من الهلاك هلاك الخلائق الحية

(١) سورة آل عمران ١٣٣.

(٢) سورة آل عمران ١٣١.

(٣) سورة البقرة ٣٥.

(٤) سورة القصص ٨٨.

من الملائكة والناس والجن ونحوها.

وربما يستدل على خلقهما ووجودهما فعلاً بقوله تعالى ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾^(١) وهو استدلال لطيف، ورد بان المراد هي النار البرزخية وانه لا يصح الإستدلال بها.

اقول: هذا التقسيم للجنة وللنار أي جنة أخروية وبرزخية وكذا بالنسبة للنار وان كان إستقرائياً يحتاج إلى دليل، وهو مفقود في المقام، وأن الآية تظهر لنا وظائف أخرى للنار غير التي تكون يوم القيامة، فتعدد العنوان والوظيفة وزمانها لا يعني تعدد المعنوي. والآية حجة في خلق النار وإبطال للقول بان خلق الجنة والنار الآن عبث فلهما وظائف عديدة قبل يوم الحساب، وحتى مع عدم الوظيفة، فلا عبث في فعل الله تعالى لأنه حكيم منزّه عن اللهو والعبث والقبیح، وأستدل على إرادة البرزخية بقوله تعالى في الآية ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾^(٢)، وانه لا يصح لنا الإستدلال بلفظ الجنة والنار على الإطلاق بل لابد من إمعان النظر ليعلم ما هو المراد منها، وما ورد في ذيل الآية لا يدل على تقسيم النار ووجود النار البرزخية في مقابل النار في الآخرة، إنما يبين مراتب العذاب وتحقيق دخول الكفار النار يوم القيامة، أي هناك وظائف برزخية للنار وليست ناراً برزخية.

(١) سورة المؤمن ٤٦.

(٢) سورة الروم ١٢.

وقد ورد عن عكرمة^(١)، عن ابن عباس انه قال: قدم يهوديان فسألا أمير المؤمنين عليه السلام فقالا: أين تكون الجنة؟ وأين تكون النار؟ قال: أما الجنة ففي السماء، وأما النار ففي الأرض قالوا: فما السبعة؟ قال: سبعة أبواب النار متطابقات، قالوا: فما الثمانية؟ قال: ثمانية ابواب الجنة.

ولكن يمكن النظر للحديث وفق قاعدة التسامح بادلة السنن بالإضافة لما ورد بطرق أخرى وأخبار عديدة تفيد خلقهما ذكرها المجلسي في بحار الأنوار في باب: الجنة ونعيمها من كتاب العدل والمعاد.

وقال: وأما مكانهما فقد عرفت ان الأخبار تدل على أن الجنة فوق السماوات السبع، والنار في الأرض السابعة وعليه أكثر المسلمين)، ولعل نسبة هذا القول لأكثر المسلمين بلحاظ موضعهما لم تثبت خصوصاً وقد ورد وصف وبيان الجنة بقوله تعالى ﴿عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾^(٣).

إن الجنة والنار خلق وعالم مستقل من خلق الله عز وجل ينظر الى موضوع مكانهما وفق الكبرى الكلية وهي انه تعالى لا تستعصي

(١) هو ابو عبد الله القرشي، مولا هم، بربري الأصل، كان لخصين بن أبي الحر العنبري فوهبه لابن عباس، وذكر انه كان يرى رأي الخوارج وانه أباضي، وكان يكذب على ابن عباس وقد أدبه على ذلك علي بي عبد الله بن عباس، قال أحمد بن حنبل: مضطرب الحديث وعن الربيع قال: قال الشافعي وهو يعني مالك بن أنس سئ الرأي في عكرمة قال لا أرى لأحد أن يقبل حديثه، توفي عكرمة سنة أربع ومائة وكانت الأمراء تكرمه، وقال عكرمة طلب العلم أربعين سنة) العبر في خبر من غبر/ ٢٣/٢٣.

(٣) سورة آل عمران ١٣٣.

عليه مسألة.

وأستدل عقلاً على عدم خلقهما بأن خلقهما قبل يوم الجزاء عبث لا يليق بالحكيم كما في شرح المقاصد ويمكن أن يناقش من وجوه:

الأول : الوظائف العملية للمخلوقات أعم من أن تنحصر بزمان معين فقوله تعالى ﴿يُعَرِّضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾^(١) يدل على وجود وظائف للنار في عالم البرزخ المصاحب لأيام الحياة الدنيا مع التباين في موضوعه وأنه خاص بمن مات من الناس.

الثاني : من منافع وجودهما دخول النبي صلى الله عليه وآله وسلم الجنة، وإطلاعه على النار في المعراج.

الثالث : قوة التأثير والإنفعال في آيات البشارة بالجنة، والتخويف من النار.

الرابع : الأحكام والإعتبارات المتعلقة بالملائكة ووظائفهم الخاصة بأهل الأرض.

الخامس : عالم الخلق والتداخل بين عناصره أعم من أن تحيط به عقول البشر، كما أن الله سبحانه لا يسئل عما يفعل لمقام الربوبية ولأنه الحكيم، ويمتنع القبيح عليه سبحانه.

السادس : روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: والذي نفسي بيده لقد خلقت ملائكة جهنم قبل أن تخلق جهنم بالف عام، فهم كل يوم يزدادون قوة الى قوتهم، ومالك هو رئيسهم.

وأخرج ابن مردويه والضياء المقدسي في صفة النار عن أنس

سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : والذي نفسي بيده لقد خلقت زبانية جهنم قبل أن تخلق جهنم بألف عام فهم كل يوم يزدادون قوة إلى قوتهم حتى يقبضوا من قبضوا عليه بالنواصي والأقدام^(١).

السابع : ان خلق الجنة والنار مدرسة للناس وإنذار وحجة، فالناس إذا علموا بخلق الجنة والنار يكونون أكثر سعيًا وإجتهداً للوصول إلى الجنة وأكثر حذراً وخشية من دخول النار.

الثامن : في حديث الإسراء ورد الإخبار عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بوجود من يعذب في النار أوان الإسراء.

التاسع : ليس من مانع من إعداد الثواب والعقاب قبل الإستحقاق، كتهئية الهدية للمتسابقين، أو احضار الجعالة للعامل، أو آلة العقاب للمذنب.

العاشر : خلق الجنة يفيد القطع بيوم القيامة وحتمية الحساب، وفيه منع للتردد والشك والريب.

الحادي عشر : تعتبر النصوص في المقام تبياناً وتفسيراً وإخباراً

يترشح عنها العلم بخلقهما فلا معنى للتأويل وفق نواميس العقل الذي يتخلف عن ادراك فلسفة الخلق واسرار الموجودات والحكمة الإلهية في المخلوقات او المعارف في الإرادة التكوينية والتشريعية.

الثاني عشر : يساهم خلقهما في الصلاح والإصلاح والموعظة والإعتبار وترسيخ أحكام الدين وتهذيب النفوس وصلاح الأخلاق وتعاهد القيم.

وفي الخبر عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم عن جبرئيل قال: اطلعت في النار فرأيت وادياً في جهنم يغلي فقلت: يا مالك لمن

هذا؟ فقال لثلاثة: المحتكرين، والمدمنين الخمر، والقوادين^(١).
والظاهر ان هذه الرؤية ليست في الإسراء إنما إخبار من جبرئيل
لحالة موجودة لذا ترى الشريعة تؤكد على حرمة كل واحدة من
هذه الثلاثة.

والأحتكار: حبس الطعام إنتظاراً به الغلاء مع حاجة الناس له
وهو حرام، ويتحقق الإحتكار في الخنطة والشعير والتمر والزبيب
والدهن وما يحتاج إليه الناس من الطعام ولو كان هناك طعام غير
هذه الخمسة يحتاج إليه الناس عرفاً فتشمله أدلة الإحتكار، كما في
بعض البلدان يكون الغذاء الرئيسي فيها الرز أو الذرة ونحوها،
والمحتكر يجبر من قبل الحاكم على البيع، ولا يعين له السعر، بل
يكفي إخراج بضاعته إلى السوق وله ان يبيع بما شاء، نعم لو
أجحف يجبر على تخفيض السعر من دون تسعير عليه، ويصدق
عنوان الإحتكار في الخصب بمرور أربعين يوماً على حاجة الناس
للطعام مع وجوده عند المحتكر، أما في الشدة والغلاء في ثلاثة ايام،
وقد تختلف المدة بحسب الحاجة فتكون في مراتب القحط والابتلاء
ساعات معدودات.

وقد جاءت الأخبار بالنهي عن الإحتكار، وبذل أولوا الأمر
وأهل الحل والعقد في العالم الإسلامي الوسع في الحد منه واجتناب
مقدماته.

وعن علي عليه السلام في كتابه إلى مالك الأشتر: فامنع من الإحتكار
فان رسول الله صلى الله عليه وآله منع منه^(٢).
١- من رآهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم يعذبون في النار

(١) الوسائل ٤١٢/١٧ عن كتاب ورام بن أبي فراس.

(٢) نهج البلاغة ٧٤/٣.

كما في بعض الأخبار بغض النظر عن ضعف سندها فيه عدة وجوه:
الأول : إنهم من المسلمين.

الثاني : من الملل الأخرى والأمم السابقة.

الثالث : إنهم من الأجناس السابقة لخلق آدم.

وعن محمد بن علي الباقر عليه السلام أنه قال: قد إنقضى قبل آدم الذي هو أبونا ألف ألف آدم أو أكثر^(١).

الرابع : المعنى الأعم الشامل للوجوه الثلاثة المتقدمة.

الخامس : أنه من عذاب البرزخ وليس من عذاب النار الذي يكون بعد النشور والحساب يوم القيامة.

السادس : أنه على التمثيل أي أنه يحصل للأجسام المثالية التي تتلبس فيها الأرواح قبل النشور وعودتها إلى الأجسام الأصلية.

الأقوى هو الخامس وأنه من عذاب البرزخ جاء للإعتبار والإتعاظ ولتامة مدرسة الإسراء والمعراج وتحصيل غاياتها، وأنهم ليسوا من المسلمين بل من الأمم السابقة من ذرية آدم.

الإيمان بالمعراج

يعتبر المعراج من غرر المعجزات التي إنفرد بها النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وحاز شرفها المسلمون جميعاً، وهو مدرسة تترشح عنها دروس وعبر ومواعظ بل وأحكام شرعية لذا وردت نصوص تؤكد على لزوم الإيمان بالمعراج، (وفي الخبر عن الإمام الصادق عليه السلام: أنه نهى عن انكار أربعة أشياء: المعراج، والمساءلة في القبر، وخلق الجنة والنار، والشفاعة.

وهل المراد الإيمان بها على نحو العموم الإستغراقي أم العموم

البدلي الأقوى هو الأول أي يلزم الإيمان بكل واحد منها مستقلاً وعدم انكار أي منها.

وثلاثة من أفراد الحديث تتعلق بمستقبل الإنسان وعالم ما بعد الموت، والمعراج وحده يتعلق بما مضى كمعجزة نبوية مما يدل على موضوعية المعراج في دائرة عقيدة التوحيد والإيمان بالمعاد.

والمراد من المعراج هو صعود النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى السماء ليلة الإسراء، والسنة بيان للقرآن فصحيح أن الآية تعلقت بالإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى إلا أن السنة توسع حديث الإسراء وتخبر عن تفاصيله، وتبين أنه يتكون من معراجين.

وليس من فصل بين الإسراء والمعراج من حيث الفعل وزمانه فقد بدأ المعراج من المسجد الأقصى بعد أن صلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم في محارب الأنبياء في المسجد الأقصى، والظاهر أن من نواميس النبوة والقواعد الكونية حصول المعراج إلى السماء من المسجد الأقصى، وكذا الهبوط سواء كان للنبي أو الملك إلا أن يشاء الله عز وجل.

وذكر أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قرب من الله سبحانه حتى سمع صرير قلمه وأنه إستجار ربه للحضور عنده، فقرب منه إلى حد لم يبق بينه وبين ربه إلا قاب قوسين ولعلمهم رجعوا إلى قوله تعالى ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ ♦ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴿^(١)﴾.

وقد يراد قرب الدرجة ، وإلا فقد ثبت في علم الصفات السلبية للخالق تعالى وما يجب أن يسلب عنه، أنه تعالى ليس في محل لأن

المحل مقرون بالمادة والإفتقار إلى الحلول فيه، والله غني غير محتاج خلافاً للنسطورية مثلاً من النصارى الذين قالوا إنه حل في المسيح. كما أنه ليس في جهة يشار إليها باليد والحس ويسعى إليها عن قصد، فهو سبحانه في كل مكان أي بمعنى أنه مدبر وعالم بما يحصل في كل مكان، موجود فيه لأن الأشياء جميعاً مستجيبة له فهو سبحانه ليس في مكان، وكل مكان حاضر عنده، وإرتقاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى سدرة المنتهى تشریف له ببلوغه المواضع التي لا يرقى إليها الملائكة المقربون.

وسئل الإمام الصادق عليه السلام: وكم عرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: مرتين^(١)، ويحتمل التعدد هنا أمرين:

١- المعنى الظاهري وهو تكرار المعراج.

٢- إنه مركب من الإسراء إلى المسجد الأقصى، والعروج إلى السماء، فكل منها معراج.

ومنهم من أوصل مراحل المعراج إلى خمس:

الأول : من مكة إلى بيت المقدس.

الثاني : من بيت المقدس إلى سماء الدنيا.

الثالث : من السماء الدنيا إلى السماء السابعة.

الرابع : من السماء السابعة إلى سدرة المنتهى.

الخامس : من سدرة المنتهى إلى قاب قوسين.

الإسراء والهبوط

لقد بلغت الكمالات الإنسانية غايتها بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم فهو سيد البشر، ومن صفات الله تعالى الثبوتية انه عالم،

عالم بكل شيء، يعلم الحوادث والجزئيات قبل حدوثها بعلمه الازلّي، وتغير المعلومات لا يعني أبداً تغير ذاته، لأن التغير في الإضافات وهي أمور اعتبارية لا أثر لها في العلم الذاتي.

ولقد وردت نصوص كثيرة تؤكد اقرار آدم ﷺ بمنزلة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم مع سمو مرتبة آدم، وفوزه بالنفخ فيه من روح الله قال تعالى ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾^(١).

أخرج الطبراني في المعجم الصغير والحاكم وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل وابن عساكر عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لما أذنب آدم الذنب الذي أذنبه، رفع رأسه إلى السماء فقال: أسألك بحق محمد إلا غفرت لي؟ فأوحى الله إليه: ومن محمد؟ فقال: تبارك اسمك. لما خلقتني رفعت رأسي إلى عرشك فإذا فيه مكتوب (لا إله إلا الله محمد رسول الله) فعلمت أنه ليس أحد أعظم عندك قدراً ممن جعلت اسمه مع اسمك. فأوحى الله إليه: يا آدم انه آخر النبيين من ذريتك، ولولا هو ما خلقتك.^(٢)

وسيقى موضوع هبوط آدم إلى الأرض نعمة متصلة عليه وعلى ذريته، وصحيح أن الهبوط بالقياس والمقارنة مع سكن الجنة حرمان وخسارة، إلا أن النظر إلى وجود آدم في الأرض بشكل مستقل بعيداً عن المقارنة يظهر رحمة الله تعالى في إكرام آدم وذريته وبداية الخلافة في الأرض وعمارتها بالعبادة والذكر، إلى جانب تهيئة أسباب الرزق فيها.

ولقد شرف الله الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم بآية

(١) سورة التحريم ١٢.

(٢) الدر المنثور ٩١/١.

من القرآن تدل على إلتقاء المسلمين على محبته قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ...﴾^(١) الآية، إنه غاية التشريف والإكرام، ويتصل تفضيل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالآخرة حيث الدرجة الرفيعة والمقام الموعود الذي ينعم الله عز وجل به عليه دون غيره.

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "آدم ومن دونه تحت لوائه يوم القيامة"^(٢)، إنه إخبار وبشارة وعنوان العز والرفعة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وللمسلمين عامة اذ يلتقون بعرض واحد مع الأنبياء في الإنضمام للواء الحمد والنبوة.

ولعل في حديث الإسراء والتقاء النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالأنبياء الذين سبقوه مناسبة لتجديد ميثاق الأنبياء وعهدهم للإقرار بتقدمه في منازل العز والفخر ومراتب السموات.

وأفضلية النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم على الأنبياء مطلقاً وآدم عليه السلام خاصة في باب المعجزة معروفة وظاهرة وكانت بيانا لدوام الإكرام وتمازج الحجة، ففي الخرائج عن موسى بن جعفر عن آبائه عليهم السلام ان يهودياً سأل الإمام علي عليه السلام عن معجزة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في مقابل معجزات الأنبياء فقال: هذا آدم أسجد الله له ملائكته فهل فعل بمحمد شيئاً مثل هذا؟ فقال علي عليه السلام: لقد كان ذلك ولكن أسجد الله لآدم ملائكته لم يكن سجود طاعة، أو إنهم عبدوا آدم من دون الله عز وجل، ولكن اعترافاً لآدم بالفضيلة ورحمة من الله له، ومحمد عليه السلام أعطي

(١) سورة الاحزاب ٥٦.

(٢) مفاتيح الغيب ٣/ ٤٣٢.

ما هو افضل من هذا، ان الله جل جلاله صلى عليه في جبروته والملائكة بأجمعها، وتعبد المؤمنون بالصلاة عليه فهذا زيادة له يا يهودي^(١).

لقد اجمع المسلمون على أفضلية النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم على آدم، وفي القرآن والسنة شواهد كثيرة ومصاديق تؤكد سيادته صلى الله عليه وآله وسلم.

وآدم عليه السلام الذي جعله الله عز وجل خليفة في الأرض، إتخذ له خاتماً. وكان نقشه لا إله إلا الله محمد رسول الله، وهذا الخاتم هبط معه من الجنة .

وفيه دلالات منها أن أبا البشر يدعو لسيد النبيين ويشر برسالته، ويجعل موضوعها زينة له ووساماً، قال تعالى ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾^(٢).

لقد كان هبوط الإنسان للأرض مناسبة للإبتلاء والامتحان والاختبار فجاء الإسراء بالإتجاه المعاكس للهبوط وكأنه عنوان رضاه تعالى على الإنسان وثبوت أهليته لخلافة الأرض، وهو بشارة دخول الجنة فهو الرزق الإلهي العاجل والإفاضة النورانية التي تبعث في الأرض السكينة والأمل والإعلان عن الصلة الوثيقة بين السماء والأرض، انه سفر روحي يصعد بالعبد إلى عالم الملكوت. ويجتمع هذا الحدث مع أكل آدم عليه السلام من الشجرة ليظهر إستحقاق الإنسان للخلافة، والتوفيق الذي تغشاه للتمسك بأحكام الشريعة على الأرض وهو عنوان الغبطة والسعادة بنيل الدرجات

(١) الجزائري / قصص الانبياء ٣٩.

(٢) سورة الأحزاب ٤٠.

العلی والإعانة علی الإطلاع علی اسرار السماء، والمعراج حجة تدل علی تعلق روح النبی صلی الله علیه وآله وسلم بالسماء، وأنه منقطع عن الدنيا، وفيه بیان لتعدد وجوه الفضل الإلهي فی كيفية تلقي الوحي.

المعراج والملائكة

الملائكة: جمع ملك وأصله مالک، تركت الهمزة لكثرة الاستعمال، وأكثر اللغويين علی أنه مشتق من الألوكه، وهي الرسالة لأنها تولك فی الفم وتنقل بعناية لسانية زائدة وتحتاج إلى بیان، ولا يعني هذا أن الملائكة جميعهم رسل، بل هو إسم جنس جاءت الصفة لتلبس كثير منهم بالرسالة لقوله تعالى ﴿اللَّهُ يُصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾^(١).

والملائكة أجسام نورانية لطيفة وهو المشهور، لها أو لبعضها القدرة علی تغيير أشكالها وهيئاتها بصور مختلفة، وهي دائبة علی الطاعة ومسكنها السماوات، ولكنها قد تنزل إلى الأرض لأمر ما، كما فی نزول جبرئيل عليه السلام المتكرر، وظهوره للنبي محمد صلی الله علیه وآله وسلم أحياناً بصورة دحية الكلبي.

ومن وظائفهم العبادية وطاعتهم أنهم رسل لله أمناء، فهم يقومون بتبليغ الأنبياء بالوحي من غير تحريف أو سهو أو غفلة، وعن الامام جعفر الصادق عليه السلام عن النبي محمد صلی الله علیه وآله وسلم قال: ما من شيء أكثر من الملائكة...^(٢) الحديث. وقيل أن الملائكة والجن والشياطين متحدون فی النوع ومختلفون

(١) سورة الحج ٧٥.

(٢) بحار الأنوار ١٧٥/٥٦

فالملائكة لا يفعلون إلا الخير.

والجن منهم من يفعل الخير ومنهم من يفعل الشر.
أما الشياطين فلا يفعلون إلا الشر.

والملائكة مع عظيم خلقهم فانهم لا يأكلون ولا يشربون ولا
ينكحون، فغذاؤهم التسبيح ونسيم العرش لأنهم دائبون على
العبادة منقطعون اليه تعالى، سائحون في آفاق آياته.

لقد كان الإسراء مناسبة كريمة لترى الملائكة فضل الله تعالى على
بني آدم واکرامه للإنسان وبلوغ النبوة اعلى مراتبها وأسمى
درجاتها وفيه بالدلالة التضمنية إخبار عن إستقرار عقيدة التوحيد
وبدء مرحلة تغشي الإسلام الأرض ونيل الأهلية للإرتقاء في
الإسلام.

وإختلف علماء الإسلام في أفضلية الملائكة على الأنبياء أو
العكس، والأكثر قالوا بأفضلية الأنبياء على الملائكة لأن الله عز
وجل أمر الملائكة بالسجود لآدم.

وقال المعتزلة بأن الملائكة العلوية أفضل، ولكل ادلته
وإحتجاجة في مباحث كلامية وما يتعلق بالمقام ان القائل بأفضلية
النبي على الملك جاء في الإستدلال بأمرين:

الأول: ما روي بأن جبرئيل عليه السلام أخذ بركاب محمد صلى الله
عليه وآله وسلم حتى أركبه البراق ليلة المعراج ولما وصل إلى بعض
المقامات تخلف عنه جبرئيل وقال: لو دنوت أنملة لأحترقت^(١)، أي
ان جبرئيل يتعذر عليه التقدم إلى الموضع الذي بلغه النبي صلى الله
عليه وآله وسلم.

وأخذ جبرئيل عليه السلام بركابه صلى الله عليه وآله وسلم من الوجوه التي إحتج بها على أفضلية الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم على آدم الذي أسجد الله له الملائكة وأنه تعالى صلى بنفسه على محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأمر الملائكة والمؤمنين أن يصلوا عليه والأمر بالسجود تأديباً، وأن السجود كان لأجل نور محمد الذي في جبهته والصلاة دائمة على النبي، وليس مرة واحدة كالسجود، كما ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: كنت نبياً وآدم بين الماء والطين^(١).

ورد القائل بأفضلية الملائكة بأنه خبر واحد، والمشهور على حجية خبر الواحد إذا كان معتبراً سنداً، وخبر الواحد هو الخبر الذي إتحّد طريق سنده ولم يحصل منه القطع بثبوت مؤداه في قبال الخبر المتواتر الذي يرويه جماعة عن جماعة مع إمتناع تواطئهم على الكذب مما يفيد العلم.

هذا بالإضافة إلى قاعدة التسامح في أدلة السنن وعدم معارضة الحديث للكتاب والسنة لأن المقصود بالمعراج هو النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثاني: روي انه صلى الله عليه وآله وسلم قال: ان لي وزيرين في السماء، وأشار الى جبرئيل وميكائيل^(٢)، وأشكل على الحديث سنداً وثبوتاً.

وهذا الحديث بيان للحديث الأول وان جبرئيل عليه السلام تخلف عن منازل القرب التي تشرف النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالوصول إليها، وأن الوزير أدنى رتبة ممن إستوزره، أو صار عنده وزير.

(١) مفاتيح الغيب ٤٣٢/٣ .

(٢) أنظر مفاتيح الغيب ١٨/٢ .

إن الحضور الملائكي في الإسراء بدأ من أول ساعاته فجبرئيل وميكائيل هما اللذان قاما باعداد الرحلة وتهيئة أسبابها، وفي الخبر المشهور عند المسلمين، والشهرة جابرة لضعف السند: أن جبرئيل اخذ بركاب النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم حتى أركبه البراق ليلة المعراج.

وذكر أن جبرئيل نزل على الأنبياء على تباين في عدد المرات على وجوه:

الأول: إبراهيم عليه السلام خمسين مرة.

الثاني: نزل على موسى عليه السلام اربعمئة مرة.

الثالث: نزل على عيسى عشر مرات.

الرابع: نزل على محمد صلى الله عليه وآله وسلم أربعة وعشرين ألف مرة.

وملائكة السماوات هم رسل الله تعالى إلى الأنبياء وكل ملك أمة في التبليغ والإجتهاد في الطاعة والإنقطاع إلى الذكر ، قال تعالى ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾^(١).

ومن الملائكة حملة العرش وهم الثابتة في الأرضين السفلى أقدامهم لأن العرش أحاط بكل شيء من الخلائق، (وعن ميسرة: ورؤوسهم قد خرقت العرش وهم خشوع لا يرفعون طرفهم وهم أشد خوفاً من أهل السماء السابعة، وأهل السماء السابعة أشد خوفاً من أهل السماء السادسة، وهكذا إلى سماء الدنيا ولا يعني هذا أنهم مراتب في الطاعة والإمتثال بل ان القرب من العرش يترشح منه فزع أشد.

وليس للملائكة قوى شهوية أو بهيمية تطلب الغذاء وتشتاق إلى اللذات الحسية، وليس لهم نفس سبعة تجنح إلى الغضب والترفح بل إنهم منقطعون إلى التسبيح فلا يأكلون ولا يشربون ولا ينكحون. وقال شطر كبير من الفلاسفة أن الملائكة ذوات مجردة ليست من الماديّات، وقال المسلمون منهم أنها جواهر مجردة، أما المتكلمون منهم فقالوا بأنها أجسام لطيفة.

وغذاؤهم التسبيح ويعيشون بنسيم العرش، ومن ينقطع إلى الله عز وجل ويسخر نفسه لطاعته فإن الله عز وجل أعد له مقاماً حسناً ويرزقه رزقاً كريماً.

وتلك قاعدة كلية جارية في الخلائق على نحو العموم الإستغراقي.

لقد كان الإسراء عيداً للملائكة ومناسبة كريمة ليروا الثواب العاجل للإسلام المتمثل بعروج النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى السماء وهو من أهل الدنيا وفي بدايات البعثة النبوية ليكون الإسراء مدداً وتوفيقاً وهداية ورشاداً للمسلمين عامة.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أقرب الخلق إلى الله جبريل وميكائيل وإسرافيل وهم منه مسيرة خمسين ألف سنة^(١).

فهو من أقرب الملائكة إلى الله، وذكر أنه من الروحانيين الذين لا يدرك خلقهم ولا صفتهم إلا الله رب العالمين.

ان منزلة جبرئيل لا يختلف فيها اثنان من الملمين، ويمثل عند المسلمين مقاماً سامياً فهو الواسطة الكريمة الذي نزل بالقرآن على صدر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي (قال: ان الله تبارك وتعالى اختار من كل شيء أربعة، اختار من الملائكة جبرئيل

وميكائيل واسرافيل وملك الموت.

وأخرج أبو الشيخ عن عكرمة بن خالد أن رجلاً قال : يا رسول الله أي الخلق أكرم على الله عز وجل، قال: لا أدري، فجاءه جبريل عليه السلام فقال: يا جبريل أي الخلق أكرم على الله، قال: لا أدري، فخرج جبريل ثم هبط، فقال: أكرم الخلق على الله جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت، فأما جبريل فصاحب الحرب وصاحب المرسلين، وأما ميكائيل فصاحب كل قطرة تسقط وكل ورقة تنبت وكل ورقة تسقط، وأما ملك الموت فهو موكل بقبض كل روح عبد في بر أو بحر، وأما إسرافيل فأمين الله بينه وبينهم^(١).

لقد أمر الله جبرئيل ليدمر مدائن لوط بعد شيوع الفاحشة بينهم وقال مخبراً عن قوته لما سأله النبي صلى الله عليه وآله وسلم عنها حملت المدائن من الأرضين السفلى الى السماء حتى سمع اهل السماء صياح ديكتهم، بريشة واحدة من جناحي انتظر امر ربي إلى الصبح، ومع هذا تراه عليه السلام يتخلف عن الموضع الذي بلغه النبي صلى الله عليه وآله وسلم في السماء السابعة ولا يتقدمه في الصلاة ويبالغ في اكرامه وفي ذلك دعوة للناس جميعاً للإنقياد لما جاء به النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم واتباعه خصوصاً وان الله عز وجل قد زكى قوله وفعله ونسبه اليه بالواسطة قال تعالى ﴿ وَمَا

يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾^(٢).

وإذ بعث الله عز وجل جبرئيل وحده لهلاك قوم لوط ودمار ما

(١) سورة الدر المنثور ١/ ١٧٤ .

(٢) سورة النجم ٣ - ٤ .

يملكون، فانه سبحانه أنزل آلافاً من الملائكة لنصرة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه يوم بدر وأحد، قال تعالى ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّلَ اللَّهُ بِكُمْ ثَلَاثَةَ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ﴾^(١)، وفيه مسائل:

الأولى: تفضيل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم على الأنبياء.

الثانية: إنه من الشواهد على العناية الإلهية بالمسلمين.

الثالث: في كثرة عدد الملائكة الذين نزلوا لنصرة النبي والمؤمنين يوم بدر وأحد شاهد على منزلة النبي محمد عند الله، ومن مصاديق قوله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٢).

الرابع: في المقارنة في المقام إنذار للكفار من التعدي على المسلمين وثغورهم، ودعوة للناس لدخول الإسلام.

وفي محاورة اليهود مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال له ابن صوريا خصلة واحدة إن قلتها آمنت بك واتبعتك أي ملك يأتيك بما ينزل الله عليك قال جبريل، قال ذاك عدونا ينزل بالقتال والشدة والحرب و ميكائيل ينزل باليسر والرخاء فلو كان ميكائيل هو الذي يأتيك لآمنا بك^(٣).

وكان جبرئيل عند مجيئه للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم يتمثل بصورة الصحابي دحية الكلبي الذي كان جميلاً حسن الهيئة وبدا له مرتين بصورته الحقيقية وله ستمائة جناح ينتشر منها اللؤلؤ

(١) سورة آل عمران ١٢٤.

(٢) سورة العلق ٥.

(٣) مجمع البيان ١/٢٨٨.

والياقوت، أو أن يأتيه بمثال يسمع الصوت ويرى الضوء.
ومنهم من إستدل على أفضلية الملائكة بقوله تعالى ﴿وَالْمَلَائِكَةُ
يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى
الدَّارِ﴾^(١) فدخل الملائكة بالسلام والتحية والإكرام دليل على
تقدمهم رتبة وشرفاً، والإستدلال غير تام وقد يكون العكس خلافه
لأن أهل الجنة وصلوا إلى منازلها الرفيعة بعد الإمتحان والإختبار
فجاء الملائكة معترفين بفضلهم وإستحقاقهم.

المعراج في القرآن

في حديث التلبية في الحج "ليك ذا المعارج لبيك" والمعارج جمع
معراج وهو المصعد والمرقى، يقال: عرج يعرج عروجاً: صعد
وارتقى، قال تعالى ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ
الْمُنْتَهَى﴾^(٢)، وأخرج عن ابن مسعود قال: لما أسري برسول الله
صلى الله عليه وآله وسلم انتهى به إلى سدرة المنتهى وهي في السماء
السادسة إليها ينتهي ما يعرج من الأرواح فيقبض منها وإليها ينتهي
ما يهبط به من فوقها فيقبض منها { إذ يغشى السدرة ما يغشى } قال
: فراش من ذهب قال : وأعطي رسول الله صلى الله عليه وآله
وسلم ثلاثاً : أعطي الصلوات الخمس ، وأعطي خواتيم سورة
البقرة ، وغفر لمن لا يشرك بالله شيئاً من أمته المقحّمات^(٣).
ولقد كان لجبرئيل نزلات عديدة، ونزل على النبي محمد صلى

(١) سورة الرعد ٢٣ - ٢٤.

(٢) سورة النجم ١٣ - ١٤.

(٣) الدر المنثور ٣٢١/٩.

الله عليه وآله وسلم منها نزلتان كانتا بصورته الحقيقية وأنه بسط جناحيه وقد ستر الجانب الشرقي وسده وقد تقدم أن جبرئيل نزل على النبي أربعاً وعشرين ألف مرة.

وأختلف في المرئي في الآية أعلاه والظاهر أنه جبرئيل خصوصاً وإن النزول والصعود من صفات الأجسام والمخلوقات والله منزّه عن الحركة والسكون فالمعنى اللغوي للكلمة قرينة تنفي تعلق الرؤية بالباري تعالى في الإسراء وفي غيره بالإضافة إلى النصوص، والرؤية عند سدرة المنتهى لأن الظرف يعود للرائي كما يقال: أين رأيته.

(والمنتهى) أي ذروة العلم والمعرفة التي تبلغها الخلائق مما يؤكد فضل النبي صلى الله عليه وآله وسلم وترجيحه على غيره من الأنبياء، والوصول إلى شجرة المنتهى درجة تفضيل لا تنال إلا بفضل الله تعالى فهو إرتقاء وصعود في سلم الكمالات ووسام عز على جبين كل مسلم وعنوان فخر لكل إنسان فقد حل الصعود والإرتقاء محل الهبوط، وأصبحت الحياة على الأرض قريبة من السماء.

إن قول الله تعالى ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾^(١) منع للتردد والشك والريبة في قبول حديث المعراج وتوكيد على توظيف البصر والبصيرة في الإسراء وأنه صلى الله عليه وآله وسلم لم يغش عليه كما أصاب موسى عليه السلام الصعقة، وأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يلتفت ولم يطلب شيئاً وراء السدرة وهو الأمر الذي يؤكد قوله تعالى ﴿وَمَا طَغَى﴾^(٢) وفيه تزكية له وبيان لأهليته للمعراج.

(١) سورة النجم ١٧.

(٢) سورة النجم ١٧.

لقد ختمت آيات المعراج في سورة النجم بقوله تعالى ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾^(١) وهو تأكيد لعدم رؤيته للباري عز وجل لإستحالتها وأن رؤية تلك الآيات الكبرى فضل عظيم لم ينله احد قبل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم. وهي دعوة للمسلمين والناس جميعاً إلى تلمس وقائع الإسراء وما حصل منها والوقوف عند كل آية دراسة وتحقيقاً وحفظاً ومناسبة لإستنباط الأحكام والمسائل وقيل أن المراد من بعض الآيات هنا (جبرئيل) ولكن الحصر بهذا المعنى حاجز وبرزخ دون إستثمار نعمة الإسراء في ميادين الفقه والأخلاق والإجتماع والتأريخ.

وبما أن السنة النبوية الشريفة بيان وتفسير للقرآن فان الآيات التي رآها النبي صلى الله عليه وآله وسلم تؤكد وتدل عليها السنة النبوية الشريفة ابتداء من مجئ جبرئيل وميكائيل وإسرافيل عليهم السلام للإسراء بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وركوب البراق خصوصاً فانه رأى جبرئيل بهيئته وأجنحته على الأرض.

فالآية مطلقة ومجملة، والبيان والتفصيل ورد في السنة الفعلية والقولية والتقريبية فلا غرابة أن يكرر النبي صلى الله عليه وآله وسلم حديث الإسراء في مناسبات متعددة للإعتبار والإتعاظ والإنتفاع، خصوصاً وأن تفضل الله تعالى برؤية النبي صلى الله عليه وآله وسلم الآيات ليست أمراً مطلوباً بذاته فحسب فاليقين قد ملأ قلبه.

فتلك الرؤية مقدمة وسبب لتثبيت لواء التوحيد في الأرض

وعبارة عن تصديقات وشواهد تؤدي إلى صلاح الأمة.
وهي نكتة ووجه من وجوه الإسراء والمعراج يجب الوقوف عندها وإن لم يشر إليها لذا يجب أن يكون الإحتفال السنوي بالإسراء مدرسة وفرصة لإستظهار الأحكام والدروس والعبر من الإسراء، تشارك فيها الأمة ومؤسساتها المختلفة ولا يضر الاختلاف في تأريخ الإسراء سواء على القول بأنه وقع لثلاث ليالي بقين من شهر رمضان أو أنه وقع في اليوم السادس عشر منه أو في السابع والعشرين من شهر رجب.

وفي قوله تعالى ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِلَهًا يُعْبَدُونَ﴾^(١) وورد في الآية عن ابن عباس أنه: "لما أسري بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الى المسجد الأقصى بعث الله له آدم وجميع المرسلين من ولده، فاذن جبريل ثم أقام فقال: يا محمد تقدم فصل بهم، فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الصلاة، قال له جبرئيل عليه السلام: واسأل يا محمد من أرسلنا من قبلك من رسلنا، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: لا أسأل لأنني لست شاكاً فيه"^(٢).

وتعتبر الآية أعلاه سماوية النزول في مقابل الأرضي منه، وقال الرازي: (فهنا سؤال النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن الأنبياء الذين كانوا قبله ممتنع، فكان المراد منه أنظر في هذه المسألة بعقلك وتدبر فيها بفهمك والله اعلم).

وقال الرازي في معنى تأويل الآية: واسأل مؤمني أهل الكتاب

(١) سورة الزخرف ٤٥.

(٢) مفاتيح الغيب ٤٧٩/١٣ .

أي أهل التوراة والإنجيل فانهم سيخبرونك انه لم يرد في دين أحد من الأنبياء عبادة الأصنام^(١).

والجواب عليه من وجوه:

الأول: الكلام العربي يحمل على ظاهره ولا ينتقل إلى المجاز إلا مع القرينة أو تعذر الظاهر، ووردت الآية بسؤال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم للرسل والأنبياء السابقين.

الثاني: ورود النصوص التي تدل على حصول اللقاء بين النبي صلى الله عليه وآله وسلم والأنبياء في الإسراء والمعراج وهو أمر مشهور عند عموم المسلمين وفي كل زمان ومكان.

الثالث: هناك قاعدة قرآنية وهي أن الآية قد يكون صدرها في شيء ووسطها في شيء وآخرها في شيء وأمر آخر.

فسؤاله صلى الله عليه وآله وسلم للأنبياء أعم من نفي الشرك، خصوصاً وأنه على يقين من ربه.

الرابع: السؤال مناسبة كريمة للإخبار عن أحوال الدنيا والحساب في عالم البرزخ.

الخامس: أراد الله عز وجل بيان منافع عظيمة من الإسراء، ومنها إخبار الأنبياء للمسلمين بواسطة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم عن عالم الآخرة، والمنزلة الرفيعة التي أعدّها الله لهم.

السادس: لقد بقى سؤال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى الأنبياء وثيقة وتراثاً عند المسلمين، وهو من المصاديق على أن المسلمين ورثة الأنبياء، وتلك منزلة لم تنلها أمة غيرهم، وفيه شاهد على أنهم ﴿خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٢).

(١) مفاتيح الغيب ٢٧/٢١٦.

(٢) سورة العلق ٥.

السابع: إنه دليل على أن القرآن فيه تبيان لكل شئ وفيه الإخبار عن عالم السماء ، قال تعالى ﴿ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾^(١) ، وبيان حال المؤمنين بعد الموت ، وسيلة مباركة لبعث الشوق في نفوسهم للقاء الله .

وفي الآية دلالة على تضمن الإسراء لأمر وأحكام أعم مما شاهده النبي صلى الله عليه وآله وسلم من الوقائع والمشاهد لأن السؤال لا ينحصر بحال الإسراء بل هو أعم ويشمل الماضي والحاضر والمستقبل ، وأحوال الناس والملك وغيرها .
وتدل على فضل النبي صلى الله عليه وآله وسلم بسؤاله وإنتفاعه من الأنبياء وما واجههم في جهادهم ، وكذا الإستماع لهم في نصائحهم وأقوالهم لذا إقترح موسى ﷺ على النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يرجع للسؤال بتخفيف الصلاة عن المسلمين لينتفعوا منهم في شؤون الدين والدنيا ، وجاء في الآية التي سبقتها ، ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾^(٢) .

الإسراء والعلم

من الإعجاز القرآني إحاطة كلمات القرآن بالعلوم الحديثة إخباراً أو إشارة أو تحريضاً على البحث العلمي والتحقيق ، ومن الآيات ان لا ترى تعارضاً بين القرآن والتطور العلمي الحديث مع ما فيه من المخترعات السريعة المذهلة ولا ينحصر الأمر بعدم التعارض فحسب وإن كان حجة تدل على سماوية القرآن ، فهناك توافق والتقاء بينهما يعتبر إعلاناً متجدداً .

(١) سورة الأنعام ٣٨ .

(٢) سورة الزخرف ٤٤ .

وقد تكون آية اعجازية ترى لها ما يشبهها في بعض الجوانب في هذا الزمان ولكن من غير إعجاز بل بالتحصيل والسعي العلمي والاجتهاد لعدم اجتماع شرائط المعجزة فيها، فهي في هذا الزمان ليست أمراً خارقاً للعادة أو سالماً عن المعارضة أو مقروناً بالتحدي، ولكنه مصداق لفضل الله تعالى، والكبرى الكلية وهي ان الله عز وجل إذا أنزل نعمة فإنه أكرم من أن يرفعها، أي تأتي النعمة معجزة وكرامة، ثم يأتي المدد والإعانة الإلهية وما حصل عند الناس من علم مع بقاء المعجزة على حالها لإختلاف الموضوع وتبعية الحكم للموضوع قهراً.

فمن فضل الله تعالى على مريم عليها السلام إحضار فاكهة الصيف لها في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف، كما قال تعالى ﴿كَلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(١).

فجاءت الآن الزراعة المغطاة والنقل السريع للفاكهة والخضر، ووسائل الخزن والتجميد الحديثة كفضل نوعي على الناس يستحق الشكر لله تعالى، والكل يعلم انه ليس بمعجزة ولم يؤثر على اصل المعجزة لمريم عليها السلام.

ولم يرق إلى معشارها فان حديث الإسراء معجزة أراد الله عز وجل أن يحصل شطر منها بالعلم والتحصيل من غير ان يؤثر على أصل الإعجاز في الإسراء، وهو حجة دائمة تحول دون غرور الإنسان وزهوه فالعلوم الآن تنتقل بسرعة وترتقي في عالم السماء الدنيا ولا يزداد الناس معها إلا إقراراً بالتوحيد والرسالات، وهذا

من الإعجاز المتجدد للقرآن وللآيات التي رزق الله عز وجل النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم من الإسراء ونحوه.

الإسراء والعلوم المعاصرة

لقد رافق الإسراء فرح وغبطة عمت السماء وسكانها من الملائكة مع نفر قليل من المؤمنين والمؤمنات في الأرض وواجهها بالرفض والسخرية الملأ من قريش وأصحاب الحل والعقد في مكة بلد الوحي والتنزيل والبيت الحرام الذي جعله الله آمناً ورحمة للناس ولا بد من صلة بين هذا الجعل وبين الإسراء، ويأبى الله إلا أن يتم كلماته، فأصبحت ذكرى الإسراء عيداً عالمياً يعم أرجاء الأرض بمباهج ومواعظ وتكون التطورات العلمية الحديثة مناسبة لإستقراء الدروس من الإسراء وإثباتاً لحقيقته.

فسياحة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في عالم الملكوت بالإعجاز فتحت آفاق العلم في أسرار السماء لما فيها من الحث على الإرتقاء والسعي للصعود في السماء والبحث في أسرار الفضاء.

وحديث الإسراء دليل على الحفظ الإلهي لرسالة الإسلام وتعباهد السماء لشخص النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وآيات القرآن، فوسط الجحود والكفر والامية والبدائية ووعثاء السفر ومشقة الطريق يأتي النبي صلى الله عليه وآله وسلم بإخبار إعجازي وإعلان عن قطعه لمسيرة شهر بشطر ليلة واحدة من غير تردد أو تخوف من أقطاب الضلالة.

والمعجزة هي الأمر الخارق للعادة المطابق للدعوى والمقرون بالتحدي السالم من المعارضة، وقد عدّ بعض علماء الإسلام للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ألف معجزة، الإسراء واحدة منها ولها خصوصية وموضوعية وتكشف عن أسرار متجددة في كل زمان.

وهل يدخل صعود الإنسان إلى القمر والكواكب الأخرى في المعجزة، العقلاء جميعاً يتفوقون على النفي، ويقرون بوجود فوارق وتناف بينهما، إذ أن غزو الفضاء تم بالأسباب المادية والعلوم وسلسلة من الدراسات والمقدمات والإبتكارات وليس فيه خرق للأسباب المتعارفة في هذا الزمان والمستويات التي وصل إليها العلم. لقد ظل النبي صلى الله عليه وآله وسلم يتحدث عن مواضيع الإسراء قال صلى الله عليه وآله وسلم حاكياً عن رب العزة من أذى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة^(١).

مما يدل على حرمة المؤمن والتحذير من إيذائه كما في أبناء ليلة الإسراء ومن على سبع سماوات، والحديث يبين المضامين الأخلاقية والعقائدية لحديث الإسراء.

تأريخ الإسراء

كثيرة هي الدلالات التي جاء بها القرآن ظاهرة وباطنة لا يدرك دلالاتها إلا أهل البحث والعلم لما فيها من إشارات الإستنباط وأسباب البحث وبما يؤدي إلى تقوية الصلاة بين الدين والعلم ليعملاً معاً على توجيه الناس نحو عبادة الله سبحانه وتعالى، ومن ذلك آية الإسراء وحديثه وما ورد فيه من الوقائع التي أيدها العلم الحديث.

وذكر الراحلة التي ركبها النبي صلى الله عليه وآله وسلم لبيان أهمية التمسك بالأسباب مع ان ذلك لا يتنافى مع قدرته تعالى على الإسراء بعبده من غير وسيلة فتطوى له الأرض فيجد نفسه على باب المسجد الأقصى.

(١) مفاتيح الغيب ١٠/ ١٧١.

وكل صفة له كانت ذات معنى أثبت العلم الحديث صحتها والحاجة إليها فمثلاً قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم له جناحان يحفزانه من خلفه دلالة علمية وبرهان يوضح قوة الدفع كما تدفع المحركات النفاثة- اليوم- الطائرة إلى الأمام، وحتى إسمها (البراق) يعني سرعة الحركة وشدة بريقه ولا بد أن سرعته تفوق سرعة الضوء التي يقدرها العلماء بثلاثمائة ألف كيلو متر في الثانية.

وقد اثبت العلماء أخيراً أن أمواج الجاذبية مثلاً تقطع المسافات دون ان تستغرق أي وقت يذكر.

أما تاريخ الإسراء والمعراج وأوانه المبارك فقد اختلف فيه على أقوال:

الأول : في السنة الثانية للبعثة، عن ابن عباس.

الثاني : في السنة الثالثة.

الثالث : في السنة الخامسة.

الرابع : في السنة السادسة.

الخامس: قبل الهجرة بسنة وخمسة أشهر.

وقيل غير ذلك، إن ولادة فاطمة الزهراء عليها السلام مدخل كريم لتحديد تاريخ ولادة الإسراء لما رواه الصادق عليه السلام وأبو سعيد الخدري وأيضاً عن عائشة التي قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما أسري بي إلى السماء أدخلت الجنة فوقعت على شجرة من أشجار الجنة لم أر في الجنة أحسن منها ولا أبيض ورقاً ولا أطيب ثمرة فتناولت من ثمرتها فأكلتها فصارت نظفة في صليبي فلما هبطت إلى الأرض واقعت خديجة فحملت بفاطمة عليها السلام فإذا إشتقت إلى ريح الجنة شممت ريح فاطمة^(١).

لقد جعل الله عز وجل من ولادة الزهراء عليها السلام وصحبته للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وثيقة أرضية وتكوينية على صحة واقعة الإسراء وشاهداً مصاحباً لحياة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فقد أكل من ثمار الجنة ليلة الإسراء فكانت ولادتها كما في الرواية.

وعن ابن عباس وأبي سعيد الخدري وعن عائشة: "وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذا إشتاق الى ريح الجنة شمّ ريح فاطمة"^(١).

وفيه إعجاز آخر وهو أن الله عز وجل أراد لنعمة الإسراء ان تكون باقية في الأرض بشخص فاطمة وسيرتها وسمو منزلتها، فقد نزل النبي صلى الله عليه وآله وسلم من السماء بأحكام الصلاة وبهدية شخصية كريمة هي الزهراء لتصبح وكأنها أم أبيها. لقد كانت ولادة الزهراء عليها السلام آية تكوينية وعنواناً للصلة بين دار الإختبار ومنازل البقاء لبيان التوفيق في العمل.

هكذا تتجسد البركة وتنزل على أهل الأرض سحائب اليمن بولادة فاطمة الزهراء فتشرق ربوع الأرض مبتهجة بهذا النور الذي أراد الله له أن يكون مبعثاً للإيمان والعز والفضيلة، وفخراً متجدداً على الدوام لعموم المسلمين، فاتصال رحمته تعالى وحضورها في جميع جوانب الكيانات الأساسية للبناء العام لمجتمعاتهم وهياكل أسسها، إذ تفضل الله تعالى يجعل الجوهر الأساسي لشخص الزهراء من موجودات الجنة ليكون نبراساً للفضيلة وفيضاً ملكوتياً مباركاً.

فقد جاء عن القطان عن السكري عن الجوهرى عن ابن عمارة

عن ابيه عن جابر عن أبي جعفر الإمام الباقر عليه السلام عن جابر بن عبد الله قال: "قيل يا رسول الله إنك تلثم فاطمة وتلتزمها وتدنيها منك وتفعل بها ما لا تفعله بأحد من بناتك؟ فقال: ان جبرئيل عليه السلام أتاني بتفاحة من تفاح الجنة فاكلتها فتحولت ماء في صلبي ثم واقعت خديجة فحملت بفاطمة فأنا أشم منها رائحة الجنة" ^(١)، فالرواية خالية من التحديد الزمني والموقع المكاني لتلك الأكلة المباركة.

إنها عناية سماوية وبداية مباركة لنشأة الزهراء السامية وتحث على التدبر والتريث الفكري للتأمل وإستنباط الدروس الموضوعية والحكمة الكريمة في المقام ووجوه المنافع فيها سواء تلك التي تتعلق بشخصية الزهراء عليها السلام، أو بأهل البيت خاصة أو ما يهم عموم المسلمين والمسلمات وما يرتبط مباشرة بأولئك الذين عاصروا الزهراء وشاهدوا تلك الحياة القدسية التي كانت تنبعث منها أنوار الزهد والتقوى لتملاً جوانحهم وأركان حياتهم، إذ لم تكن كرامة التكوين محجوزة في ذلك القدر ومراحل الولادة، فالله واسع كريم يأبى إلا أن تكون رحمته متصلة دائمة تتغشى في بقائها ما هو خارج دائرة الحدوث وإن كانت ذات أفق رحب.

لقد أراد الله عز وجل لولادة الزهراء أن تبقى مناراً للأجيال وفخراً للإسلام كما يمكن جعل هذا الإكرام عنصراً في أسباب التفضيل على من تقدمت في زمانها ممن إصطفى الله كمريم بنت عمران عليها السلام.

وذكر أنها ولدت في آخر جزء من ليلة الجمعة، وهي من أفضل الساعات وفيها يستجاب الدعاء.

وكما اختلف في تأريخ الإسراء اختلف في سنة ولادة الزهراء

فقد ذكرت بعض الروايات أنها ولدت سنة خمس من المبعث ففي الخبر عن الباقر عليه السلام قال : "ولدت فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وآله وسلم بعد مبعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بخمس سنين وتوفيت ولها ثمانني عشرة سنة وخمسة وسبعون يوماً"^(١).

ولا غرابة ان يقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم في ساعة مغادرته الدنيا للزهراء وبعد أن رآها تبكي: أبشري يا بنت محمد بسرعة اللحاق بي فانك أول من يلحق بي من أهل بيتي"^(٢).

وكان البلاء الذي يصيبها مركب من فقد النبي صلى الله عليه وآله وسلم وآله وسلم وإنقطاع موضوع الوحي بعد فقد شخصه الكريم وهو عنوان الصلة بين الأرض والسماء، وبه تجتمع خصائص نشأتها المباركة، وكان إخباره لها باللحوق به بشارة وسكينة ونوع مواساة ولعله من مضامين حديث البضعة وأن الحديث فيه إخبار عن سرعة لحوقها به صلى الله عليه وآله وسلم عند إنقطاعه إلى الرفيق الأعلى ونيلها أعلى المقامات.

لقد خص النبي صلى الله عليه وآله وسلم الزهراء عليها السلام بحديث قرب أجله وفيه إكرام لها ونوع مواساة ودعوة للإستعداد للآخرة والتزود من الدنيا بالصالحات، فقد روى البخاري بسنده عن عائشة انها قالت: "ان كنا ازواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم عنده جميعاً لم تغادر منا واحدة، فاقبلت فاطمة سلام الله عليها تمشي ما تخطئ مشيتها من مشية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

فلما رآها رحب بها ، وقال: مرحباً بابنتي ثم أجلسها عن يمينه

(١) بحار الانوار ٥/١٠ طبعة حجرية.

(٢) بحار الأنوار ٤١/٢٨.

او عن شماله ثم سارها فبكت بكاء شديداً، فلما رأى حزنها سارها الثانية، فاذا هي تضحك فقلت لها: انا من بين نسائه خصك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالسر من بيننا ثم انت تبكين. فلما قام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سألتها عما سارها قالت: ما كنت لأفشي على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سره.

فلما توفي قلت لها: عزمت عليك لما أخبرتني؟ قالت: أما الآن فنعم، فاخبرتني.

قالت: أما حين سارني في الأمر الأول، فانه أخبرني ان جبرئيل كان يعارضه بالقرآن كل سنة مرة، وانه قد عارضه به العام مرتين ولا أرى الأجل إلا قد إقرب إلي وأصبري فاني نعم السلف أنا لك، قالت: فبكيت بكائي الذي رأيت، فلما رأى جزعي سارني الثانية، قال: يا فاطمة ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين او سيدة نساء هذه الأمة^(١).

ولقد وردت في الإسراء أحاديث كثيرة بلغت حد التواتر عن جم غفير من الصحابة كالإمام علي بن أبي طالب وعمر بن الخطاب وأبي سعيد الخدري وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وبريدة وحذيفة بن اليمان وصهيب وجابر بن عبد الله وسهل بن سعد وأبي بن كعب وأبي ذر وأبي الحمراء وأبي الدرداء وعروة وعائشة وأم سلمة وأم هاني وأسماء بنت أبي بكر كلهم عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم^(٢).

إن تواتر الحديث يبين أهمية حديث الإسراء وما فيه من عبر

(١) صحيح البخاري ١٤٢/٧.

(٢) تفسير ابن كثير ٢٤/٣.

وعظمت يجب أن تنتفع منها الإنسانية ولتغدو باب هدى ورحمة وسعي للفوز بدار النعيم (قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لقيت ابراهيم ليلة اسري بي فقال يا محمد إقرأ أمتك مني السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة عذبة الماء وأنها قيعان وأن غرسها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله واكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله^(١) .

إنها بشارة مركبة، إذ تدل بالدلالة التضمنية على أن الجنة مستقر المسلمين، ويمكن اعتبارها مصداقاً لقوله تعالى ﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ... ﴾^(٢) .

الإسراء عقلاً

العقل جوهر مجرد قائم بذاته ومفارق للأجسام، وإختلف الأصوليون هل للعقل حكم مستقل بحسن الشئ أو قبحه أو لا، وأسست على هذا القول قاعدة تسمى قاعدة التحسين والتقبيح العقليين وتقدم ذكرها وإن كانت من مسائل علم الكلام ولكنها بحسب اللحاظ مما يقع في طريق الحكم الشرعي.

والعقل يدرك لزوم الإمتثال أو الإمتناع، وأن المطيع يستحق المدح والثناء بخلاف العاصي وفاعل القبيح فانه يستحق الذم عقلاً. وقيل أن الاشاعرة نفوا الأمرين أي قاعدة الحسن والقبح العقليين وهي من الادراك، والثاني إدراك العقل لمدح فاعل الحسن وأن فاعل القبيح يستحق الذم وهو من الحكم، والإجماع على الإقرار بمعرفة موضوعية العقل في الإدراك والتكليف والعلم

(١) الدر المنثور ٤/ ١٥٣.

(٢) سورة الحج ٧٨.

بالفرائض والنواهي.

وتعتبر نعمة العقل من أعظم النعم على الإنسان وفيها حجة على الإنسان بلزوم توظيفها أحسن توظيف في ترسيخ الأحكام الشرعية والعمل بالسنن وإتيان الصالحات .

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: أول ما خلق الله تعالى العقل فقال له أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر^(١).

لقد جعل الله عز وجل العقل رسولاً دائماً وهو يلح بقبول الإسراء بالجسد للكبرى، وهي أن القرآن كتاب نازل من عند الله تعالى وأنه حق، والصغرى وهي أن القرآن جاء بالإسراء ببيان واضح يدل في الظاهر على حصوله بالجسد بالإضافة الى النصوص التي تدل ضمن سياقها ومضامينها على حصوله بالجسد وإلتقاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالأنبياء الآخرين.

واستدل بعضهم في موضوع الإسراء وانه بالروح باستبعاد وصعود الجسم الكثيف وأن صعود النبي صلى الله عليه وآله وسلم بجسمه ممتنع عقلاً، ويناقش من وجوه:

الأول : الملازمة بين حكم الشرع وحكم العقل، وإذا كانت هذه الملازمة مأخوذة من دليل عقلي فهي ملازمة عقلية، وفي علم الأصول مباحث مستقلة لها تثبت الكبريات العقلية التي ترد في مقدمات الحكم الشرعي وإثباته.

الثاني : العقل لا يمتنع عن قبول صعود الجسم الكثيف لأن الصعود والإسراء لم يحصل بالأسباب العادية بل بالإعجاز والمعجزة هي الأمر الخارق للعادة المقرون بالتحدي السالم من المعارضة، فالإسراء بشخص النبي صلى الله عليه وآله وسلم

الشريف وبدنه معجزة تفوق التصديق العقلي، وليس للعقل إلا التسليم بالتنزيل، وهذا التسليم من التكليف، ومن الشكر لله على نعمة العقل والإسراء.

الثالث : أظهر الارتقاء العلمي في هذا الزمان إمكان صعود الجسم الكثيف في الفضاء وأنه غير ممتنع عقلاً مع تحقق أسبابه المادية.

وبذا يكون التطور التقني عوناً على إثبات الحقائق القرآنية ويكون فضحاً لأولئك الذين أشكلوا على علوم القرآن، وهذا وجه من وجوه الإعجاز القرآني، وهذه الحقائق مقدمة وطريق يفتح آفاق العلم، وتتمثل صيغ الإشكال التي ذكرها بعضهم بثلاثة وجوه:

الأول : إن صعود الجرم الثقيل إلى السماوات غير معقول.

الثاني : إن الحركة البالغة في السرعة إلى هذا الحد غير معقولة.

الثالث : إن الصعود إلى السماوات يوجب إنخراق الأفلاك.

وبالنسبة للأول والثاني فإن العلم الحديث هو أدنى بمراتب من الإعجاز، وموضوع مستقل يختلف عن الإعجاز الذي له مميزات خارقة لعقول البشر ويأتي بلحاظ العلم الحديث أيضاً فقد صعدت الطائرات والمركبات الفضائية في عالم السماء.

إن صعود أهل العلوم الحديثة في طبقات السماء وإلى الكواكب لا يصل بهم إلا حيث يأذن الله، ثم يتوقف العلم وقدرة البشر بخلاف إرتقاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم في السماوات العلى، أما الثالث فإن السماء والكواكب مخلوقات مستجيبة لأمر الله تعالى.

إسراء الأنبياء

قيل إن إدريس هو أول الأنبياء من أولاد آدم الذي عرج به إلى السماء، وهو أول نبي خط بالقلم، وأول من نظر في النجوم، وعلم

الحساب بتعريف سماوي، وكان رجلاً صالحاً يرفع له من العمل ما يرفع لأهل الأرض، فاستأذن الملك الذي كان يصعد إليه عمله ربه في زيارته فأذن له، وحمله الملك على جناحه فصعد به إلى السماء وقيل ان ملك الموت هو الذي زاره، وأراه النار ثم أدخله الجنة بأمر الله ثم قال له أخرج لنرجع فقال ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾^(١) فلا أخرج منها، فقال الله سبحانه للملك دعه يلبث فيها.

حدثنا ابن بشار قال، حدثنا ابن أبي عدي ومحمد بن جعفر وعبد الوهاب، عن عوف، عن أسامة: أن إبراهيم خليل الرحمن حدث نفسه أنه أرحم الخلق، وأن الله رفعه حتى أشرف على أهل الأرض، فأبصر أعمالهم. فلما رآهم يعملون بالمعاصي قال: اللهم دمر عليهم! فقال له ربه: أنا أرحم بعبادي منك، اهبط، فلعلهم أن يتوبوا إلي ويراجعوا^(٢).

ومع دلالة الحديث على مكانة إبراهيم بين الأنبياء وعلى جهاده في سبيل الله وسعيه للصلاح، فانه في مفهومه وبلحاظ المقارنة مع إسرائ النبي صلى الله عليه وآله وسلم تتضح بجلاء وجوه الرأفة والرحمة عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم والتي أدت إلى هداية الناس فما أخبر عنه الله تعالى في هذا الحديث "فلعلهم يتوبوا او يرجعوا أو أستخرج من صلبهم ولداً صالحاً" فان الشطر الأخير تحقق بإتباع الناس للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وهدايتهم بالإسلام.

أما سليمان فان الله سخر له الرياح لتقله إلى الأماكن البعيدة في

(١) سورة الحجر ٤٨.

(٢) تفسير الطبري ١١/٤٧٣.

ساعات قليلة وعندما تشتد تنتقل به إلى حيث يريد في لحظات معدودات ولقد أحضر وزيره آصف بن برخيا بما آتاه الله من علم عرش ملكة سبأ من اليمن إلى بلاد الشام بأقل من لمح البصر سواء بطي الأرض او يخسف الأرض بينه وبين سرير بلقيس فتناوله بيده ثم عادت الأرض كما كانت أسرع من طرفة عين كما في الخبر، أو أنه مد بصره ثم مد يده فاذا هو ممثل بين يديه وقال بيده هكذا فاذا هو بعرش أميرة سبأ ﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي ... ﴾ (١).

ولم يكن سليمان عليه السلام يعجز عن إحضاره بنفسه وبدون الإستعانة بآصف وغيره، ولكنه أراد أن يري جنوده العلوم التي عند آصف لكي يدركوا أنه الحجة من بعده لتبقى كلمة التوحيد وسيادتها، ولمنع الفرقة والإنشقاق كما بين داود عليه السلام امامة سليمان لبني إسرائيل.

ولم يكن عند آصف الا حرفاً واحداً من الاسم الأعظم فتكلم به وأحضر العرش.

وعند النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم اثنان وسبعون حرفاً منه، وتجد شواهد هذا في القرآن فالآية الكريمة تقول ﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ ﴾ (٢) بينما قال تعالى في مدح النبي صلى الله عليه وآله وسلم ﴿ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمٌ

(١) سورة النمل ٤٠.

(٢) سورة النمل ٤٠.

الْكِتَابِ ﴿١﴾، وفي بعض الروايات انه الإمام علي عليه السلام.
 ويشير القرآن إلى معراج مستمر للسيد المسيح ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ
 وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ ﴿٢﴾، وتقول المسيحية بقيامة المسيح بعد مضي ثلاثة
 أيام على وفاته كما في إنجيل مرقس وإنجيل لوقا.
 ولما دخل دحية الكلبي^(٣)، على قيصر مبعوثاً من النبي صلى الله
 عليه وآله وسلم ومعه كتاب معنون من محمد رسول الله إلى قيصر
 صاحب الروم ويدعوه للإسلام جمع الأساقفة والبطارقة وأرسل
 يبتغي قوماً يسألهم مما يدل على العناية الفائقة التي أولاها لكتاب
 النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، إما للأخبار التي وردت في
 كتبهم عن بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، أو لما تناقله
 الناس عن معجزاته وإزدياد عدد المسلمين وانتصارهم في معارك
 الإسلام الأول بدر وأحد والخندق لأن دحية وفد على قيصر رسولاً
 من النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم سنة ست للهجرة.
 ومن الآيات في بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أن
 الحسرة تصاحب وتطارد أعداءه فبعد أن كان أبو سفيان يجهز
 الجيوش الكبيرة لقتال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وإذا
 هو خلال أشهر يرى مبعوثه في قصر قيصر يدعوه للإسلام، ويرسل

(١) سورة الرعد ٤٣.

(٢) سورة النساء ١٥٧.

(٣) الدحية - بكسر الدال - رئيس الجند، وبه سمي دحية بن خليفة الكلبي
 صحابي شهد أحداً وما بعدها، وكان جبرئيل عليه السلام يأتي النبي صلى الله عليه وآله وسلم
 وأرسله النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى قيصر
 رسولاً سنة ست في الهدنة.

رجال القصر على شهود من غير تعيين بشخص أو جماعة فيؤتى بأبي سفيان وأصحابه لأنهم من قوم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

فيأتي أبو سفيان بحجة وشاهد يريد منه الإنتقااص من النبي ونبوته، وهو حديث الإسراء، فيكون الرد تصديق الإسراء من حاشية قيصر وكبار رجاله بالآية الحسية والدليل العملي.

فجمع له أبو سفيان وأصحابه فقال اخبرني عن هذا الرجل الذي بعث فيكم فلم يأن ان يصغر أمره، يقول أبو سفيان حتى ذكرت قوله ليلة أسري به قلت: ايها الملك أنا أخبرك عنه خبراً تعرف انه قد كذب قال: وما هو قلت: انه يزعم لنا أنه خرج من أرضنا أرض الحرم في ليلة فجاء مسجدكم هذا مسجد إيليا ورجع إلينا في تلك الليلة قبل الصباح قال وبطريق إيليا عند رأس قيصر. قال البطريق: قد علمت تلك الليلة فنظر إليه قيصر فقال: ما علمت بهذا قال: إني كنت لا أبيت ليلة حتى أغلق أبواب المسجد فلما كانت تلك الليلة أغلقت الأبواب كلها غير باب واحد غلبني فاستعنت عليه عمالي ومن يحضرني كلهم فعالجته فلم نستطع أن نحركه كأنما نزاوّل به جبلاً فدعوت الناجرة فنظروا إليه فقالوا: سقط عليه النجاف والبنيان فلا نستطيع أن نحركه حتى نصبح فننظر من أين أتى فرجعت وتركت مفتوحاً.

فلما أصبحت غدوت فإذا الحجر الذي من زاوية الباب مثقوب وإذا فيه اثر مربوط الدابة فقلت لأصحابي ما حبس هذا الباب الليلة الا على نبي فقد صلى الليلة في مسجدنا^(١).

لقد إختار الله لنبيه كرامة الإسراء وكذلك أكابر الأنبياء والأولى

والأنفع هو التسليم بقدرة الله عز وجل وحق النبوة عنده، إذ أن أكثر أرباب الملل والنحل يقرون بوجود إبليس وأنه يقوم بالوسوسة في قلوب بني آدم وتمكنه من الحركة بسرعة ليحضر هنا وهناك. لقد اجتهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالدعوة إلى الإسلام مع كثرة ما لاقاه من مشركي قريش والكفار عموماً من الأذى حتى قال: ما أؤذي نبي مثل ما أؤذيت^(١). أي بالإمكان معرفة الأذى الذي لاقاه النبي صلى الله عليه وآله وسلم بثلاثة طرق:

الأول: إخبار الأنبياء السابقين.

الثاني: السيرة والوقائع التاريخية.

الثالث: إخبار النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

ولابد من معرفة الدروس والخصائص التي يتصف بها النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن الأنبياء السابقين سواء فيما وصل إليه مما لم يبلغه غيره من رسول أو ملك مقرب أو في آية الإسراء ذاتها، وعن الإمام جعفر الصادق: إن جبرئيل إحتمله حتى انتهى به إلى مكان من السماء ثم تركه وقال له ما وطأ نبي قط مكانك^(٢).

وحيثما يكون الحديث عن صعود الأنبياء السابقين لم يقل أحد إنه بالروح فلماذا عند الحديث عن سيدهم وخاتمهم وأعظمهم منزلة عند الله يقول بعضهم اننا لا نؤمن إلا بالمحسوس وأن الإسراء كان بالروح، مع أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أوتي ما أعطي للأنبياء السابقين وهم صعدوا إلى السماء بالجسد والروح، فتكون النتيجة وفق القياس الإقتراني أنه صلى الله عليه وآله وسلم صعد

(١) مفاتيح الغيب ٢/٤٥٤.

(٢) مجمع البيان ٦/١٩٤.

بالجسد والروح من باب الأولوية قال تعالى ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(١).

بحث عرفاني

للإسراء أبعاد روحية ووجدانية وسلوكية، إنه عنوان تطهير للذات، وإزالة للكدورات وتصفية للقلب وتجريد للباطن، وطرده لمادية الطبيعة وسيطرة النفس الشهوانية والحيوانية والدرن المترشح عن حالة التعامل اليومي، وفيه تخليص من طاعة الهوى واغواء الشيطان.

والإسراء عنوان محبة الله عز وجل للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ودرجة هذه المحبة، وفيه دعوة للناس للإرتقاء عن حضيض الحيوانية وهموم البشرية ليصبح سموا وصعودا في مدارك العقل وسلم الكمالات بملاك المعرفة والإخلاص، وتشريفاً للإنسانية بسيادة العلم وهياكل التقوى، وإنذاراً للناس جميعاً بقرب يوم الحساب، والإنذار هو الإخبار مع التخويف.

إنه حلقة الإتصال والتداخل بين الإنسان وعالم الملكوت وتدل على فتح ابواب التقارب بين الإنسان والمملك ببيادين المعرفة، وفي الإسراء إرتفاع للحجب عن القلوب وتهذيب للنفوس، وتحد وإذابة للمشاق الجسمانية وغلبة لآثار الملكوت على النفس الإنسانية، وطرده للغفلات ومنع لسيطرتها وإحتلالها بقعة في وقت وعمل المسلم.

والإسراء إشعاع ينفذ إلى القلوب وينور بواطن المسلم بأنوار

الهداية ويمكن إعتباره حضوراً سماوياً في المجتمع الإسلامي يدفع الأفراد إلى الحق ويحول دون التردّي في هاوية الضلالة والشرك، وهو تأكيد على قرب عالم الآخرة وسياحة الروح في السماء، قال تعالى ﴿يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾^(١)، ليأتي عروج النبي في السماء شاهداً على إكرام الله عز وجل للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وتجديداً لسكن آدم في الجنة، وهو كالوعد والمثال في سكن المؤمنين الجنة.

وسيقى الإسراء درساً حياً ومستديماً في بعث المحبة الإيمانية واستغراقها لجميع المسلمين لأنه تزكية لهم وثناء عليهم وإعانة على أدائهم الفرائض والمناسك لما فيه من الصفاء والتقوى، وطرده لظلمة الدنيا وحاجز دون اللذة وشوائب المشاغل والحاجات الجسمية. إنه من عالم العقل والفكر ومدخل لإنتفاء الجهالة وأثر الشيطان، إذ يشعر المسلم بحصة له في السماء ويتلقى منها الأحكام الشرعية والأخلاقية مباشرة ومن غير واسطة كعنوان لعز المسلمين وإكرامهم، وحفاوة أهل السماء بهم وبنبيهم وبأحكامهم. إنه رياضة في سماء المعرفة الإلهية، ومدرسة جامعة في الأذكار والأوراد وهو يوم الأهلية، أهلية الإنسان للإرتقاء في سلم الملكوت بسلطان الاخلاص لله عز وجل، وفوز المسلمين بكنوز المعرفة إذ أن آثار العبادة تنعكس على القلب.

وفي الإسراء عنوان إضافي وهو وجود منافع وآثار لأفعال الجوارح في إتساع المعارف الإنسانية وكيف أنها تنور القلوب وتصلح النفوس.

فأي شرف أعظم من الإرتقاء في عالم الملكوت للنزول بشروة وتجارة لن تبور، وأحكام في العبادات من أجل تكميل النفوس، وتهذيبها مع معرفة للحق وتعظيمه وتوحيده.

وهو قوة روحية تبعث أنوارها في أركان البدن، لقد أراد الله عز وجل للإسراء أن يصبح تصفية للروح ودرءاً لوساوس الشيطان والهواجس النفسانية فلا غرابة أن يتلقى فيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم أحكام الصلاة ويلتقي بالملائكة والأنبياء، ويرى ما يواجه الكفار والمجرمين من وجوه العذاب.

إنه تجريد عن جهات الجسم والمكان في الدنيا وحوادث الزمان فلقد أراد الله للمسلم أن يسمع كلامه سماعاً قلبياً روحياً وأن يشعر بقربه من الحضرة الإلهية لذا ترى نفسك وأنت تقرأ القرآن تحس بإرتقائك في عالم المعرفة وتسمو في مراتب النفس وكمالات الروح وكأن قلبك قد تعلق بموضوع التنزيل.

فهو اسراء بالواسطة أي بقراءة كلام الله يصبح الإنسان من ضمن دائرة إشعاع أنوار الحضرة الإلهية، ولا يرى في الوجود إلا هو سبحانه ويغلب سلطان العقيدة والإيمان على النفس وتنطلق سائمة في مواطن الآخرة وكأنها تستقر بالجنة حينما يمر على آية من آياتها، ويخاف ويحزن ويضطرب عندما يقرأ آية تجسد أهوال النار وكأنه واردها.

وفي الإسراء خلق لحال الإستعداد والتلقي للعلوم لتكون مضامينه وأحكامه وما نزل به النبي صلى الله عليه وآله وسلم من المعارف والعلوم والأحكام قوة في العقيدة وكمالاً في النفس والمؤسسات الإسلامية وطلباً للصعود والإرتقاء العقائدي، وطرذاً للجهل والوحشة والضعف.

إن الإسراء عنوان محبة للمعشوق وسعي للعكوف على باب رحمته وورد في الخبر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: "تخلقوا بأخلاق الله تعالى"^(١)، ليبقى الإنسان في جوار حضرة الكمال والجلال متخلصاً من سنخ الظلمات، وحب المال والشهوات وما يؤدي إلى الإمتناع الإنطباقي عن تلقي رحمة الله. لقد كان الإسراء عنوان فخر وعز للمؤمنين، ومدرسة عرفانية مستقلة تفيض بسعادات ذات مراتب ووجوه متعددة وتبحث عن الكمالات النفسانية وهو حرز وواقية للمؤمن.

وروى ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى قال: إذا هم العبد بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، وإذا هم بسيئة ثم عملها كتبت له سيئة.

وأخرج أحمد والبخاري ومسلم والنسائي وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيما يروي عن ربه ، من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشرأ إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة ، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له واحدة أو يحوها الله ، ولا يهلك على الله إلا هالك^(٢)، وعن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، يروي عن ربه، عز وجل، قال: "أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر". لم يخرجوه^(٣).

(١) مفاتيح الغيب ٧/٤.

(٢) الدر المنثور ١٧٩/٤.

(٣) تفسير ابن كثير ٣٦٧/٦.

الإسراء وبيت المقدس

من إعجاز القرآن الغيري مصاديق عديدة منبسطة على كل زمان، ومنها المعاني الموضوعية لآياته الإعجازية إذ نجد المسألة الإبتلائية التي تهّم كل مسلم بل وكل انسان موجودة في القرآن ومذكورة بما يصلح للبحث والدراسة والاستنباط والاستنتاج لتؤكد حقيقة ثابتة وهي كون القرآن ﴿تَبَيَّنَّا لَكُلِّ شَيْءٍ﴾^(١).

والإعجاز في بيت المقدس مركب، لما تعلق به من آيات في القرآن ولما له من منزلة عند المسلمين تجسدت بجعله القبلة الأولى لهم مع أن بداية البعثة النبوية والتنزيل بأشرف بقعة وهي مكة وإستمر إتحاذه قبله لمدة سبعة عشر شهراً من حين هجرة النبي والمسلمين الى المدينة، وروي أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان قبل ذلك إذا صلى في مكة جعل الكعبة بينه وبين بيت المقدس.

وأختلف في التوجه إلى بيت القدس هل كان فرضاً لا يصح غيره أم كان على نحو التخيير، وعن ابن عباس أنه كان فرضاً محققاً بلا تخيير وعنه أيضاً أن أمر القبلة أول ما نسخ في القرآن ولكن النسخ في الإصطلاح يعني وجود الناسخ والمنسوخ في القرآن كآية منه تعالى.

وصحيح أن قوله تعالى ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾^(٢)، يدل في مفهومه على النسخ كفعل وهو ثابت عن طريق الإخبار والسيرة.

ومن الإعجاز ان القرآن خلد بيت المقدس كموضع عرج النبي

(١) سورة النحل ٨٩ .

(٢) سورة البقرة ١٤٤ .

منه إلى السماء في دلالة على موضوعية له في معراج الأنبياء، ومهبط الملائكة بعد أن صلى فيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

أن الإسراء إلى بيت المقدس بجسد وروح النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثم العروج به إلى السماء يعطي منزلة وشأناً إضافياً لبيت المقدس في إتصال الأرض بالسماء وعالم الأمر، والمسلمون هم حملة لواء التوحيد وورثة الأرض بالإضافة إلى أهميته واعتباره في عباداتهم بأن كان القبلة الأولى.

لقد أخبر القرآن عن إحاطة بيت المقدس بالبركة السماوية الأولى وأخبر عن إحاطة بيت المقدس بالبركة السماوية بقوله تعالى ﴿الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾^(١)، وفي الخبر ان البركة تتعلق بالشمار

والأشجار فاهله لا يحتاجون الى ان يجلب لهم من بلاد أخرى. ومن أفراد البركة كونه مقر الأنبياء ومهبط الملائكة، وإن البركة بمصداقها الأهم تكون بالمسلمين وبشعائر الإسلام وإقامة الجمعة والجماعة في كل وقت، وفي هذا إخبار عن دوام وجود المسلمين والإسلام فيه بيسر كما حصل في المرة الأولى.

فالآية بشارة لنا في فتحه ومن البركة المحبة والإستقرار والهداية التي يجب ان تكون في بقاعه كما أن في الآية مواساة للمسلمين وتخفيفاً لما يتعرض له بيت المقدس، ومن الأذى والحجب أحياناً من الوصول إليه، خصوصاً وأن حديث الأسراء في مفهومه دعوة لزيارته، والمواساة تجمع هنا مع البشارة بالفتح كما في قوله تعالى ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا

خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ﴿١﴾.

القرآن معنا في السراء والضراء، والكاف للتشبيه فمن أراد أن يرى صورة الفتح وحساباته فليرجع الى اول دخول للمسلمين إلى بيت المقدس ودخول المسجد يعني فتح المدينة ودخول البلد كما أشار بالمسجد الحرام إلى الحرم ومعناه وليستولوا على البلد لأنه لا يمكنهم دخول المسجد إلا بعد الإستيلاء، ولعل ما ذكره قياس مع الفارق فمكة كان يحكمها الكفار من قريش والمؤمنون هاجروا منها. أما بيت المقدس فالإخبار الإلهي عن نشر البركة حوله بالمسلمين والشعائر الإسلامية والوجود الإسلامي موجود فيه إبتداء وإستدامة قال تعالى في الإسراء ﴿الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾^(٢)، وفيه نوع تخفيف عن المسلمين ومدد ومقدمة للنصر.

إن التوكيد القرآني على ما لبيت المقدس من الشأن آية اعجازية حالت دون الإفتراء وإدعاء قلة إهتمام المسلمين به، فقد أولاه المسلمون عناية خاصة في جهادهم ومناسكهم لذا ترى السعي المتصل له فتحاً وعمارة وزيارة وسكناً منذ القرن الأول الهجري، ثم قام عبد الملك بن مروان في القرن الثاني ببناء قبة الصخرة، وصحيح أن ذلك تم عندما سيطر عبد الله بن الزبير على مكة والبيت الحرام إلا أنه لا يمنع من الدلالة عناية المسلمين به، وفيه يقول الفرزدق:

وَبَيْتَانِ بَيْتُ اللَّهِ نَحْنُ وَلَاتُهُ

(١) سورة الأسراء ٥.

(٢) سورة الأسراء ١.

وَبَيَّتْ بِأَعْلَىٰ إِبِلْيَاءَ مُشْرِفٌ^(١).

ونسب الى الزهري انه لما قتل الحسين عليه السلام لم يبق بيت المقدس حصاة إلا وجد تحتها دم عبيط^(٢)، وبذل المسلمون جهوداً كبيرة وأنفقوا أموالاً كثيرة لبناء وعمارة المسجد الأقصى لما حدث زلزال كبير عام ٤٢٤ هجري ، ولا يزال قسم من بنائه ذاك قائماً ويتعاهده المسلمون .

ومن الأخبار أن المهدي ينزل بيت المقدس ويصلي فيه، والعرب ممن سبقوا غيرهم في سكن هذه البلاد وباسمهم سميت فلسطين- بكسر الفاء ثم فتح اللام- ومن الإخطاء الشائعة ان الناس تقرأها بكسر اللام، قال ابن منظور: (فلسطين الكوة المعروفة فيما بين الأردن وديار مصر، حماها الله) ^(٣).

وأختلف في تسميتها على أقوال:

الأول : نسبة إلى فلسطين بن سام بن ار بن سام بن نوح.

الثاني : بإسم فلسطين بن كلثوم من ولد فلان بن نوح.

الثالث : بإسم فلسطين بن كسلوخين بن صدقيا بن كنعان بن

حام بن نوح.

الرابع : إن شعباً من شعوب البحر المتوسط يسمى بالفلسطينيين

العرب هاجر اليها.

وقدر بعضهم هجرة هذه القبائل من جزيرة العرب الى هذه الأصقاع وإلى أرض الشام خاصة بالمدة المحصورة بين (٢٥٠٠-٣٥٠٠) قبل الميلاد وكانوا عبارة عن قبائل أشباه رحل، إن هذه الهجرة تدل

(١) لسان العرب ٤٠/١١ .

(٢) بحار الأنوار ٢٠٥/٤٥ .

(٣) لسان العرب ٣٢٥/١٣ .

على أن البلاد ذات أهمية جغرافية وأنها ذات حضارة عريقة كجزء من البركة التي جعلها الله حول المسجد الأقصى لا على نحو الإستصحاب القهقري لما قبل أيام نزول القرآن بل لأن نعم الله تعالى متصلة، وأن ذلك السكن والبركة موجودان قبل أن يخلق بنو إسرائيل إذ أن التوراة تجعل ولادة أبناء يعقوب وهم أسباط إسرائيل الإثنا عشر نحو سنة الف وثمانمائة قبل الميلاد.

ومن البركات توالي بعثة الأنبياء في تلك البقع المباركة وشيوع الإيمان ومضامين التوحيد فيها.

وفي معركة بدر حيث كان المشركون نحو ثلاثة أضعاف المسلمين وأكثر عدة، قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لعلي عليه السلام اعطني قبضة من حصا الوادي فناولته كفاً من حصى عليه تراب، فرمى به في وجوه القوم، وقال شأهت الوجوه وكانت بداية هزيمة المشركين وفزعهم، ونزل قوله تعالى ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾^(١).

الإسراء بالبدن

هل حصل الإسراء بالبدن وأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أسري به فعلاً وواقعاً وانتقل شخصه الكريم إلى المسجد الأقصى وهو ظاهر الآية الكريمة وظواهر القرآن حجة.

وإجماع علماء المسلمين على حصول الإسراء بالجسد والروح، وليس بالروح فقط ولا عبرة بالشاذ والنادر.

ولكن القول بأن الإسراء بالروح وحدها ليس بالجديد فقد نسب إلى عائشة ومعاوية وحذيفة وروي عنه انه قال: ذلك رؤيا، وأنه ما

فقد جسد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإنما أسري بروحه. وقال به بعض المعتزلة وهذه النسبة تحتاج الى تحقيق رجالي، فنحن مثلاً نستدل على تفضله تعالى بمجعل الجوهر الأساسي لشخص الزهراء من موجودات الجنة ليكون نبراساً للفضيلة وفيضاً ملكوتياً مباركاً، ودليلاً على تشریفه تعالى لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته، الأمر الذي يدل بالدلالة التضمنية وبحسب النصوص بأن الإسراء حدث بالجسد والروح.

فقد روي عن أبي سعيد الخدري وابن عباس والإمام جعفر الصادق عليه السلام وعن عائشة أيضاً أنها قالت: "قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما أسري بي إلى السماء أدخلت الجنة فوقعت على شجرة من أشجار الجنة لا أحسن منها ولا أبيض ورقاً ولا أطيب ثمرة فتناولت من ثمرتها فأكلتها فصارت نطفة في صلبى، فلما هبطت إلى الأرض واقعت خديجة فحملت بفاطمة عليها السلام، فاذا إشتقت الى ریح الجنة شممت ریح فاطمة"، أي ان عائشة تقول بان الإسراء حصل بالروح والجسد، أما بالنسبة لحذيفة فهذا الاسم على الظاهر يقصد به حذيفة بن اليمان وإن ذكر أكثر من واحد بإسم حذيفة وأنه من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم وبعضهم مجهول.

وحذيفة بن اليمان نسبة إلى اليمن لأن جده جردة أصاب دماً في قومه فهرب إلى المدينة فحالف بني عبد الأشهل، فسماه قومه باليمان لأنه من اليمن حالف الأنصار وهم في المدينة، وقيل أن اليمان مأخوذ من اليمين وهو الحلف والأول أنسب.

وتوفى والياً في المدائن بعد بيعة الإمام علي عليه السلام بأربعين يوماً وجلالة قدره ووثاقته وورعه عليه الإتفاق والإجماع، وكان يعرف

المنافيين بأعيانهم وأشخاصهم، عرفهم ليلة العقبة لما أرادوا ينفروا ناقة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في منصرفهم من تبوك، وكان حذيفة تلك الليلة قد أخذ بزمام الناقة يقودها، وعمار من خلف الناقة يسوقها.

وروي أن عدد أصحاب العقبة إثنا عشر وأختلف هل هم من الأنصار كما عليه الجمهور، أم هم من الأنصار والمهاجرين . وأخرج ابن أبي شيبة والحاكم وصححه عن حذيفة قال: إن الناس كانوا يسألون رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الخير، وكنت أسأله عن الشر كيما أعرفه فأثقيته^(١).

وفي هذا الخبر دلالة على السعة والعلم عند الصحابة وإنتقال علوم القرآن والسنة أو شطر منها للمسلمين بواسطتهم وبسعيهم، روى عروة بن الزبير أن حذيفة بن اليمان كان مع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يوم أحد فأخطأ المسلمون وظنوا أن أباه اليمان واحد من الكفار ، فأخذوه وضربوه بأسيا فهم وحذيفة يقول : إنه أبي فلم يفهموا قوله إلا بعد أن قتلوه ، فقال حذيفة : يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ، فلما سمع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ذلك إزداد وقع حذيفة عنده^(٢).

وفي أسد الغابة أنه شهد حذيفة الحرب بنهاوند فلما قتل النعمان بن مقرن أمير ذلك الجيش أخذ الراية وكان فتح همدان والري والدينور على يده، كما شهد فتح الجزيرة ونزل نصيين وتزوج فيها. وإن ثبت القول عنه بأن الإسراء بالروح فقط فان الجواد قد يكبو والصارم قد ينبو والعصمة لمن سده الله عز وجل وعصمه،

(١) الدر المنثور ٩/ ١٨٠ .

(٢) مفاتيح الغيب ٥/ ٣٢٩ .

لأن مثل هذا القول خلاف الدلائل والواقع ولكن إثبات هذا الحديث ونسبته لهذا الصحابي الجليل بعيد كما يمكن أن يناقش القول دلالة وتاريخياً.

وقال الرازي: (أختلف في كيفية الإسراء، فالأكثر من طوائف المسلمين إتفقوا على أنه أسري بجسد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، والأقلون قالوا: إنه ما أسري إلا بروحه)^(١).

ولكن هذا التفصيل ليس بتام من وجوه:

الأول: أن الإجماع على حصول الإسراء بالبدن والروح ولا عبرة بمن شذ.

الثاني: نسبة القول بالخلاف إلى الأقلين في مقابل الأكثرين يحتاج إلى ذكر المصاديق.

الثالث: نسبة الإسراء بالروح إلى ثلاثة من الصحابة لم يثبت كما تقدم.

ومنهم من قال: إن الإجماع الضروري للمسلمين على عروجه بجسمه الشريف وأن الذي يقول أن معراجهم روحاني، وأن من أنكر معراجهم الجسماني ملحد وخارج عن الدين.

ولكن لا تصل التوبة إلى التكفير والرمي بالإلحاد من وجوه:

الأول: وجود الإسلام الحكمي عند القائل بالإسراء بالروح.

الثاني: الذهاب إلى القول بالإسراء بالروح عن قول ينسب إلى بعض الصحابة أو شبهة أو ظن .

الثالث: على المسلمين أن يتنزهوا من رمي بعضهم بعضاً بالكفر أو الفسوق لقول أو رأي أو شبهة لا تتعلق بضرورات الدين .

الرابع: موضوعية الإقرار بنبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم

التي هي سور الموجبة الكلية الشامل لجميع المسلمين، فهي ثابتة حصل الإسراء ام لم يحصل.

وعلى هذا التسليم والإقرار من عامة المسلمين وهو كاف للوصف بالإسلام وحلية المناكح وحقن الدماء.

وقيل أن الأخبار الدالة على الإسراء بالروح والبدن لا تخصى ولا إعتبار لشبهات المتكلمين والحكماء، ومن أنكر المعراج الجسماني لإمتناع الخرق والإلتيام في السماوات فقد رد على الله والرسول وهو على حد الشرك.

ولكن القول بعدم حصول الإسراء الجسماني لا يصدق عليه أنه رد على الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم، ولا يصل إلى الشرك، ومن اعجاز القرآن وعلومه أنه يفسر بعضه بعضاً، فتجد الآية تفسر غيرها وغيرها تفسرها سواء ذات الآية المفسرة ومن نفس السورة أو سورة أخرى.

وفي ذلك حجة وتخفيف لقطعية صدور القرآن عن الله تعالى وخلوه من التحريف ولأن يد التحريف لم ولن تصل إليه، ويمكن الاستشهاد من القرآن على حصول الإسراء بالبدن، قال تعالى ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى * عَبْدًا إِذَا صَلَّى﴾^(١) ولا شك أن المراد هنا مجموع الروح والجسد.

وورد في سورة الجن ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾^(٢) والقيام والدعاء حاصل بالبدن والأركان من الجوارح والتلفظ باللسان. إن قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "اتخذني الله عبداً قبل

(١) سورة التين ٩ - ١٠.

(٢) سورة الجن ١٩.

ان يتخذني نبياً^(١)، يؤكد الإسراء بالبدن وأنه إعداد وتأهيل للنبوة في بداياتها ومقدمة للامامة التي تعني الرئاسة العامة في أمور الدين والدنيا وظهرت آثاره المباركة في التبليغ وفي حسن إستجابة المسلمين، ويمكن مناقشة القول بأن الإسراء حصل بالروح فقط من وجوه:

الأول : لم يترتب على هذا القول أثر في النقل والإستدلال من قبل التابعين وتابعي التابعين.

وعن حذيفة أنه قال ذلك رؤيا . وأنه ما فقد جسد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وإنما أسري بروحه^(٢).

ولكن الرؤيا اعم من حصول الإسراء وإن كانت إسراء روحياً، كما أن ذكر الآية في القرآن وهي من غرر الآيات وتدل على رجحان وأفضلية النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لا يناسبه دعوى وتفسير الرؤيا، والأصل حمل الكلام على الحقيقة واليقظة وعدم الإنتقال إلى المجاز إلا مع القرينة الصارفة وهي معدومة في المقام، أي أن الإسراء يحمل على حقيقته وهو حصوله بالجسد والروح معاً.

الثاني : يمكن مناقشة دعوى النسبة إلى ثلاثة من الصحابة سنداً فهي كلاً أو بعضاً دعوى ضعيفة بالإرسال والإنقطاع ولم ترد في الكتب المعتبرة المسندة عند عموم المسلمين، فليست بحجة كما أنها قاصرة عن معارضة الأدلة والظاهر والنصوص.

الثالث : لو قلت بصحة النسبة إلى هؤلاء الصحابة فإن حديثهم لا يرقى إلى معارضة الأخبار المتواترة عن الإسراء بالروح والجسد

(١) تاريخ دمشق ٧٦/٤.

(٢) مفاتيح الغيب ٤٩٤/٩.

منطوقاً ومفهوماً، خصوصاً وأنه ورد عن عائشة ما يدل على حصول الإسراء بالجسد والروح معاً.

الرابع: كثر في باب المواعظ والأخبار أحاديث القصاص والوعاظ اذ كانوا يجلسون بعد الصلاة يتحدثون بالأخبار الضعيفة والمرسلة وربما الموضوعة فلا بد من الرجوع إلى الأسانيد والكتب المعتبرة، وهو الأمر الذي بذل فيه العلماء جهوداً عظيمة فقاموا بتتقيق الأحاديث وبيان الصحيح من الضعيف مع إسقاط الموضوع. الخامس: القول بحصول الإسراء بالروح ذهب إليه بعض المعتزلة ولعله لإعتمادهم مباحث عقلية صرفة والإعجاز أعم وأوسع.

السادس: الجسم هو جوهر كل مادة، ومعنى البدن هو ذلك الجسم المتحرك بالإرادة.

السابع: العقل هو مناط التكليف، إذ يحصل بواسطته العلم بالواجبات ولزومها وتحديد الضروريات ومعرفة المستحبات، وهو قوة التمييز بين الحق والباطل، وعند الفلاسفة هو جوهر بسيط أو أنه مادة وطبيعة، وعرف بأنه جسم لطيف محله الرأس، والإسراء فعل شارك فيه العقل والروح والبدن على نحو الاجتماع بدليل إطلاق لفظ العبد الشامل لجميع أجزاء البدن على نحو السور الجامع لها والكيان المتكامل.

الثامن: إن حصول الإسراء بالبدن أو الروح فقط فرع مترشح عن موضوع الإسراء الأساسي وهو مركب من أمرين.

الاول: قدرة الله تعالى على جميع المقدورات.

الثاني: الإسراء بالنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم روحاً وجسداً فضل من الله عز وجل عليه وعلى المسلمين.

وهو رسالة سماوية للناس جميعاً للإقرار بنبوته صلى الله عليه وآله وسلم ودعوة للإسلام.

المكي والمدني

القسمة هي التجزئة والتفريق إلى أقسام متباينة بلحاظ معين، وكل فرد من الإقسام يسمى قسماً بالنسبة إلى المقسم، (وقسماً) بالنسبة للأفراد الأخرى، وتدخل القسمة في كل شئ من المخلوقات لأنها أمور مركبة، ومحتاجة إلى أجزائها، لذا فإن القسمة من أسرار الخلق والحاجة إلى الله عز وجل فهو سبحانه بسيط غير مركب.

ومن صيغ القسمة وجهان:

الأول: القسمة الطبيعية وهي قسمة الشئ إلى أجزائه كقسمة الإنسان إلى البدن والروح، وقسمة الماء إلى أوكسجين وهيدروجين.
الثاني: القسمة المنطقية وهي قسمة الكلي إلى أجزائه، والجنس إلى أفراد، كقسمة الكلمة إلى اسم وفعل وحرف.

ولابد أن تكون القسمة جامعة مانعة، أي جامعة لكل ما يمكن أن يدخل القسم، ومانعة من دخول غير أقسامه فيه، وجاء تقسيم سور القرآن إلى مكية ومدنية من جهات:

الأولى: أنه من القسمة الثنائية، وطريقة التريد بينها، بحيث لا يكون هناك قسم ثالث، ولا يجتمعان في آية واحدة، ويستوفيان آيات القرآن كلها.

الثانية: القسمة التفصيلية الإستغرافية، والتي تأتي على نحو التتبع ومراعاة قواعد وأسس خاصة، ولا تمنع من فرض قسم آخر، وليس من حد لقسمة آيات وسور القرآن بحسب اللحاظ والقواعد الخاصة بها.

وهو علم شريف يبين زمان ومكان نزول الآيات القرآنية وترتيب ما نزل في مكة وما نزل في المدينة، إن معرفة وتقسيم المكي والمدني من الآيات والسور دليل على إلتفات المسلمين إلى أهمية تفاصيل نزول القرآن ومراحل نزول الآيات وما يترتب على ذلك من أحكام وإعتبارات يحتاج التفصيل فيها إلى الإستقراء والبحث والتقصي وفيه مسائل :

الأولى : هذا العلم شاهد على ضبط الصحابة لموضوع الآيات القرآنية وما يتعلق بها وأنهم أولوا القرآن الإهتمام الخاص وإحتاجوا في تفسيره إلى معرفة وقت نزول الآية وكانوا يحرصون على معرفة زمان نزول الآية بالتتابع المستمر لنزول الآيات فيحفظون زمانها مع حفظها وتعلمها وتفسيرها، إنه نوع توثيق ووعي للمسؤولية وإدراك لموضوعية أوان النزول في تفسير الآية وأحكامها وقد وردت النصوص عن أمير المؤمنين عليه السلام بمعرفته لزمان نزولها، بل ورد ذلك عن الصحابة كعبد الله بن مسعود وإهتم به إبن عباس أيضاً.

لقد كان نفر من الصحابة يأخذون القرآن من فم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويولون عناية بتفاصيل النزول.

الثانية : يدل على إقرار المسلمين بصدق النزول وأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن يخفي أو يؤخر أو يقدم شيئاً إلا بأمر من الله تعالى .

الثالثة : يساعد هذا التقسيم على صحة التأويل والتفسير.

الرابعة : وهل التقسيم بالمكي والمدني فرض عين على كل مسلم او هو كفائي أو مستحب، الأقوى هو الأخير إذ ليس من دليل على وجوبه ولكنه طريق لمعرفة الناسخ والمنسوخ، والمطلق والمقيد، وعون على التفسير والتأويل، إنه موضوع للبحث والتحقيق إعتنى به

الصحابة والتابعون وأصبح كنزاً وثروة قرآنية عظيمة تتفرع عنها عدة أبواب من العلوم.

وتقسيم المكي والمدني ليس جديداً بل هو معروف منذ صدر الإسلام مما ساعد على تمام الضبط والدقة فيه ويدل على الحاجة إليه في علوم القرآن، ولكن مصطلح المكي والمدني يتنى على إعتبارات ثلاثة بينها بلحاظ المصداق عموم وخصوص من وجه:

الأول: إعتبار تأريخ الهجرة في التقسيم وهو ان المكي ما نزل بمكة قبل هجرة النبي وأن لم يكن نزوله في مكة، أما المدني فهو ما كان نزوله بعد هجرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وان كان نازلاً في مكة، وما كان في طريق الهجرة قبل الوصول إلى المدينة وهو مكي أي لا واسطة بينهما.

فمثلاً سورة يوسف كلها نزلت بمكة، وسورة آل عمران كلها نزلت بالمدينة.

وهناك سور كانت آياتها مكية ومدنية أي أن بعض آياتها نزلت بمكة وبعضها بالمدينة، ولا يقال أنها مكية مدنية، إنما ينظر إلى الغالب عليها، فسورة الأنعام مكية لأنها نزلت بمكة إلا بضع آيات نزلت بعد الهجرة وما غلب عليها المدني سميت مدنية كسورة التوبة فقد نزلت بالمدينة إلا بعض منها نزل بمكة، فلقد بعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأربعين سنة من عمره فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة ثم أمر بالهجرة، فهاجر إلى المدينة وبقي عشر سنين واستأثر به الله عز وجل وهو ابن ثلاث وستين.

الثاني: إن المكي ما هو خطاب لأهل مكة، والمدني ما هو خطاب لأهل المدينة، أي أن هذا التقسيم بلحاظ المخاطب. ويشكل عليه في الكبرى من وجوه:

الأول : ان القرآن لم يكن خطاباً لأهل بلد دون غيرهم إنما كان خطاباً للناس جميعاً.

الثاني : الأصل عدم الحصر إلا أن يرد دليل عليه وهو مفقود في المقام غير ملائم لعظمة القرآن، ووظيفته في هداية الناس جميعاً، والأصل في الخطابات القرآنية ارادة العموم.

الثالث : فيه تحديد وتقييد للنفع الشرعي والعلمي من هذا التقسيم.

الثالث : إن المكي ما نزل بمكة سواء كان ذلك قبل الهجرة أو بعدها، والمدني ما نزل بالمدينة وإن إتفق ما نزل فيها بعد الهجرة أي إعتبار مكان النزول وحده.

ويدخل في مكة أطرافها وقراها وما يلحق بها من الأمكنة كمنى وعرفة، ويدخل في المدينة أطرافها كبدر واحد.

ويشكل عليه أيضاً بأن حق الضبط والمدار فيه مكان النزول دون الإلتفات إلى موضوع الآيات وزمانها مع أولوية ذلك في علم التفسير والبحوث التي تخص الآيات.

لابد من ثمة لهذا التقسيم إذ أن القسمة التي عرفت بانها تجزئة الشيء إلى أنواعه أو تحليله إلى عناصره، تنقسم الى قسمة طبيعية، وأخرى منطقية، والأولى تحليل الشيء إلى اجزائه التي يتألف منها، فالأسرة تتكون من أب وأم وأولاد.

والقسمة المنطقية تعني تحليل الشيء الى مصاديقه التي ينطبق عليها مثل دروس المنهج وقسمتها الى فقه واصول وتفسير ولغة واخلاق ونحوها.

وقسمة الآيات هنا قسمة منطقية ولا بد فيها من فرض أساس واحد للتقسيم، ومساواة مصاديق الأقسام مع مصاديق المقسم.

لذا يؤخذ على القولين الثاني والثالث بأن المكي خطاب لأهل مكة والمدني خطاب لأهل المدينة.

والثالث وهو المكي ما نزل بمكة سواء قبل الهجرة أو بعدها إن كلاً منهما ينطبق على كل مصاديق المقسم وهو آيات القرآن جميعها، فمن الآيات ما ليس بخطاب لأهل مكة والمدينة ويكون عاماً كما في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾^(١)، ومنها ما لم ينزل بمكة ولا بالمدينة.

وفيها أيضاً احتمال بالتداخل في التقسيم ومن شرائط القسمة المنطقية عدم التداخل بين الأنواع.

وأسلوب التقسيم على صورتين:

الأولى: الطريقة الثنائية.

الثانية: الطريقة التفصيلية.

وقسمة المكي والمدني هي ثنائية.

ومن المنطقيين من حصر هذه الطريقة بالترديد بين الإثبات والنفي، ولكنها أعم من ذلك وإن أمكن إيجادها بلحاظ صفة ما في موضوع القسمة.

أما القسمة الثانية فهي الطريقة التفصيلية، وهي ظاهرة من عنوانها بقسمة الشيء إلى جميع أقسامه تفصيلاً.

وإعتماد القسمة التفصيلية للإحاطة بموضوع القسمة بالمديني والمكي سواء كان باضافة أماكن جديدة أو مصاديق أخرى، أو تقسيم المكي قسمة أخرى مثلاً أن يكون منه ما هو خطاب لأهل مكة ومنه ما كان خطاباً لغيرهم، ومنه ما كان وعيداً أو بشارة.

وتقسيم المدني وشطره أيضاً وفق قواعد كلية أمر ممكن وفيه نوع توسعة في الدراسات العلمية ومباحث القرآن، وللباحثين أن لا يقفوا على هذا التقسيم ولهم أن ينظروا له من جوانب أخرى إذا كانت هناك فوائد للتقسيم الجديد ولا بد من أساس يقوم عليه التقسيم ، ولا يخرج عن شرائط القسمة، وأن يكون أساساً واحداً إلا بلحاظ آخر فيختلف الموضوع.

ويمكن البحث بتداخل التقسيمات الثلاثة المتقدمة والتقريب بينها مع الملاك المنفعة وإستظهار علوم القرآن والأسرار والدلالات في أوان ومكان نزوله الآية او السورة.

والسعي في هذا الباب يفتح آفاقاً من العلم ويتعلق بالفرع، أما الأصل فهو الأدلة النقلية الواردة في موضوع النزول.

و ذهب الباقلاني على ما حكاه عنه الزركشي والسيوطي بانه لا يقصر معرفة المكي والمدني على السماع أي أنه يدعو إلى الإجتهد في هذا الباب.

ولعله يريد التوسع في فروع هذا العلم لكي يكون طريقاً للعلوم وابوابها المستحدثة والتي تساعد على دراسة أوفى لآيات القرآن ومن المهم إيجاد الخصائص لكل من السور والآيات المكية والمدنية أي ما تنفرد به الآية المكية او المدنية.

فمثلاً يشيأر إلى كلمة (كلا) وأنها وردت في القرآن ثلاثاً وثلاثين مرة في خمس عشرة سورة كلها مكية، وفي النصف الأخير من سور القرآن، وأنها لم ترد في سورة مدنية.

وإتصفت السور المكية بصيغة الإنذار والوعيد وورد فيها التهديد والتعنيف.

وما نزلت كلا بيثرب فاعلمن

ولم تأت في القرآن في نصفه الأعلى^(١).
ومن السور ما أُنْفِقَ على نزولها في مكة أو بالمدينة ومنها ما
اختلف فيه، وقيل أُنْفِقَ على السور التي نزلت في المدينة وانها
عشرون سورة والمختلف فيه اثنتا عشرة سورة وما عدا ذلك مكّي،
أي إثنان وثمانون سورة مكية، ونظم أبو الحسن بن الحصار في
كتاب الناسخ والمنسوخ شعراً في الباب:
يا سائلي عن كتاب الله مجتهداً
وعن ترتيب ما يتلى من السور
وكيف جاء بها المختار من مضر
صلى الإله على المختار من مضر
وما تقدم منها قبل هجرته
وما تأخر في بدو وفي حضر
ليعلم النسخ والتخصيص مجتهد
يؤيد الحكم بالتاريخ والنظر^(٢).

وعن ابن عباس أنه قال: سألت ابي بن كعب عما نزل من
القرآن بالمدينة فقال: نزل بها سبع وعشرون سورة، وسائرهما بمكة.
ليكون من وجوه معرفة المكّي من المدني حفظ الصحابة
وتوثيقهم لهذا العلم، ولم يرد قول من النبي صلى الله عليه وآله
وسلم لتحديد مفهوم هذا الإصطلاح، ولكنه مستقرأ من النصوص،
والحاجة اليه دائمة وظاهرة، ومنهم من إستند إلى سبب النزول وقد
لا يكون تاماً ومطلقاً.

(١) الإتيان في علوم القرآن ١/١٧.

(٢) الإتيان في علوم القرآن ١/١٠.

منافع تقسيم الآيات إلى المكي والمدني

تدخل القسمة في كل الأمور والأعمال والمعنى، وتتضمن معاني التخفيف والتيسير، ومنع الحرج، وتتقوم بلحاظ الثمرة والنفع منها، فترى التقسيم في علم النحو يخفف عن الدارسين، وتستقرأ منه علوم اللغة، فتقسم الكلمة إلى اسم وفعل وحرف، ويقسم الفعل إلى ماضي ومضارع وأمر، ولكل فعل حكمه في البناء والإعراب. لكل علم من علوم القرآن منافع عديدة بلحاظ أنه باب لعلوم وحقائق عديدة وسعي وإجتهاد في علوم القرآن، ومن فوائد هذا العلم وجوه:

الأول : معرفة الناسخ من المنسوخ بلحاظ أوان النزول .

الثاني : تعيين المخصص، عند من يقول بتأخر المخصص.

اذ ان العام والخاص المنفصل لهما أحكام متباينة بلحاظ أمور :
الأول: تأريخ كل منهما والعلم بهما.

الثاني: أحدهما.

الثالث: عدم العلم بتأريخ أي منهما.

الثالث : عزل وإخراج بعض الأحاديث الموضوعة مثلاً ما زعم

بعضهم ان اهل الصفة أوحى لهم الله في الباطن ما اوحى الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليلة المعراج، فصار اهل الصفة بمنزلته وهو بعيد وخلاف أصول الدين، قال تعالى ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ (١) ان الإسراء كان في مكة.

وان الصفة لم تكن الا بالمدينة، والصفة سقيفة شمالي المسجد النبوي ينزل بها الغرباء والذين ليس لهم أهل ولا أصحاب ينزلون عندهم حتى يتبين لهم مكان ومأوى. ومقاماتهم مختلفة وممن نزل بها سعد بن أبي وقاص كما نزل بها ابو هريرة وله في ذلك احاديث

وفي قوله عز وجل ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ ﴾ قال الفراء هم أهل صُفَّةِ النبي صلى الله عليه وآله وسلم كانوا لا عشائر لهم فكانوا يلتمسون الفضل في النهار ويأوون إلى المسجد^(١)، والآية أعم موضوعاً وحكماً كما تقدم في تفسيرها.

الرابع : قد يعرف بالمكي والمدني أن الراوي يروي حديثاً لم يكن حاضراً لوقائعه كما روى واقعة حدثت في مكة وإسلامه كان في المدينة.

الخامس : ما ورد في سورة الفاتحة من أنها نزلت مرتين، وإن كان الأقوى انها نزلت مرة واحدة وفي مكة.

السادس : معرفة الصبغة التي تغلب على كل من السور المكية والمدنية، واستنباط الدروس منها، فالسور المكية تتضمن في الغالب الإنذار والوعيد ، والسور المدنية تتضمن الأحكام الشرعية.

السابع : معرفة جهاد المسلمين ومراحل تطوره.

الثامن : ليس للآيات المكية خصائص تختلف عن خصائص السور المدنية بل إنها غالبية أي سمات تغلب في السور المكية وتقل في المدنية، أو تغلب في المدنية وتقل في المكية، ولكن أهمية هذه القسمة لا تنحصر بذلك بل تتعلق بموضوع الآية نفسها إذا كانت

مكية أو مدنية في موضوع الناسخ والمنسوخ أو المخصص المنفصل مثلاً.

التاسع : دراسة خصائص السور المكية والمدنية من جهة الموضوع والنظم، ومن جهة الأسلوب والمضمون.

العاشر : مع أن السور المكية اثنتان وثمانون سورة، والمدنية عشرون والمختلف فيها اثنتا عشرة سورة على نحو التقريب إلا أن مقدار المكي أكثر من نصف القرآن بقليل.

كان موضوع السور المكية بيان أحكام التوحيد، والآيات الكونية العامة الدالة عليه وذكر قصص الأنبياء والأمم السابقة بلغة المثل لتكون موعظة وعبرة مناسبة للتدبر والإهتداء وصرف أو تقليل العداء الشديد للإسلام، فسورة يوسف وهود مثلاً مكيتان.

الحادي عشر : هل يمكن ترتيب سور القرآن على تأريخ نزولها كما كان قرآن علي عليه السلام كما قيل ليكون موضوعاً للدراسة، وليس للقرآن إلا ترتيب وجمع واحد وهو المتعارف عند المسلمين والترتيب المختص في زمان السور وإن خالف الترتيب في القرآن لا يتعارض معه.

ولكن هل لأحد القول بكتابة مصحف حسب تأريخ النزول، الجواب لا، لأنه خروج عن المتعارف عند الأمة كما أن مصدر القول بأن قرآن علي عليه السلام على التنزيل إنما هو رواية، ويحمل على نسخة جمعها للتوثيق والبيان وإشتهر عنه أنه كتب عدة نسخ من المصحف، والمصحف الذي بين أيدينا تداوله حصراً الصحابة والمسلمون في أيام خلافته عليه السلام وهناك نصوص تفيد أن القرآن على التأليف والجمع المرسوم في المصاحف من أيام النبوة.

الثاني عشر : من القرآن ما هو ليس بمكي ولا مدني ومنه جامع

لهما بعضه مكى وبعضه مدنى.

الثالث عشر: المجتمع المخاطب فى مكة مجتمع وثنى فى الأغلب وتظهر فىه خصال الشرك، وواجه الإسلام بالجحود وعذبت قرىش المؤمنى ولاقى النبى صلى الله علىه وآله وسلم أذى شديداً حتى قال صلى الله علىه وسلم: (ما أؤذى نبى مثل ما أؤذيت)^(١).

فجاءت قصص الأنبياء مثلاً لتبين لهم مصير أولئك الذين حاربوا الأنبياء وقتلوهم وما ينتظرهم من الخزي وقصة تحالفهم وإتفاقهم على قتل النبى صلى الله علىه وآله وسلم وحمله وأصحابه وأهل بيته على الهجرة إلى يثرب خفية.

ولم تنزل فريضة الصيام وفريضة الزكاة إلا فى المدينة وفى السنة الثانية من الهجرة، ولعل من أسبابها عدم تقبل المجتمع المكى للتكاليف الشرعية التى يرونها شديدة.

الرابع عشر: لقد واجه المؤمنون أشد صنوف التعذيب فى مكة وهذا يعنى صعوبة تحملها، ووجود الكثير من الأشخاص الذين يؤمنون بالله وبرسوله بعدما وضعت أمامهم الحواجز والموانع، فلا غرابة إذن أن تكون هذه الآيات المكية عوناً للمؤمنى فى جهادهم وصبرهم ودعوة لهم للتحمل ومواجهة الأذى والإضطهاد وبايمان ليكون آية ومدرسة وعبرة لأجيال المسلمين وباب هداية وحجة على الكافرين.

والآيات التى جاء بها الرسول الأكرم صلى الله علىه وآله وسلم مناسبة للناس للتدبر فى الإسلام فربما أسلم بعض كبار الكفار ومشركى قرىش بسبب صبر وتحمل المؤمنى الأذى وفىه شواهد من التأريخ الإسلامى فى أيام النبوة.

الخامس عشر: إن السور المكية مقدمة وتمهيد للسور المدنية لما فيها من تهيئة الأذهان لنزول آيات الأحكام أي ان الآيات والسور المدنية لم تنزل إلا على مجتمع قادر على الإلتزام بمضامينها وإحتاج ذلك إلى جهاد طويل وصبر من المسلمين فكانت الآيات المكية ومواضيعها عوناً ورافداً منه.

أما السور المدنية فجاءت متضمنة آيات التشريع والأحكام وقواعد السنن الأخلاقية والسياسية والاجتماعية إلى جانب موضوعات السور المكية سواء بالمنطوق او بالمفهوم والدلالة الإلتزامية.

السادس عشر: وجاءت السور المدنية بدم المنافقين واليهود وما يكيدونه للإسلام، ولم يكن ذكراً لوقائع تاريخية إنما كان بياناً لتركيبتهم النفسية وما يحملونه من إعتقادات أزاء الدين والناس وأنفسهم.

السابع عشر: السور المدنية ليست خالية من آيات الوعيد والتخويف ودم الشرك ولكن الفارق بين المكي والمدني بالحكم وليس بالكيف وعلى نحو الغالب في المضمون، وترسيخ المجتمع وتثبيت أحكام الشرائع أيضاً يحتاج إلى نبذ الشرك، وكان الشرك موجوداً حتى في أيام نزول السور المدنية، لذا فان كل آية من آيات القرآن تصلح لكل زمان.

الثامن عشر: جاءت سورة الحجرات قبل (ق) في ترتيب السور فالأولى مدنية، والثانية مكية، وجاءت احدهما بعد الأخرى في ترتيب القرآن، وان كان عدد آيات سورة الحجرات ثمان عشرة آية وعدد آيات سورة ق وهي مكية خمساً وأربعون آية، مما يدل على ان ترتيب سور القرآن ليس على النزول.

وهل هو توقيفي أو لا الجواب انه توقيفي تم بأمر من النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وبلسان الوحي.

التاسع عشر: في سورة الحجرات تأسيس لضوابط المجتمع الإسلامي وإصلاح للنفوس وتهذيب لها وبيان صيغ إكرام المسلم والصلات الطيبة بين المسلمين، منها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾^(١)، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنِ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ﴾^(٢)، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرَكُمُ مِنْ قَوْمٍ﴾^(٣)، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنِ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾^(٤).

إن النداء (يا أيها الناس) لم ينزل في مكة فقط بل في المدينة أيضاً، فالقول الشائع والمروي عن علقمة عن عبد الله مرسلًا ما كان في القرآن ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ أو ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ فهو مكّي وما كان ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فهو مدني ليس تام وإن كان هو الغالب وقد إتفق على أن سورة النساء مدنية وأولها ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ وسورة البقرة مدنية وفيها ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾^(٥) والحج مكية

(١) سورة الحجرات ٢.

(٢) سورة الحجرات ٦.

(٣) سورة الحجرات ١١.

(٤) سورة الحجرات ١٣.

(٥) سورة التّغابن ٢.

وفيها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾^(١)، وفي (ق) وهي مكية تتجلى مضامين الوعيد والإنذار ضمن مفاهيم الدعوة الى الإسلام وتلك الدعوة أمر جامع ومسألة سيالة على كل ازمة وأماكن نزول القرآن ﴿بَلْ عَجَبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ أَقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾^(٢)، ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلْ امْتَلَأْتَ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ وَأُزْلِفَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾^(٣).

العشرون : لقد عالج القرآن مشكلات زمانه بأسلوب مناسب ظهر واضحاً بالإختلاف بين المكي والمدني لا كما زعم بعض المستشرقين أن البيئة أثرت في صياغة القرآن وأن القرآن من وحي البيئة، وغاب عنهم أن هذا الإختلاف في الأسلوب إنما هو نوع إعجاز قرآني ويتجلى ببيان مضامينه ومفاهيمه بالتحقيق العلمي والإستدلال السليم.

الحادي والعشرون : لم ينزل القرآن لقوم دون قوم ولا بلد دون بلد، ولذا أشكلنا على القول بأن المكي إنما هو خطاب لأهل مكة والمدني خطاب لأهل المدينة.

والقرآن نزل خطاباً وحكماً لكل أهل الأرض وفي كل زمان، ولكن بيئة مكة والمدينة وما لاقاه الإسلام فيهما إنما هو نموذج مصغر لما يواجه الإسلام في الأمكنة والأزمنة المختلفة، ونوع الأسلوب وصيغ الإنشاء لا يتعلق بالبيئة فقط بل يشمل الأشخاص والمجتمعات وتباين الموضوعات.

(١) سورة الحج ٧٧.

(٢) سورة ق ٢٤.

(٣) سورة ق ٣١.

الثاني والعشرون : تحمل آيات القرآن في ترتيبها طابع الإعجاز في إرتقاء الدعوة الإسلامية وسعة آفاق الحاجات.

الثالث والعشرون : لقد كان هذا الترتيب ضرورياً لمنفعة المسلمين ومن آياته أنه من أسباب نصر المسلمين وهداية لهم في سيرتهم وأعمالهم ومناهجهم التشريعية السماوية، وكشف الأعداء والمنافقين، والإحتراز من مكرهم.

الرابع والعشرون : منهم من ذكر الفوارق بين المكي والمدني فإلى جانب السماعي هناك القياسي والإجتهادي وقد لا يصلح الإجتihad والقياس هنا لورود ما يدل على الخلاف، والسماعي ما علمنا وسمعنا بنزوله باحدهما أي بمكة أو المدينة.

الخامس والعشرون : القياسي على أقسام منها كل سورة ورد فيها ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ ^{(١)(٢)(٣)(٤)(٥)}، فهي مكية، أو ورود "كلاً" ثلاثاً وثلاثين مرة في خمس عشرة سورة كلها مكية لأن السور المكية فيها الوعيد والإنذار وقد ذكرت وجوه أخرى في القسم منها: الأول: إن كل ما فيها قصة آدم وإبليس سوى البقرة فهي مكية. الثاني: وكذا كل سورة فيها قصص الأنبياء والعبرة من الأمم السابقة فهي مكية.

الثالث: كل سورة فيها فريضة أو حد فهي مدنية.

(١) أنظر سورة البقرة ٢١ .

(٢) أنظر سورة النساء ١ .

(٣) أنظر سورة الأعراف ١٥٧ .

(٤) أنظر سورة يونس ٢٢ .

(٥) أنظر سورة الحج ١ .

الرابع: كل سورة فيها ذكر المنافقين فهي مكية وإستثنى بعضهم سورة العنكبوت.

الخامس: كل سورة فيها سجدة فهي مكية وان النصف الأخير من القرآن اغلبه نزل في مكة.

وهذا القياس مبنى ومرتكز للعلوم، والأولى اخذ كل سورة ودراستها بلحاظ التنزيل ولا بد أن تكون هذه الدراسة إنحلالية بعدد آيات السورة لأن بعض سور القرآن تكون مدنية ولكنها تتضمن آيات مكية او بالعكس .

وعن ابن مسعود : نزل المفصل في مكة فمكثنا حججاً نقرؤه ولا ينزل غيره^(١)، وسمي المفصل لكثرة ما يقع فيه من فصول التسمية بين السور أو لقصر سوره، وأختلف في أوله من سورة محمد أو من سورة(ق) أو من سورة الفتح.

وورد في الخبر المفصل ثمان وستون سورة.

السادس والعشرون : والخطابات في السور المدنية للمؤمنين الذين آمنوا ببعثة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم تحمل التحذير من المنافقين، والدعوة إلى عدم الإنخداع باباطيلهم، وهي عون للمسلمين وشد لعضدهم وإمتلاكهم القواعد الفكرية التي تساعد على التقدم والإرتقاء في مراتب الإيمان.

ومن المختلف فيه بين المكي والمدني سورة الأنعام ولكن الإختلاف فيها محدود يتعلق بآيتين أو ثلاثة وقد ورد أنها نزلت جملة واحدة فورد في حديث أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: أنزلت علي الأنعام جملة واحدة يشيعها سبعون

(١)الإتقان في علوم القرآن ١٧/١ .

ألف ملك لهم زجل بالتسبيح والتحميد^(١).

وهناك نصوص في المقام جاءت لبيان فضل سورة الأنعام وليس لمكان نزولها.

وروي عن ابن عباس أنها مكية إلا ست آيات ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ...﴾^(٢)، وفي رواية أخرى عن ابن عباس ثلاث آيات ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ﴾^(٣).

وهناك تقسيمات أخرى للنزول بحسب الموضوع والحديث منها:
الأول : الحضري والسفري أي السور التي أنزلت في الحضر والسور التي أنزلت على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو في حال السفر.

الثاني : النهاري والليلي أي السور التي كان أوان نزولها في النهار والسور التي نزل بها جبرئيل عليه السلام في الليل، الصيفي والشتائي.

الثالث : الفراشي واليومي والمقصود من اليوم هو النهار. والفراش ليس النوم لأن القرآن كله نزل باليقظة، وإن كان شطر من وحي بعض الأنبياء في النوم، ورؤيا الأنبياء وحي، كما أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الستة أشهر الأولى من النبوة كان لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق الصبح.

فما قيل أن سورة الكوثر من النومي ليس بصحيح ، وقال أنس

(١) مجمع البيان ٢/٤.

(٢) سورة الزمر ٦٦ .

(٣) سورة الأنعام ١٥١.

بيننا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاء ثم رفع رأسه مبتسماً فقلت ما أضحكك يا رسول الله قال أنزلت علي أنفا سورة فقرأ سورة الكوثر ثم قال أتدرون ما الكوثر قلنا الله ورسوله أعلم قال فإنه نهر وعدنيه عليه ربي خيراً كثيراً هو حوضي ترد عليه أمتي يوم القيامة آنيته عدد نجوم السماء فيختلج القرن منهم فأقول يا رب إنهم من أمتي فيقال إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك أورده مسلم في الصحيح^(١).

فالإغفاء أعم من النوم وقد يقصد منها الحالة التي تعترى النبي صلى الله عليه وآله وسلم عند نزول الوحي فالمراد من الفراشي ما كان ينزل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو بفراشه بلحاظ اليقظة سواء قبل النوم أو بعده أو بالإستيقاظ منه لإستقبال الوحي والتنزيل في دلالة على إتصال الوحي وعدم إنقطاعه.

الرابع : أَرْضِي وَسَمَاوِي، والقرآن نزل بين مكة والمدينة إلا ما ورد في كتيبة تبوك أو القدس على خلاف فيه ووردت نصوص أن آخر سورة البقرة ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ﴾^(٢)، نزلت في السماء ليلة المعراج وفيه خبر، عن عبد الله بن مسعود.

سياق الآيات المناسبة بين الآيات

جاءت آيات القرآن البالغة ٦٣٣٦ وكل آية معجزة في ذاتها ومعجزة مع غيرها لما بينها من التداخل والترابط بعضها يفسر بعضاً، وبعضها يعضد ويوثق ويثبت نزول بعضها الآخر من عند الله تعالى، بالإضافة

(١) صحيح مسلم ٣٠٠/١، مجمع البيان ٤١١/١٠ .

(٢) سورة البقرة ٢٥٨.

إلى الإعجاز الخاص بعدم التعارض والتزاحم والنفرة بينها سواء في المواضيع أو الأحكام أو المفاهيم، وهذا علم مستقل يستحق أن يفرد بالتصنيف والتحقيق، ويكون مناسبة لإستنباط الآيات الإعجازية منه وقد أسسنا مبحثاً في كل آية إسمه (في سياق الآيات) يبين المناسبة بين الآيات المتجاورات تصل أجزاء هذا العلم إلى أكثر من ثلاثة ملايين جزءً وصدرت ثمانية من أصل خمسين جزءً ستصدر في صلة الآية (١١٠) من سورة آل عمران بالآيات السابقة لها، وعلى العلماء في الأجيال السابقة إتمامه.

وقد اعتنى به بعض العلماء وذكر السيوطي في الإتقان أن أبا جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الأندلسي النحوي الحافظ المتوفي سنة ٨٠٧ الف كتاباً في هذه الباب اسمه في مناسبات الآي وهو (البرهان في مناسبة ترغيب سور القرآن).

ويبحث علم المناسبة بين الآيات الصلة بينها وقوع الرابط خاصاً كان أو عاماً، عقلياً أو شرعياً أو حسياً، والقوانين العقلية كالعلة والمعلول، والسبب والمسبب.

ومن غرر القرآن الترابط والتلائم بين آياته ومن أسرارهِ الترغيب في التدبر بهذا الترابط ووجود المناسبة، والصلة بينها منطوقاً وموضوعاً فكل آية تنطق بمضمون الآية الأخرى.

قال القاضي أبو بكر بن العربي في سراج المريدين ارتباط أي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني علم عظيم لم يتعرض له إلا عالم واحد عمل فيه سورة البقرة ثم فتح الله عز وجل لنا فيه فلما لم نجد له حملة ورأينا الخلق بأوصاف البطلة ختمنا عليه وجعلناه بيننا وبين الله ورددناه إليه^(١).

(١) البرهان في علوم القرآن/١/٣٦.

ولا نقول أن العلماء أعرضوا عن هذا العلم تماماً، بل أن قارئ القرآن يلتفت إلى هذا العلم طوعاً وقهراً لحسن التأليف والبناء والحكم ومناسبة الموضوع وللوجود الذهني للآية السابقة عند قراءة اللاحقة نعم هذا لا يعني وجود الترابط التام بين كل آية والآية التي تجاورها، فقد تكون المناسبة بينهما جهتية وجزئية، ولكن التدبر سياق الآيات وعلم المناسبة بينها في التفسير والتحقيق يظهر لك وجوهاً من الارتباط والتداخل لم تكن معلومة بمعنى أن جعل موضوعية وخصوصية لهذا العلم في التفسير والتأويل عون على إستخراج كنوزه وخزائنه، وموضوعه خاص لا يتعلق بذات الآية بل بالمناسبة، ويمكن أن يؤسس على نحو تفصيلي جديد من وجوه:

الأول : المناسبة بين الآية والآيات التي تجاورها.

الثاني : الترابط والصلة بين الآية وآيات السورة التي تكون جزء منها.

الثالث : الصلة بينها وبين آيات القرآن.

الرابع : الصلة مطلقاً أي الوجود في السور الأخرى.

الخامس : المناسبة بين صدر الآية وخاتمتها ومواضعها كما في قوله تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ﴾^(١).

السادس : المناسبة بين السور ذاتها.

السابع : وجوه المناسبة والربط بين خاتمة الآية و فاتحة التي بعدها، وخاتمة السورة و فاتحة ما بعدها، فمثلاً بعد ختم سورة الفاتحة بنوع الصراط المستقيم جاءت فاتحة سورة البقرة بالإرشاد إلى الكتاب وهو القرآن وإذ أختتمت سورة البقرة بالدعاء بالنصر على الأعداء ﴿أَنْتَ

مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١﴾، جاءت فاتحة آل عمران ببيان عظيم جبروت وسلطان وقوة الله وبديع حكمته في تدبير شؤون الخلائق بقوله تعالى ﴿إِنَّمَا إِلَهُ الْإِنسَانِ إِلَهٌ وَاحِدٌ أَعْلَمُ الْغُيُوبِ﴾ (٢).

وجاءت خاتمة آل عمران بالأمر بالخشية من الله ، قال تعالى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٣)، وجاءت فاتحة سورة النساء بالأمر بالتقوى وعلى نحو الإطلاق بإرادة الناس جميعاً ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ (٤).

وبينما جاءت خاتمة سورة النساء ببيان أحكام الإرشاد والتحذير من الخطأ والتعدي، قال تعالى ﴿فَلِلذِّكْرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَىٰ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٥).

جاءت فاتحة سورة المائدة بالأمر بالتقيد بالعفو وأحكام المعاملات بقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوفُوا بِالْعُقُودِ﴾ (٦)، وأختتمت سورة المائدة بقوله تعالى ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٧).

(١) سورة البقرة ٢٨٦.

(٢) سورة آل عمران ١-٢.

(٣) سورة آل عمران ١٣٠.

(٤) سورة النساء ١.

(٥) سورة النساء ١٧٦.

(٦) سورة المائدة ١.

(٧) سورة المائدة ١٢٠.

جاءت بداية سورة الأنعام متعلقة بذات الموضوع وبيان عظيم قدرة الله تعالى وسعة سلطانه وبصيغ الثناء بقوله تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾^(١)، وهكذا بالنسبة لسور القرآن الأخرى وأختتمت سورة الإسراء بالتسبيح والحمد لله تعالى وكذا جاءت سورة الكهف بالحمد لله.

ففي خاتمة سورة طه تجد التحدي والتمايز والتنافي بين الإيمان والكفر، قال تعالى ﴿قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى﴾^(٢).

وجاءت فاتحة سورة الأنبياء بعدها مباشرة بقوله تعالى ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾^(٣).

وقد أسسنا في تفسيرنا علماً خاصاً لخواتيم الآيات ويمكن هنا أن ينظر للمناسبة والترابط بينها وكذا المناسبة والترابط بين فواتيح السور وعددها مائة وأربع عشرة سورة، بمعنى أن هذا العلم ينقسم إلى أقسام:

الأول: المناسبة بين فواتح السور.

الثاني: المناسبة بين خاتمة السورة وفاتحة السورة التي تليها.

الثالث: المناسبة بين خواتيم السور.

الرابع: المناسبة بين فاتحة وخاتمة السورة الواحدة.

(١) الأنعام ١.

(٢) سورة طه ١٣٥.

(٣) سورة الأنبياء ١.

فترى سورة الأسراء مثلاً تفتتح بالتسبيح لله تعالى، وحديث الإسراء المعجزة الخارقة والتشريف العظيم للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأختتمت بالتسبيح أيضاً الذي يعني التنزيه المطلق لمقام الربوبية.

ويمكن وضع قواعد إستقرائية للروابط بين الآيات القرآنية المتجاورة أهمها:

الأول : التوكيد، أي أن الآية تؤكد مضامين الآية السابقة أو اللاحقة لها.

الثاني : التفسير والبيان، فقد تكون الآية تفسيراً للآية السابقة.

الثالث : العطف كما يظهر أحياناً بوحدة الموضوع أو بحرف عطف يربط بين الآيتين.

الرابع : الأشباه والنظائر.

الخامس : الإستطراد.

السادس : التضاد بحسب التباين الموضوعي كما في آية الرحمة وآية

العذاب، وآية الوعد وآية الوعيد، والرغبة والرغبة، قال تعالى ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾^(١).

ومن علوم البلاغة والمحسنات المعنوية حسن الإبتداء وحسن الإنتهاء، والأول أن يجعل المتكلم أول كلامه سهلاً ذا مفهوم واضح وبأسلوب مناسب ينجذب له السامع ويميل للإصغاء إليه، ومن حسن الإفتتاح أن يكون مقدمة للمقصود أو أنه إشارة لطيفة للموضوع من

غير أن تصل إلى التصريح، وتسمى براعة إستهلال كما في قول يوسف الذي ورد في التنزيل ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾^(١).

أما حسن الإنهاء ويسمى حسن الختام فهو جعل آخر الكلام عذبا رقيقاً وكأنه توديع لطيف للموضوع وإخبار جميل عن إفادة تمام المعنى لتبقى عذوبته في الأسماع، ولمنع حصول الضجر عند الإنهاء وللشوق لما بعده.

أما في القرآن فالأمر مختلف لصبغة الإعجاز التي تشمل إبتداء الآية وخاتمتها، ولوجود دلالات وبمضامين عقائدية وأسرار قرآنية في فاتحة الآية وخاتمتها، نعم تتجلى في القرآن أجمل صيغ الإبتداء والإنهاء التي تجعل الأسماع تشتاق إلى الإنصات للآيات.

خواتيم السور

وهي كنوز علمية مدخرة، وثروة قرآنية متشعبة تنفتح منها آفاق من العلم فهي قواعد كلية جاءت كثمرة ونتيجة وسور جامع لآيات القرآن، وتتألف من ألفاظ عذبة تفرع الأسماع بلطف معلنة إنتهاء السورة وداعية إلى فهم معانيها والتدبر في دلالاتها ومضامينها القدسية وتجعل القارئ يغادر السورة وهو مشتاق لقراءتها من جديد ولم يشعر بالملل او التعب من التلاوة وما يقترن بها طوعاً وقهراً وانطباقاً من التدبر والتفكير والإستحضار الذهني للوقائع والأحداث وعالم الآخرة وتأريخ الأمم السالفة ونحوها بلحاظ آيات السورة وموضوعاتها.

وخواتيم السور آله مباركة لتيسير الانتقال إلى السورة التالية وهي إعلان عن الإنتهاء عن سورة من سور القرآن وما يعنيه هذا الإنتهاء من إحراز للأجر والثواب.

وتتصف خواتيم السور بصفة الدعاء والوصية او التحميد والثناء عليه تعالى وما يجعل النفس تقبل بشوق على الصالحات أو تنزجر عن السيئات وتنفر من المعاصي.

كما في الدعاء الذي جاء في آخر سورة البقرة وما ورد في فضله (وعن ابن المنكدر رفعه إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: في آخر سورة البقرة آيات انهن قرآن وانهن دعاء وانهن يرضين الرحمن). وفي تفسير الكلبي بإسناده ذكره عن ابن عباس قال بينا رسول الله إذ سمع نقيضاً يعني صوتاً فرفع رأسه فإذا باب من السماء قد فتح فنزل عليه ملك وقال إن الله يبشرك بنورين لم يعطهما نبيا قبلك فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لا يقرأهما أحد إلا أعطيته حاجته^(١).

ويأتي الدعاء فيها بصيغة التضرع والخشوع والمسكنة وإعلان الفاقة والحاجة وحتمية الرجوع إلى الله تعالى ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنِ سَبِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَيَّ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾^(٢)، ويتجلى التدرج في السؤال طمعاً برحمته تعالى

وعظيم إحسانه وكرمه فيأتي سؤال العفو والنفرة على نحو الإطلاق أي مع الذنب والخطأ، إن الله سبحانه يلقي المسلمين صيغ الدعاء والنهج

(١) مجمع البيان ٢/٢٠٥.

(٢) سورة البقرة ٢٨٦.

القويم للنجاة يوم الدين، وكأن الآية وعد كريم بالإستجابة والعفو عن المسلمين الذين يتلون القرآن.

وكذا جاء الدعاء في سورة الفاتحة التي هي أكثر سور القرآن قراءة على الإطلاق لوجوب قراءتها في الصلاة اليومية على كل مسلم ومسلمة ويتضمن الدعاء في خاتمتها الإلتجاء إلى الله تعالى إحترافاً من أسباب الضلالة وأرباب الكفر.

وجاءت خاتمة سورة آل عمران بالوصية السماوية بالصبر والتحمل في حال الشدائد طلباً للنصر والفوز في النشاطين بقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(١)، وروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه سئل عن أفضل الأعمال فقال: إسباغ الوضوء في السبرات ونقل الأقدام إلى الجماعات وإنتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط^(٢).

لتبين لنا السنة النبوية الشريفة ملاك الثواب في التفسير الأعم لمضامين الآية القدسية والمصاديق المتعددة للفعل العبادي ووجوهه المتكثرة والمتباينة قوة وضعفاً، وليكون بميسور كل مسلم ومسلمة وفي كل زمان إستثمار العمل العبادي الوارد في هذه الآية كل حسب إستطاعته ومقدرته وشأنه ويشمل الرجال والنساء بلحاظ الفرائض اليومية والخطابات التكليفية الموجهة لكل مسلم ومسلمة في سن البلوغ. وجاءت خاتمة سورة النساء ببيان أحكام الفرائض لموضوعيتها وأهميتها في الإسلام، وقد ورد في عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: تعلموا الفرائض وعلموا الناس فان العلم سينقضى

(١) سورة آل عمران ٢٠٠.

(٢) مجمع البيان ٤٣١/٢.

وتظهر الفتن حتى يختلف الاثنان في الفريضة فلا يجدان من يفصل بينهما^(١)، وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: تَعَلَّمُوا الْفَرَائِضَ وَعَلَّمُوهَا فَإِنَّهُ نِصْفُ الْعِلْمِ وَهُوَ يَنْسَى وَهُوَ أَوَّلُ شَيْءٍ يُنْتَزَعُ مِنْ أُمَّتِي^(٢)، والفرائض هي علم المقدرات والحصص من الزكاة والميراث والسهام التي تقسم بحسبها التركة، وحصصة كل وريث.

واستفتاح آخر آية من سورة النساء بالإخبار عن سؤال المسلمين ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ يبين موضوعية وأهمية المواريث وهي مسألة فطرية وما من أمة إلا ولها قواعد ونظام للمواريث فأخبر القرآن بان نظام المسلمين في هذا الباب سماوي من عند الله تعالى ليس فيه سلطان للبشر، قال تعالى ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ أَمْرُهُ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَكْدٌ وَلَهُ أُخْتُ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَكْدٌ﴾^(٣).

وجاءت خاتمة سورة المائدة ببيان عظيم الجزاء الذي يلقاه المسلمون يوم القيامة مع التعظيم لمقام الربوبية وليس من الضروري الوقوف في مبحث خواتيم السور عند الآية الأخيرة من السورة بل يمكن الجمع بين آيتين أو أكثر في الخاتمة خصوصاً في السور الطوال والمثنائي.

وختمت سورة النعام بالوعد والوعيد والتخويف ﴿إِنْ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٤).

(١) البيهقي/السنن الكبرى/٢٠٨/٦.

(٢) سنن ابن ماجه/٨/٣١٣.

(٣) سورة النساء/١٧٦.

(٤) سورة الأنعام/١٦٥.

في تحذير للناس ودعوة لهم للإصلاح والتماس طرق الهداية بدخول الإسلام.

وجاء وصف العقاب بالسرعة وإمكان غزو العذاب والابتلاء للإنسان الذي يرتكب المعاصي سواء بتعقب المعصية بالعقاب الدنيوي كالمريض والحزني وأسباب الأذى، أو أن السرعة عبارة عن كتابة التخلية بين الذنب وبين عذاب البرزخ حال دخوله القبر.

بينما جاء عنوان المغفرة والرحمة بذكر إسمين من أسماء الله تعالى للإخبار عن إستدامة الرحمة وإنبساطها على كل الأزمنة والعوالم وإنتفاع الناس منها وإن باب المغفرة مفتوح وهكذا خواتيم السور الأخرى كما نبينه في أجزاء التفسير إن شاء الله.

خواتيم الآيات

أسسنا في تفسيرنا علماً جديداً هو (إعجاز الآية) وخصصنا مبحثاً مستقلاً في تفسيرها لما فيها من اعجاز ودلالات عقائدية وفرائد علمية فقد أسسنا علماً جديداً اسمه (الصلة بين أول وآخر الآية) يبحث في التداخل الموضوعي لمضامين كل آية من آيات القرآن والتي يكون فيها صدر وخاتمة أو صدر ووسط وخاتمة مع بيان المعنى السياقي والصلة. وهذا العلم أعم كثيراً من خواتيم السور وفيه نكات وأسرار ومطالب ربانية يمكن إستقراؤه إن لم يكن اليوم فغداً من قبل العلماء ورجال الفكر والمعرفة ولم يصنف في بابهِ على نحو مستقل مع أهميته، ويملوا بأنوار الكلمة القرآنية الغشاوة وهو روضة تدهش فروعها الأذهان وفيه إشارة إلى وجود علوم كلية في القرآن لم تستقرأ بعد.

والعلوم المستقرأة من خواتيم السور لا تنحصر بها بالذات بل تشمل السياق والترابط والملازمة والمناسبة بينها وبين فاتحة ذات السورة وفاتحة السورة التي تليها.

فمع أن عدد آيات سورة المؤمنين مائة وسبع عشرة آية فإن إفتتاحها بقوله تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(١)، وخاتمتها وردت بقوله تعالى ﴿إِنَّهُ لَا يَفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾^(٢)، وكأنهما من المتضادين، وأختتمت بذكر المغفرة والرحمة بصيغة الدعاء المطلق واللجوء إلى الله سبحانه.

وجاء إفتتاح سورة الحج بأمر الناس بتقوى الله، أما خاتمتها فأكدت على العبادات والجهاد والدعوة إلى الإعتصام بالله عز وجل ﴿فَإِنَّمَا الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾^(٣)، لبيان أن التقوى طريق النجاة وهو السبيل الوحيد للخلاص من عذاب النار وبيان مصاديقها من الصلاة والصوم ونحوها.

وهناك علم يجب ان يبحث وهو المناسبة والصلات بين فاتحة السورة وخاتمتها وإسمها، سواء كان الاسم متحداً أو متعدداً، وعلى القول بان الاسم غير المسمى او انه ذات المسمى، والأرجح الأول الا إن هذا لا يمنع من وجود إعتبار عقائدي ودلالات خاصة للإسم.

فسورة المؤمنون مثلاً إخبار وبشارة على رجحان كفتهم يوم القيامة وان الخسارة في العاقبة تلحق بالكافرين وأن العزة دائماً لأهل الإيمان، وجاءت خاتمة سورة الأسراء التي تسبق الكهف ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾^(٤).

(١) سورة المؤمنون. ١.

(٢) سورة المؤمنون ١١٧.

(٣) سورة الحج ٧٨.

(٤). الأسراء ١١١.

وفي سورة الكهف جاءت فاتحة السورة بالشكر لله تعالى على نعمة الرسالة وتنزيل القرآن وأختتمت بالخشوع لله تعالى والأقرار بالعبودية وان النبي عبد لله عز وجل اختصه الله سبحانه بالوحي ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾^(١).

وجاءت فاتحة سورة مريم بذكر زكريا واسباب الرحمة النازلة مع نبوته ودعائه وأختتمت بنزول العذاب والإستئصال للكافرين. فان سورة طه التي جاءت بعدها أفتتحت بالخطاب إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿طه﴾ وفيه إشارات إلى بقاء الإسلام وأحياء ذكره بإستدامة الأذان.

إن مبحث فواتح وخواتيم السور يبين حقيقة ثابتة وهي التداخل والترابط بين آيات القرآن وأن بعضها يعضد البعض الآخر ويشير إلى حسنه وجماله ويثبت موضوعه ويؤكد حقيقته القرآنية ويظهر وحدة الماهية في المعارف الإلهية والمعارف القدسية وتترشح فيه قواعد كلية للعلوم الإسلامية، وتتجلى بأنواره علوم من أسرار نزوله من عند الله عز وجل.

جمع القرآن

مباحث جمع القرآن علم مستقل له عذوبة وفيه طراوة ويجذب إليه النفوس لما فيه من أسرار تاريخية ووثائقية وعقائدية وجهادية، ويدل على حرص المسلمين على تعاهد القرآن كما يدل على فضل الله تعالى بحفظ القرآن والإعجاز الذاتي والغيري للقرآن في حفظ آياته ومنع يد

التحريف من الوصول إليه رسماً وتلاوة وآيات، قال تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ
نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ ^(١)، ان القرآن مائدة السماء الدائمة التي
أراد الله عز وجل لها أن تكون في متناول كل إنسان لتطرد عنه أسباب
ومقدمات الضلالة.

ومع أهمية مباحث جمع القرآن في توثيق آياته وتوكيد نزولها من
عند الله فإن الناس تلقوه بإعتباره من المسلمات والبديهيات ، ولم
يجعل أحد هذا الأمر من وجوه الطعن بالقرآن مع كثرة أعداء الإسلام.
فالمستالم عند الناس ان جمع القرآن تم بصورة صحيحة وان يد
التحريف والزيادة لم تطرأ عليه وأن المنافقين والكفار عجزوا عن
التلاعب بآياته ولم يفكروا بالإضافة له أو تغيير بعض آياته بل أنهم
فشلوا حتى في موارد تفسيره ولم يتجرأوا على تفسيره في غير الحق
والمناهج القويمة والموارد التي أنزل فيها، فمن باب الأولوية القطعية
عدم الوصول إلى آياته، مع أنه كان محاطاً بعناية المسلمين من أيام
الصحابة.

فمع تعدد سوره وآياته فإن المسلمين كانوا يحفظونه، وسياق
وترغيب آياته متواتر ومحفوظ عندهم ولكن هذا لم يمنع من البحث عن
أوان جمع القرآن أي أنه مبحث صغروي بعد التسليم على صدق آياته
وعدم سقوط بعض منها ولا عبرة بالقول الشاذ النادر:
والوجوه في جمعه ثلاث:

الأول : جمع القرآن في أيام النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

الثاني : جمع في عهد أبي بكر.

الثالث : جمع في حكم عثمان.

وعن مسروق عن عائشة عن فاطمة - عليها السلام - أسر إلى النبي - صلى الله عليه وآله وسلم، أن جبريل كان يعارضني بالقرآن كل سنة، وإنه عارضني العام مرتين، ولا أراه إلا حضر أجلي^(١). وهذه المعارضة أي بالدراسة والمعارضة هنا بمعنى المقابلة ومنه عارضت الكتاب أي قابلته وعارضته بمثل ما صنع أي أتيت بمثل ما أتى.

وفي الحديث إشارة إلى جمع القرآن إلا أنه لا يدل على وجوده في مصحف مخصوص إلا بقرينة إضافية (قال ابن عباس قلت لعثمان ما حملكم أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المئين فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم قال عثمان كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مما يأتي عليه الزمان وتنزل عليه السور وكان إذا نزل عليه شيء دعا بعض من كان يكتبه فقال ضعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا، وكانت الأنفال من أوائل ما نزل من المدينة وكانت براءة من آخر القرآن وكانت قصتها شبيهة بقصتها فقبض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولم يبين لنا أنها منها فمن أجل ذلك قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ثم كتبت فثبت أن القرآن كان على هذا التأليف والجمع في زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم^(٢). مما يدل على أن ترتيب السور كان توقيفياً ومن أيام الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم حتى على القول بتأخر كتابة القرآن عن أيام الوحي والتنزيل.

(١) صحيح البخاري ٤٨١/١٦.

(٢) البرهان في علوم القرآن ٢٣٤/١-٢٣٥.

وقد روى البخاري عن زيد بن ثابت قال أرسل إلي أبو بكر مقتل أهل اليمامة فاذا عمر بن الخطاب عند فقال أبو بكر إن عمر أتاني فقال إن القتل قد أستحر يوم اليمامة بقراء القرآن وإنني أخشى أن يستحر القتل بالقراء بالمواطن فيذهب كثير من القرآن وإنني أرى أن تأمر بجمع القرآن . قلت لعمر كيف تفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟

قال عمر هذا والله خير فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك ورأيت في ذلك الذي رأى عمر .

قال زيد قال أبو بكر إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فتتبع القرآن فاجمعه .

فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن .

قلت كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله ؟ قال هو والله خير فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر فتتبع القرآن أجمعه من العصب واللخاف وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدّها مع أحد غيره ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾^(١)، حتى خاتمة براءة فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله ثم عند عمر حياته ثم عند حفصة بنت عمر^(٢).

ولم يقم زيد بن ثابت بجمع القرآن بمفرده بل إشترك معه الصحابة وكان الجمع بمرأى ومسمع ومشاركة منهم يتدخلون اذا كانت حاجة

(١) سورة التوبة ١٢٨.

(٢) صحيح البخاري ٤٦٧/١٦.

لتدخلهم فكان عمل زيد يصدر عن الجميع ولم يكن أحد منهم مجبوراً عن المشاركة والتدخل وكانوا يستظهرون الآيات إن جاء بها أحدهم ويقرون فعله وشهادته.

وعن خَارِجَةُ بِنُ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ أَنَّ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ قَالَ لَمَّا نَسَخْنَا الصُّحُفَ فِي الْمَصَاحِفِ فَقَدْتُ آيَةً مِنْ سُورَةِ الْأَحْزَابِ ، كُنْتُ أَسْمَعُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - يَقْرُؤُهَا ، لَمْ أَجِدْهَا مَعَ أَحَدٍ إِلَّا مَعَ خُزَيْمَةَ الْأَنْصَارِيِّ ، الَّذِي جَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - شَهَادَتَهُ شَهَادَةً رَجُلَيْنِ ^(١).

وقد جمع الإمام علي عليه السلام القرآن بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مباشرة ، ومدة خلافة عمر بن الخطاب استمرت نحو اثنتي عشرة سنة (١١-٢٣) للهجرة (٦٣٢-٦٤٤) ميلادية، ومن المستبعد أنها خالية من مشروع جمع القرآن والإلتفات إليه خصوصاً أنه في أيامه فتح الشام والعراق، والقدس والمدائن وبعض نواحي الجزيرة، ودون الدواوين ووضع التاريخ الهجري فيحتمل العمل بخصوص جمع القرآن وجوهاً:

الأول : إعتد في زمانه على المصحف الذي جمع في أيام النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثاني : قام بجمع القرآن في أيامه.

الثالث : لم يكن في زمانه مصحف يجتمع عليه المسلمون، وإنظروا حتى زمان عثمان بن عفان.

أما الوجه الثالث فهو بعيد لحاجة المسلمين اليومية للقرآن ولو لم يكن المصحف موجوداً لتساءل الصحابة والمسلمون القادمون من

الأمصار وحديثوا العهد بالإسلام والغزاة والولاة الذين ذهبوا إلى الأمصار التي أفتتحت أو أنشئت بصبغة إسلامية.

أما بالنسبة للوجه الثاني فلم يكن هناك ما يدل على إبتداء جمع القرآن في مصحف أيام عمر بن الخطاب بل أن النصوص والأخبار وردت بجمعه قبل أيام خلافته نعم هناك نصوص وردت بقيامه بجمعه فقد (أخرج ابن أبي داود من طريق الحسن أن عمر سأل عن آية من كتاب الله فقيل: كانت مع فلان، قتل يوم اليمامة، فقال: انا لله وأمر بجمع القرآن، فكان أول من جمعه في المصحف) ^(١)، والحديث منقطع. إن قدم وسبق زمان جمع القرآن معجزة وعون لكل مسلم ومسلمة وشهادة تاريخية، ووثيقة خالدة تؤكد حفظه وتعاذه وأنه نزل ليكون مجموعاً بين دفتين، وإن كان تأخر جمعه في حال ثبوته لا يضر في هذه الحقيقة لأنه كان مجموعاً محفوظاً في صدور الصحابة لأسباب:

الأول : يتصف العرب بقوة الحافظة وحسن الذاكرة.

الثاني : أثر وموضوعية خصلة الإيمان والتقوى عند المسلمين وما يترشح عنه من السعي في علوم القرآن ودراسة وفهم آياته، والتدبر في معانيها ومضامينها القدسية.

الثالث : شوق الصحابة إلى آيات القرآن ومتابعتهم لنزولها وكان بعضهم يسأل بعضاً هل نزل اليوم على النبي قرآن، وهذه آية إعجازية غريبة للقرآن ان يجعل الله عز وجل قادة المسلمين من الصحابة يولون عناية خاصة لنزول القرآن بالتتبع والملاحظة، وهذا السؤال ليس مجرداً بل هو مقدمة للعلم بموضوع الآية وبلاغتها وأحكامها ودلالاتها العقائدية ومضامينها.

لقد أيقن المسلمون بأن النازل من القرآن هبة سماوية من عند الله تعالى للناس جميعاً وهم الواسطة بين الرسول وبين الناس في التبليغ والمعرفة فهم حملة القرآن، حملوه بصدورهم ونقلوه بأفواههم وفهموه بمداركهم وعقولهم، وكانت صدورهم أناجيل وواعية لسور القرآن، يتعاهدون السورة والآية منطوقاً ولفظاً ليأتي رسم الحروف والكلمات مطابقاً للفظ.

وقد استمرت كتابة القرآن من غير تنقيط ولم يضر في كلمات الآيات ونطقه وموضوعه ولم يحصل أي خلط أو إشتباه أو ترديد في كلماته بإحتمال ان يقرأ الحرف مثلاً باء : ياء أو تاء أو نوناً أو ثاء ، أي أن الرسم القرآني يحتمل أحياناً خمسة وجوه.

ومع تأخير التنقيط نحو مائة سنة فانه لم يؤثر سلباً ولم يؤدي إلى الإرباك أو الخلاف والخصومة وهو من عمومات قوله تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^(١)، ولإتفاق المسلمين على قراءته وحفظهم لآياته كما أن الصحابة أيام النزول أكثر حفظاً وإنقطاعاً إلى القرآن وقدرة على الحفظ بالفطرة وكانوا يتصفون بالنباهة والفتنة.

بدليل أنهم بادروا إلى دخول الإسلام والجهاد في سبيل الله تعالى حينما رأوا الآيات العقلية فادراكهم للأسرار القدسية لآيات القرآن من بين الأسباب التي ساهمت في الحرص النوعي والشخصي على حفظ آيات القرآن.

وهناك نصوص من السنة النبوية الشريفة تبين حث النبي صلى الله عليه وآله وسلم للمسلمين على حفظ القرآن وقراءته في البيوت وتعاهد

الورد اليومي في قراءته، (وعن علي عليه السلام ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: خيركم من تعلم القرآن وعلمه) ^(١).

وعن أنس قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يا بني لا تغفل عن قراءة القرآن اذا أصبحت واذا امسيت فان القرآن يحيي القلب الميت وينهي عن الفحشاء والمنكر).

وحديث الثقلين المشهور عند جميع فرق المسلمين وبطرقهم المختلفة: إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله عز وجل وأهل بيتي وإنهما لن يتفرقا حتى يردا علي الحوض ^(٢).

فالحديث يؤكد في ظاهره وجود القرآن بهيئة المصحف والكتاب المجموع بين دفتين وقد ورد عن الصحابة أنهم كانوا يحفظون عشر آيات من القرآن ولا يجاوزون إلى غيرهن حتى يعلموا تفسيرها ومضامينها فهذا التعلم يساعد في ترسيخ اللفظ في الأذهان، ويمنع من التحريف، ويقلل من احتمال النسيان من وجوه:

الأول : يأتي الحفظ من قبل الجماعة وليس الفرد.

الثاني : التعلم يمنع من الشك اللاحق باحتمال إرادة كلمة أخرى بدل اللفظ القرآني، فالتعليم ترسيخ لكلمات القرآن في الصدور.

الثالث : فيه دلالة على إشتراك المسلمين في تدارس القرآن وتعاونه وحفظه ولم يمكن هناك احتمال لضياح بعض آياته أو سقوط بعض كلماته.

وقيام المسلمين بتعلم ودراسة القرآن لابد وان يكون مقروناً بالقراءة والكتابة وتدل عليه الأخبار التي وردت بان النبي صلى الله عليه وآله وسلم إتخذ جماعة من الصحابة ليكونوا كتاباً للوحي.

(١) سنن الترمذي ١٧٥/٥.

(٢) معجم ابن عساكر ٤٩٤/١.

وعندما ينزل عليه وحي ولم يكن معه واحد منهم كان يرسل عليهم في الحال ليكتبوا ما نزل عليه، فلم يترك الكتابة إلى حين حضور كتاب الوحي وهذه المسألة تؤكد توثيق الآيات وكتابتها حال نزولها وإن لم تكن السور كلها مجموعة بين دفتين.

وهناك اخبار كثيرة ذكرت بان الصحابة كانوا يكتبون القرآن أجمعه في العُصْب وهو جريد النخل إذا نزع عنه خوصه، والخاف وواحدتها لخفة وهي الحجارة البيضاء العريضة الرقيقة.



الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٣	المقدمة	١٣٠	اللغة
٥	إعجاز القرآن	١٤٧	قوله تعالى ﴿بَعْدَهُ﴾
١٧	ما ذكر في إعجاز القرآن	١٥٥	تفسير قوله تعالى ﴿مِنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾
٦٧	تعلم القرآن وتعليمه	١٥٩	تفسير قوله تعالى ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾
٧٧	في علم الحديث	١٦١	تفسير قوله تعالى ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾
٨٣	أقسام الخبر الواحد	١٦٣	تفسير قوله تعالى ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾
٩٢	الإنفتاح والإنسداد	١٦٥	الإسراء ونزول القرآن
٩٥	القرآن والعقل	١٦٨	الإسراء والوحي
١٠١	بحث أصولي	١٧١	بحث كلامي
١٠٦	الصيام نظرة قرآنية	١٧٤	بحث كلامي
١٢٤	طرق ثبوت الهلال ومرتكزاتها الأصولية	١٨٠	هل الجنة والنار مخلوقتان
١٢٦	ليلة القدر	١٨٧	الإيمان بالمعراج
١٢٩	الإسراء .. نظرة قرآنية	١٨٩	الإسراء والهبوط

الفهرس

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
خواتيم السور	٢٦٠	المعراج والملائكة	١٩٣
خواتيم الآيات	٢٦٤	المعراج في القرآن	٢٠٠
جمع القرآن	٢٦٦	الإسراء والعلم	٢٠٥
الفهرس	٢٧٤	الإسراء والعلوم المعاصرة	٢٠٦
		تأريخ الإسراء	٢٠٨
		الإسراء عقلاً	٢١٤
		إسراء الأنبياء	٢١٦
		بحث عرفاني	٢٢٢
		الإسراء وبيت المقدس	٢٢٥
		الإسراء بالبدن	٢٣٠
		المكي والمدني	٢٣٧
		منافع تقسيم الآيات إلى المكي والمدني	٢٤٣
		سياق الآيات المناسبة بين الآيات	٢٥٤